سُورة الأَنعام

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٦ – سورة الأنعام

وهى مكية . وهى مئة وخمس وستون آية

روى العوفىّ وعكرمة وعطاء عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هى مكية ، نزلت جملة واحدة ، نزلت ليلًا ، وكتبوها من ليلتهم ، غير ست آيات منها ، فإنها مدنيات ، وهى قوله تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ . . . (١) إلى آخر الثلاث آيات . وقوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ

(١) [٦ / الأنعام / ١٥١–١٥٣] ونصها : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

obeikandi.com

قَدْرِهِ ...[١] الآية . وقوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ...[٢] إلى آخر الآيتين .

وذكر مقاتل نحو هــــذا وزاد آيتين ، وهما قوله تعالى : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ . . .[٣] الآية . وقوله تعالى : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ . . .[٤] الآية .

وروى عن ابن عباس أيضاً وقتادة أنهما قالا : إنها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة ، قوله: وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ[٥] . وقوله : وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ...[٦] الآية .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًىٰ لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهَا قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢١ ، ٢٢] ونصهما : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٥) انظر الحاشية رقم ١ .

(٦) [٦ / الأنعام / ١٤١] ونصها : وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ =

قال البيهقىّ فى (الدلائل) : فى بعض السور التى نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة ، فألحقت بها . وكذا قال ابن الحصار : كل نوع من المكىّ والمدنىّ ، منه آيات مستثناة . قالا : إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد دون النقل . ثم ناقش فى استثناء هذه الآيات ، قال : ولا يصح به نقل ، خصوصاً ما ورد أنها نزلت جملة .

وردّ عليه السيوطىّ بأنه صح النقل عن ابن عباس، باستثناء : قُلْ تَعَالَوْا ...[١] الآيات الثلاث ، والبواقى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ[٢] ، لما أخرجه ابن أبى حاتم أنها نزلت فى مالك بن الصيف . وقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً[٣] . نزلتا فى مسيلمة. وقوله : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ[٤] . وقوله : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ[٥] .

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبىّ قال : نزلت الأنعام كلها بمكة ، إلا آيتين نزلتا بالمدينة فى رجل من اليهود ، وهو الذى قال : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ[٦] ـ كذا فى (اللباب) و (الإتقان) . ومن خصائص هذه السورة ما أخرجه الطبرانىّ عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلًا ، جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك ، يجأرون بالتسبيح .

= مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣٠ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣١ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣١ .

(٤) انظر الحاشية رقم ٤ ص ٢٢٣١ .

(٥) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٢٣١ .

(٦) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣١ .

وروى السدّىّ عن ابن مسعود قال : نزلت سورة الأنعام يشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة. وروى نحوه من وجه آخر عنه أيضاً .

وروى الحاكم فى (مستدركه) عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ماسدَّ الأفقَ . ثم قال : صحيح على شرط مسلم .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت سورة الأنعام معها موكب الملائكة سدّ ما بين الخافقَيْن ، لهم زجَل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتج ، ورسول الله يقول : سبحان الله العظيم ! سبحان الله العظيم !

وأخرج أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت علىّ سورة الأنعام جملة واحدة ، وشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة ، لهم زَجَل بالتسبيح والتحميد .

قال الرازىّ : قال الأصوليون : هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة :

أحدها ـ أنها نزلت دفعة واحدة .

والثانى ـ أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة . والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين . وذلك يدل على أن علم الأصول فى غاية الجلالة والرفعة . وأيضاً فإنزال مايدل على الأحكام ، قدتكون المصلحة أن ينزله الله تعالى قدر حاجتهم ، وبحسب الحوادث والنوازل . وأما ما يدل على علم الأصول ، فقد أنزله الله جملة واحدة، وذلك يدل على أن تعلم علم الأصول واجب على الفور، لا على التراخى. اهـ

وأخرج[1] الدارمىّ فى (مسنده) عن عمر رضى الله عنه قال : الأنعام من نواجب القرآن.

وفى القاموس : نجائب القرآن أفضله ومحضه . ونواجبه لبابه . انتهى .

وسميت بـ(سورة الأنعام) ، لأن أكثر أحكامها ، وجهالات المشركين فيها ، وفى التقرب بها إلى أصنامهم ـ مذكورة فيها .

---

(١) أخرجه الدارمىّ فى (مسنده) فى : ٢٣ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١٧ ـ باب فضائل الأنعام والسور : عن عمر قال : الأنعام من نواجب القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى جميع المحامد ، بما حمد به نفسه أو خلقه ، أو حمد به الخلقُ ربهم ، أوبعضهم، مخصوص به . ثم أخبر عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامدبقوله: « الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » خصهما بالذكر ، لأنهما أعظم المخلوقات ، فيما يرى العباد ، وفيهما العبر والمنافع ، لأن السموات بأوضاعها وحركاتها أسباب الكائنات والفاسدات التى هى مظاهر الكمالات الإلٰهية . والأرض مشتملة على قوابل الكون والفساد التى هى المسببات .

« وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » أى : أوجدهما منفعة لعباده ، فى ليلهم . ونهارهم . وههنا :

لطائف

الأولى ـ أن المقصود من الآية التنبيه على أن المنعم بهذه النعم الجسام هو الحقيق بالحمد والعبادة ، دون ما سواه .

الثانية ـ لفظ (جعل) يتعدى إلى واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كما هنا ؛ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى (صيَّر) كقوله[١] : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا . والفرق بين (الخلق) و (الجعل) : أن (الخلق) فيه معنى التقدير ، وفى (الجعل) معنى التضمين ، كإنشاء شىء من شىء أوتصيير شىء شيئاً ، أونقله من مكان إلى مكان . ومن ذلك :

(١) [٤٣ / الزخرف / ١٩] .

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا[١] أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا[٢]. وإنما حسَّن لفظ (الجعل) ههنا، لأن النور والظلمة لما تعاقبا ، صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر ـ قاله الرازىّ ـ وسبقه إليه الزمخشرىّ .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وقد وردت (جَعَلَ) و (خَلَقَ) موردًا واحدًا . فورد: وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا[٣] . وورد : وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا[١] . وذلك ظاهر فى الترادف . إلا أن للخاطر ميـلًا إلى الفرق الذى أبداه الزمخشرىّ . ويؤيده أن (جَعَلَ) لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمهما (خَلَقَ) . وفى إضافة (الخلق) فى هذه الآية إلى السموات والأرض ، و (الجعل) إلى الظلمات والنور ، مصداق للمميّز بينهما ـ والله أعلم ـ .

الثالثة ـ إن قيل : لم جمعت السموات دون الأرض مع أنها مثلهن لقوله تعالى : وَمِنَ

(١) [٧/ الأعراف/ ١٨٩] ونصها : هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

و [٣٩ / الزمر / ٦] ونصها : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٥] .

(٣) [٤ / النساء / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ[(١)] ، وفى الحديث[(٢)] : هل تدرون ما هذه ؟ قالوا : هذه أرض . هل تدرون ما تحتها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : أرض أخرى ، وبينهما مسير خمسمئة عام ، حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمئة عام ـ أخرجه الترمذىّ ، وأبو الشيخ عن أبى هريرة رضى الله عنه ؟ .

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ونصها : اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ونصه :

عن أبى هريرة قال : بينا نبىّ الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبىّ الله ﷺ « هل تدرون ما هذا » ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان . هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « بينكم وبينها مسيرة خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع سماوات ، مابين كل سماءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بُعْدُ مابين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الأرض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس محمد بيده ! لو أنكم دليتم رجلًا بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » .

ثم قرأ : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

فالجواب : لأن السموات طبقات متفاضلة بالذات ، مختلفة بالحقيقة ، بخلاف الأرضين ـ كما قاله البيضاوىّ ـ .

وقال الرازىّ : إن السماء جارية مجرى الفاعل . والأرض مجرى القابل . فلو كانت السماء واحدة لَتَشَابَهَ الأثر ، وذلك يخلّ بمصالح هذا العالم . أما لو كانت كثيرة اختلفت الاتصالات الكوكبية ، فحصل بسببها الفصول الأربعة ، وسائر الأحوال المختلفة ، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هـذا العالم . أما الأرض فهى قابلة للأثر ، والقابل الواحد كاف فى القبول . انتهى .

وقدم السموات لشرفها وعلوّ مكانها .

الرابعة ـ الظاهر فى (الظلمات والنور) أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر . والذى يقوى ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما . والأصل حمل اللفظ على حقيقته ، ولأن (الظلمات والنور) إذا قرنا بالسموات والأرض ، لم يفهم منهما إلا الأمران المحسوسان .

ونقل عن بعض السلف أنه عنى بهما الكفر والإيمان .

ورجح الرازىّ الأول لما ذكر .

ووجه بعضهم الثانى بأن المعنى : أنه لما خلق السموات والأرض ، فقد نصب الأدلة على معرفته وتوحيده . ثم بيّن طرق الضلال ، وطريق الهدى ، بإنزال الشرائع والكتب السماوية . ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، فناسب المقام (ثم) الاستبعادية ، إذ يبعد من العاقل الناظر بعد إقامة الدليل، اختيار الباطل . انتهى .

وعليه فجمع (الظلمات) وتوحيد (النور) ظاهر. لأن الهدى واحد ، والضلال متعدد، كما قال فى آخر هذه السورة[1] : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وعلى الأول، فجمعها لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ، فإن لكل جرم ظلمة ، وليس لكل جرم نور . وأما تقديمها فلسبقها فى التقدير والتحقق ، على النور .

وفى الأثر[1] : إن الله خلق الخلق فى ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره .

وقوله تعالى: « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى ، بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه . مسوق لإنكار ماعليه الكفرة ، واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها ، واجترائهم على ما يقضى ببطلانه بديهة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٧٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبد الله بن الدَّيلمىّ قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط له بالطائف ، يقال له الوَهْط ، وهو مخاصر فتى من قريش ، يُزَنّ بشرب الخمر . فقلت له : بلغنى عنك حديثٌ : أن من شرب شربة خمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحا . وأن الشقىّ من شقى فى بطن أمه ، وأن من أتى بيت المقدس لا ينهزُه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه .

فلما سمع الفتى ذكر الخمر ، اجتذب يده من يده ، ثم انطلق .

ثم قال عبد الله بن عمرو : إنى لا أحلّ لأحد أن يقول علىّ ما لم أقل .

سمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عزّ وجلّ خلق الخلق فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ . فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ . فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عزّ وجلّ » .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

ورواه الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٨ ـ باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة .

العقول. والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمدوالعبادة ، باعتبار ذاته ، وباعتبارما فصل من شؤونه العظيمة الخاصة به ، الموجبةلقصر الحمد والعبادة عليه . ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه ، ويعدلون به سبحانه . أي : يسوّون به غيره فىالعبادة التى هىأقصى غاياتالشكر ، الذىرأسه الحمد ، مع كون كل ما سواه مخلوقا له ، غير متصف بشيء من مبادىء الحمد .

وكلمة (ثم) لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية ، القاضية ببطلانه . و (الباء) متعلقه بـ (يعدلون) ووضع (الرب) موضع ضميره تعالى ، لزيادة التشنيع والتقبيح . والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد، والمحافظة على الفواصل . وترك المفعول لظهوره ، أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل ، بتنزيله منزلة اللازم ، إيذاناً بأنه المدار فىالاستبعاد ، لا خصوصية المفعول . هـذا هو الحقيق بجزالة التنزيل ـ أفاده أبو السعود ـ .

ثم ناقش ما وقع للمفسرين هنا مما يخالفه. فانظره .

وأصل (العدل) مساواة الشيء بالشيء . والمعنى : أنهم يجعلون له عديلاً من خلقه ، مما لا يقدر على شيء ، فيعبدون الحجارة ، مع إقرارهم بأن الله خالق السموات والأرض .

وقال النضر بن شميل : (الباء) بمعنى (عن) أى : عن ربهم يعدلون وينحرفون ، من العدول عن الشيء .

لطيفة :

قال ابن عطية رحمه الله : (ثم) دالة على قبح فعل الذين كفروا ، لأن المعنى أن خلقه السموات قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين . ثم بعد هـذا كله قد عدلوا بربهم . فهذا كما تقول : أعطيتك وأحسنت إليك ، ثم تشتمنى ؟ ولو وقع العطف فى هذا ونحوه بـ (الواو) لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثم) . انتهى . أى : ففيها الدلالة على التوبيخ والإنكار ، كالتعجيب أيضاً .

قال أبو حيان : هذا الذى ذهب إليه ابن عطية من أن (ثم) للتوبيخ . والزمخشرىّ من أنها للاستبعاد ـ مفهوم من سياق الكلام ، لا من مدلول (ثم) . انتهى .

وإنما لم تحمل (ثم) على التراخى ، مع استقامته ، لكون الاستبعاد أوفق بالمقام ، لأن التراخى الزمانىّ معلوم فيه ، فلا فائدة فى ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث ، مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به ، إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى ، مع معاينتهم لموجبات توحيده . وتخصيصُ خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث ، مع أن ما ذكره من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها ، كما ورد فى قوله تعالى(١) : أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ـ لما أن محل النزاع بعثهم . فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر ، وهم بشؤون أنفسهم أعرف ، والتعامى عن الحجة النيرة أقبح . والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ . أى : ابتدأ خلقكم منه ، فإنه المادة الأولى للكل ، لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر . وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين ، لا إلى آدم عليه السلام ، وهو المخلوق منه حقيقة ، بأن يقال : هو الذى خلق أباكم ... الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه ، فى إيجاب الإيمان بالبعث ، وبطلان الامتراء ـ لتوضيح منهاج القياس ، وللمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس . مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية : هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه ، عليه السلام ، منه ،

(١) [٣٦ / يس / ٨١] ... بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر آحاد الجنس ، انطواءً إجمالياً ، مستتبعاً لجريان آثارها على الكل . فكان خلقُه عليه السلام من الطين خلقاً لكل أحد من فروعه منه . ولما كان خلقه على هذا النمط السارى إلى جميع أفراد ذريته ، أبدع من أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه ، كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه ، وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم ، وكمال علمه وحكمته ، وكان ابتداء حال المخاطبين أولى بأن يكون معيارًا لانتهائها ـ فعل ما فعل . ولله در شأن التنزيل ! وعلى هذا السر مدار قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ . . .[1] الخ . وقوله تعالى : وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً[2] . كما سيأتى .

وقيل : المعنى خلق أباكم منه ، على حذف المضاف . وقيل : معنى خلقهم منه ، خلقهم من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض . وأيًّاما كان ، ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث ، مالا يخفى . فإن من قدر على إحياء مالم يشم رائحة الحياة قط ، كان على إحياء ما قارنها مدة أظهر قدرة ـ أفاده أبو السعود ـ .

وفى (العناية) : أن فى الآية التفاتاً ، لأن الخطاب ـ وإن صح كونه عامًّا ـ لكنه خاص بالذين كفروا ، كما يقتضيه (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) . ونكتته أن دليل الأنفس أقرب إلى الناظر من دليل الآفاق الذى فى الآية السابقة ، والشكر عليه أوجب . وقد أشير فى كل من الدليلين إلى المبدأ والمعاد ، وما بينهما . انتهى .

(١) [٧ / الأعراف / ١١] . . . ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٩] ونصها : قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً .

أخرج أبو داود[١] والترمذيّ عن أبي موسى الأشعريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك . والسهلُ والحَزْنُ ، والخبيث والطيّب .

وقوله تعالى : « ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا » أي: كتب لموت كل واحد منكم أجلًا خاصًّا به . أي : حدًّا معيناً من الزمان يفنى عند حلوله . أو كتب ، لِمَا بين أن يولد كل منكم إلى يوم أن يموت ، أجلًا .

« وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ » أي : وحدّ معين لبعثكم جميعاً ، مثبت معيّن في علمه ، لا يقبل التغيير ، ولا يقف على وقت حلوله أحد . كقوله تعالى[٢] : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ . فمعنى (عِنْدَهُ) أنه مستقل بعلمه . و (أَجَلٌ) مبتدأ لتخصيصه بالصفة ، ولوقوعه في موقع التفصيل . وتنوينه لتفخيم شأنه ، وتهويل أمره ، ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذي هو (عِنْدَهُ) ، مع أن الشائع في مثله التأخير ، كأنه قيل : وأيّ أجل معين في علمه لا يعلمه أحد لا مجملًا ولا مفصلًا . وأما أجل الموت فمعلوم إجمالًا وتقريباً ، بناء على ظهور أماراته ، أو على ما هو المعتاد في أعمار الإنسان .

« ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » استبعاد واستنكار لامترائهم في البعث ، بعد معاينتهم لما ذكر

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١٦ ـ باب في القدر ، حديث ٤٦٩٣ وأخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١ ـ حدثنا محمد ابن بشار .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

من الحجج الباهرة الدالة عليه . أى : تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه ، مع مشاهدتكم فى أنفسكم ما يقطع مادة الامتراء . فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها ، وإبقائها ما يشاء ، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ » أى المعبود فيهما ، « يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » أى من الأقوال أو الدواعى والصوارف القلبية وأعمال الجوارح ، « وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ » أى : ماتفعلونه من خير أو شر ، فيثيب عليه ويعاقب . وتخصيصه بالذكر ، مع اندراجه فيما سبق ، على التفسير الثانى للسر والجهر ـ لإظهار كمال الاعتناء به لأنه الذى يتعلق به الجزاء ، وهو السر فى إعادة (يعلم) .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وما هاتان الآيتان الكريمتان ـ يعنى هذه الآية وآية الزخرف ، وهى قوله تعالى(١) : وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ـ إلا توأمتان . فإن التمدح فى آية الزخرف ، وقع بما وقع التمدح به ههنا من القدرة على الإعادة والاستئثار بعلم الساعة والتوحد فى الألوهية ، وفى كونه تعالى المعبود فى السموات والأرض .

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : للمفسرين فى هذه الآية أقوال ، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول ، القائلين ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه فى كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك . فالأصح من الأقوال أنه المدعوّ فى السموات وفى الأرض ، أى :

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

يعبده ويوحده ويقرّ له بالإلهية من فى السموات ومن فى الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَغَباً وَرَهَباً[(١)] إلا من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية ـ على هذا القول ـ كقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَٰهٌ. أى : هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض . وعلى هذا، فيكون قوله : (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) خبراً أو حالا .

والقول الثانى ـ إن المراد أنه الله الذى يعلم ما فى السموات ومافى الأرض من سر وجهر . فيكون قوله (يَعْلَمُ) متعلقا بقوله (فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ) تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات ... الخ .

والقول الثالث ـ إن قوله : (وَهُوَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ) وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال (وَفِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) وهذا اختيار ابن جرير. انتهى .

ورجح ابن عطية فى الآية : أنه الذى يقال له (الله) فيهما . قال : وهذا عندى أفضل الأقوال ، وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ ، وجزالة المعنى . وإيضاحه : أنه أراد أن يدل على خلقه ، وآيات قدرته ، وإحاطته واستيلائه ، ونحو هذه الصفات. فجمع هذه كلها فى قوله (وَهُوَ اللهُ ـ الَّذِى لَهُ هَٰذِهِ كُلُّهَا ـ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ) كأنه قال : وهو الخالق والرازق والمحيي والمميت فيهما .

تنبيه :

قال الرازىّ : الآية تدل على كون الإنسان مكتسباً للفعل ، والكسب هو الفعل المُفضِى إلى اجتلاب نفع ، أو دفع ضرّ . ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب ، لكونه تعالى منزّهاً عن جلب النفع ، ودفع الضرّ ـ والله أعلم ـ .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢١/ الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ » يعنى : مايظهر لكفار مكة دليل من الأدلة التى يجب فيها النظر والاعتبار ، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن ، التى من جملتها الآيات السالفة ، الناطقة ببدائع صنعه وقدرته على البعث «إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» أى : على وجه التكذيب والاستهزاء ، لقلة خوفهم وتدبرهم ، فى العواقب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ » يعنى: القرآن الذى تُحُدُّوا به ، فعجزوا عنه « فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى : مصداق أنباء الحق الذى كانوا يكذبون به على سبيل الاستهزاء . وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة . فهو وعيد شديد لهم بأنه لابد لهم أن يذوقوا وباله . وقد ذاقوه يوم بدر وغيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ)

«أَلَمْ يَرَوْا» أى: ألم يعلموا علماً يشبه الرؤية بالبصر، لما سمعوا بالتواتر من إتيان المستهزئين قبلهم، أنباءهم مرارا كثيرة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ»، أى من أمة، فلم نبق منها

أحدا ، مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم الماضية ، والقرون الخالية . « مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ » أي : قررناهم وثبتناهم في الأرض ، « مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » أي : ما لم نجعل لكم من السعة والرفاهية وطول الأعمار ، ياأهل مكة ! « وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ » أي المطر . قال المهايمي : هو أبلغ مِنْ (أَنْزَلْنَا) في الدلالة على الكثرة ، « عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا » أي كثيراً ، « وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ » أي من تحت أشجارهم ، فعاشوا في الخصب بين الأنهار والثمار ، وسقيا الغيث المدرار ، « فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أي : بسبب ذنوبهم وكفرهم ، وتكذيبهم رسلهم ، وجعلناهم أحاديث ، فماأغنى عنهم ما كانوا فيه. أي وسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب . « وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » أي: بدلا من الهالكين . يعني : فلا يتعاظمه تعالى أن يهلك هؤلاء ، ويخلي ديارهم منهم ، وينشيء أمة سواهم ، فما هم بأعزّ على الله منهم . والرسول الذي كذبوه أكرم على الله من رسلهم . فهم أولى بالعذاب ، ومفاجأة العقوبة، لولا لطفه وإحسانه .

ثم بين تعالى شدة مكابرتهم ، إثر إعراضهم، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ » أي مكتوباً في ورق ،« فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ » أي : فمسوه ، « لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا » أي : ليس هـذا المعظم بهذه الوجوه الدالة على أنه لا يكون إلا من الله ، « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » تعنتاً وعناداً . وتخصيص (اللمس) لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا ، ولأنه يتقدمه الإبصار ، حيث لا مانع . وتقييده بـ (الأيدي) لرفع التجوز ، فإنه قد يتجوز به للفحص ، كقوله[١]: وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ـ أفاده البيضاوي .

---

(١) [٧٢ / الجن / ٨] . . . فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا .

قال الناصر فى (الانتصاف) : والظاهر أن فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم ، تحقيق القراءة على قرب . أى : فقرءوه وهو فى أيديهم ، لا بعيد عنهم ، لما آمنوا .

وقال ابن كثير : وهـذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ [(١)] . ولقوله تعالى : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ [(٢)] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ)

« وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » أى: ليكون معه فيكلمنا أنه نبىّ ، كقوله[(٣)] : لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .

« وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ » جواب لمقترحهم ، وبيان لمانعه ، وهو البقيا عليهم ، كيلا يكونوا كالباحث عن حتفه بظلفه . والمعنى : أن الملك لو أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته ، وهى آية لا شىء أبين منها وأيقن ، ثم لم يؤمنوا ، لحاق بهم العذاب ، وفرغ الأمر . فإن سنة الله قد جرت فى الكفار أنهم متى اقترحوا آية ، ثم لم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب ، كما قال تعالى : مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا

---

(١) [١٥ / الحجر / ١٤و١٥] .

(٢) [٥٢ / الطور / ٤٤] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧] ونصها : وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .

إِذًا مُنظَرِينَ(١). وقوله تعالى : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ(٢).

« ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ » أى : لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ، فضلا عن أن ينذروا به. ومعنى (ثم) بعد ما بين الأمرين ، قضاء الأمر ، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار . أشد من قضاء الأمر ، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

تنبيه :

ذكر الزمخشرى وجهاً ثانياً فى تعجيل عذابهم ، عند نزول الملائكة ، وهو أنه نزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف ، فيجب إهلاكهم ، وفى (الكشف) الاختيار قاعدة التكليف ، وهذه آية ملجئة . قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا(٣) . فوجب إهلاكهم ، لئلا يبقى وجودهم عارياً عن الحكمة ، إذ ما خلقوا إلا للابتلاء بالتكليف، وهو لا يبقى مع الإلجاء . هذا تقريره على مذهبهم ، وهو غير صاف عن الإشكال . انتهى . وفيه إشارة إلى أنه ليس على قواعد السنة ، وكأنّ وجه إشكاله أنه وقع فى القرآن ، والواقع ما ينافيه ، كما فى قوله تعالى : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ... الآية(٤) ـ كذا فى (العناية) ـ

---

(١) [١٥ / الحجر / ٨] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] . . . وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا .

(٣) [٤٠ / الفتح / ٨٥] . . . سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ، وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وذكر أيضاً وجهاً ثالثاً . وهو أنهم إذا شاهدوا ملَكاً فى صورته، زهقت أرواحهم من هول مايشاهدون .

قال فى (الانتصاف) : ويقوّى هذا الوجه قوله : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا . قال ابن عباس . ليتمكنوا من رؤيته ، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته . انتهى .

وهذا الوجه آثره أبو السعود فى التقديم حيث قال : أى لو أنزلنا ملكاً على هيئته حسبما اقترحوه ، والحال أنه من هول المنظر ، بحيث لاتطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية. ألا يرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصورة البشرية ؟ كضيف إبراهيم ولوط ، وخصم داود عليهم السلام ، وغير ذلك . وحيث كان شأنهم كذلك ، وهم مؤيدون بالقوى القدسية ، فما ظنك بمن عداهم من العوام ؟ فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية ، واستحال جعله نذيرًا ، وهو ـ مع كونه خلاف مطلوبهم ـ مستلزم لإخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة ، من إرسال الرسل ، وتأسيس الشرائع. وقد قال سبحانه : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا[(1)] . انتهى .

وفى (العناية) أن الوجه الثالث لا يناسب قوله (ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) ، لأنه يدل على إهلاكهم ، لا على هلاكهم ، برؤية الملك ، إلا بتكلف .

هذا، وقال الناصر فى (الانتصاف) : على الوجه الأول لايحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية فى نزول الملك . فإنه ربما يُفهم هذا الكلام أن الآيات التى لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك فى الوضوح، وليس الأمر كذلك . فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك وعدم إيمانهم ، أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه ، إذ الذى يتوقف الوجوب عليه المعجز من حيث كونه معجزًا ، لا المعجز الخاص ،

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] ونصها : مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا .

فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم ، فلم ينجع فيهم ، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ فى العناد المناسب لعدم النَّظِرة ـ والله أعلم ـ

قال المهايمىّ : لا دليل على النبوة سوى شهادة الملك ، وتنزيل الملك بصورته الملكوتية يقطع أمر التكليف ، إذ لا ينفع الإيمان بعد انكشاف عالم الملكوت ، فلا يمهلون ، لأن الإمهال للنظر . والمعجزة ـ وإن أفادت علماً ضرورياً ـ لا تخلو عن خفاء يحتاج إلى أدنى نظر ، ولاخفاء مع انكشاف عالم الملكوت ، فلا وجه للإمهال للنظر، فلا يقبل الإيمان معه، فلا بد من المؤاخذة عقيبه . انتهى ـ فليتأمل ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ)

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » جواب ثان . أى: ولوجعلنا النذير الذى اقترحوه ملكاً لمثلناه رجلًا ، لما مرّ من عدم استطاعة الآحاد ، لمعاينة الملك على صورته ، من النور. وإنما رآه كذلك الأفراد من الأنبياء بقوتهم القدسية . « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ » جواب محذوف . أى : ولو جعلناه رجلًا لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم حينئذ ، بأن يقولوا له : إنما أنت بشر ، ولست بملك . ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز ، الناطق بها ، أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق ـ لكذبوه ، كما كذبوا النبىّ عليه الصلاة والسلام . ولو أظهر لهم صورته الأصلية لزم ما تقدم من قضاء الأمر .

تنبيهات

الأول ـ فى إيثار (رَجُلًا) على (بَشَرًا) إيذان بأن الجعل بطريق التمثيل ، لا بطريق قلب الحقيقة ، وتعيين لما يقع به التمثيل .

الثانى ـ فى الآية بيان لرحمته تعالى بخلقه ، وهو أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق

رُسُلًا منهم، ليدعو بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض فى المخاطبة والسؤال . كما قال تعالى : لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ...(١) الآية . وقال تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا(٢) .

الثالث ـ التعبير عن تمثيله تعالى (رَجُلًا) باللبس إما لكونه فى صورة اللبس ، أو لكونه سبباً للبسهم ، أو لوقوعه فى صحبته بطريق المشاكلة . وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً ، كأنه قيل : لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم ـ أفاده أبو السعود .

الرابع ـ جوز بعضهم وجهاً ثانياً فى قوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً) وهو أن يكون جواب اقتراح ثان ، على أن الضمير عائد للرسول ، لا لمقترحهم السابق . قال : لأنهم تارة يقولون : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وتارة يقولون: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً(٣) . والمعنى: ولو جعلنا الرسول ملكاً لمثلناه رجلًا . والظاهر هو الوجه الأول .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] ... وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٩٥] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٤] ونصها : إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وقوله تعالى : «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ». تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصر ، والعاقبة الحسنة فى الدنيا والآخرة . و (حاق) بمعنى نزل وحلّ . ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر . أى : فنزل بهم وبال استهزائهم ، أو العذاب الذى كانوا يسخرون من التخويف به ، إذ هلكوا فى الدنيا على أقبح الوجوه ، ثم ردوا إلى أفظع العذاب أبد الآبدين. وجعل الرسل فى أعلى منازل القرب من رب العالمين .

ثم أمر تعالى أن يصدعهم بالتجول فى الأرض إن ارتابوا فيما تواتر ، أو تعاموْا عمَّا رأوْا، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » أى : سيروا فى الأرض لتعرّف أحوال أولئك الأمم ، وتفكروا فى أنهم كيف أُهلكوا لمَّا كذبوا الرسل وعاندوا ، فتعرفوا صحة ما توعظون به . وفى السير فى الأرض ، والسفر فى البلاد ، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها ـ تكملة للاعتبار ، وتقوية للاستبصار . أى : فلا تغتروا بما أنتم عليه من التمتع بلذات الدنيا وشهواتها .

وفى هذه الآية تكملة للتسلية ، بما فى ضمنها من العدة اللطيفة ، بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين . وقد أنجز ذلك يوم بدر أىّ إنجاز .

لطيفة :

وقع هنا (ثُمَّ انْظُرُوا) . وفى النمل[١] : قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا . وكذا فى العنكبوت[٢] . فتكلف بعضهم لتخصيص ما هنا بـ (ثم) ، كما هو مبسوط فى (العناية) ، مع ماعليه . ونقل عن بعضهم أن السير متحد فيهما ، ولكنه أمر ممتد ، يعطف بالفاء تارةً، نظرًا لآخره ، وبـ (ثم) نظرًا لأوله ، ولا فرق بينهما .

وفى (الانتصاف) : الأظهر أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحدًا ، ليكون ذلك سببًا فى النظر ، فحيث دخلت الفاء ، فلإظهار السببية . وحيث دخلت (ثم) ، فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير . وشتان بين المقصود والوسيلة ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلّٰهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لِمَنْ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى:خلقاً وملكاً ، وهو سؤال تبكيت وتقريع، « قُلْ لِلّٰهِ » تقرير للجواب ، نيابة عنهم . أى : هو لله ، لا خلاف بينى وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره . ففيه تنبيه على تعينه للجواب اتفاقاً ، كما فى قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ . ومن المقرر أن أمر السائل بالجواب إنما يحسن فى موضعٍ يكون فيه الجواب قدبلغ من الظهور إلى حيث لا يقدر

---

(١) [٢٧ / النمل / ٦٩] . . . كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] . . . كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللّٰهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللّٰهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

على إنكاره منكر ، ولا على دفعه دافع ، كما هنا . قيل : وفيه إشارة إلى أنهم تثاقلوا فى الجواب، مع تعينه، لكونهم محجوجين .

وقوله تعالى « كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ، ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق ، شمول ملكه وقدرته للكل ، مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بعباده ، لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم التوبة والإنابة ، وأن ماسبق ذكره ، وما لحق من أحكام الغضب ، ليس من مقتضيات ذاته تعالى ، بل من جهة الخلق . كيف لا ؟ ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة ، وهداهم إلى معرفته وتوحيده ، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه ، والتحذير عن مقتضيات سخطه . وقد بدلوا فطرة الله تبديلا ، وأعرضوا عن الآيات بالمرة ، وكذبوا بالكتب ، واستهزؤوا بالرسل ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(١). ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضاً مسلك الغابرين . ومعنى : (كتب الرحمة على نفسه) أنه تعالى أوجبها وقضاها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة، بالذات ، لا بتوسط شيء أصلا . وفى التعبير عن (الذات) بـ (النفس) حجة على من ادعى أن لفظ (النفس) لا يطلق على الله تعالى ، وإن أريدبه الذات، إلا مشاكلة. لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى « لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » جواب قسم محذوف . والجملة استئناف مسوق للوعيد ، على إشراكهم وإغفالهم النظر ، لأنه لما بين كمال إلهيته بقوله (قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلّٰهِ) . ثم أخبر بأنه يرحمهم فى الدنيا بالإمهال ، ودفع عذاب الاستئصال ، أعلم أنه يجمعهم لذلك اليوم ، ويحاسبهم على كل ما فعلوا ، لأن الملك الحكيم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] .

لا يهمل أمر رعيته ، ولا يسوغ فى حكمته أن يسوى بين المطيع والعاصى قيل :(ليجمعنكم) جواب لقوله : (كَتَبَ) ، لأنه يجرى مجرى القسم .

وقيل : (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) بدل من الرحمة ، بدل البعض .

قال المهايمىّ : كمال الرحمة فى الجزاء ، إذ بدونه تضيع مشاق المعارف الإلهية ، والأعمال الصالحة ، وتضيع المظالم ، ولا جزاء فى دار الدنيا ، لأنه فرع التكليف ، ودار التكليف لا تكون دار الجزاء ، لأن مشاهدته مانعة من التكليف . انتهى .

و (إلى) بمعنى اللام ، كقوله [1] : إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى فى اليوم ، أو فى الجمع .

« الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » أى : بتضييع رأس مالهم ، وهو الفطرة الأصلية ، والعقل السليم ، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستماع الوحى ، وغير ذلك من آثار الرحمة .

« فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى: لايصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

قال أبو السعود : والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم ، فإن إبطال العقل باتباع الحواس ، والانهماك فى التقليد ، وإغفال النظر ، أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان . والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى، لتقبيح حالهم ، غير داخل تحت الأمر .

تنبيه :

روى فى معنى هذه الآية عن أبى هريرة [2] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما خلق الله

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩] ونصها : رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

(٢) يضطرنا هذا السياق إلى سرد جميع روايات هذا الحديث كما جاءت فى كتابنا =

الخلق كتب فى كتاب ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى ـ رواه الشيخان ـ

وفى البخارىّ : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى سبقت غضبى ، فهو مكتوب عنده ، فهو العرش .

وفى رواية لهما : أن الله لما خلق الخلق .

= (جامع مسانيد صحيح البخارىّ) والحديث رقم ١٥٠٩ فى الصحيح ورقم ٢٣٤ من مسند أبى هريرة ، فها كموها بنصها الكامل :

٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ما جاء فى قول الله تعالى : وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .

حدثنا قتيبة بن سعيد . حدثنا مغيرة بن عبدالرحمن القرشىّ عن أبى الزناد ، عن الأعرج، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٥ ـ باب قول الله تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ .

حدثنا عبدان عن أبى حمزة ، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال« لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه ، هو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش: إن رحمتى تغلب غضبى» .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب: وكان عرشه على الماء. وهو رب العرش العظيم .

حدثنا أبو اليمان . أخبرنا شعيب . حدثنا أبو الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « إن الله لما قضى الخلق، كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتى سبقت غضبى »

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٨ ـ باب وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ .

حدثنا إسماعيل . حدثنى مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال «لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه ؛ إن رحمتى سبقت غضبى». =

وعند مسلم : لما قضى الله الخلق، كتب فى كتاب كتبه على نفسه ، فهو موضوع عنده . زاد البخارىّ : على عرش . ثم اتفقا : إن رحمتى تغلب غضبى .

وسنذكر، إن شاء الله، شذرة من أحاديث الرحمة عند آية (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) قريباً .

قال أبو السعود : ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق ، وأكثر وصولاً إليهم ، مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير .

= ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

وقال لى خليفة بن خياط . حدثنا معتمر . سمعت أبى عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده : غلبت (أو قال سبقت) رحمتى غضبى ، فهو عنده فوق العرش » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

حدثنى محمد بن أبى غالب . حدثنا محمد بن إسماعيل . حدثنا معتمر . سمعت أبى يقول : حدثنا قتادة؛ أن أبا رافع حدثه أنه سمع أباهريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق؛ إن رحمتى سبقت غضبى . فهو مكتوب عنده فوق العرش » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، رقم ١٤و١٥و١٦ (طبعتنا) .

الحديث رقم ١٤ ؛ أن النبىّ ﷺ قال « لما خلق الله الخلق ، كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » .

الحديث رقم ١٥ ؛ عن النبىّ ﷺ « قال الله عزّ وجلّ ، سبقت رحمتى غضبى » .

الحديث رقم ١٦ ؛ قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه على نفسه، فهو موضوع عنده : إن رحمتى تغلب غضبى » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

«وَلَهُ» أى : ولله عز وجل ، « مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى ما استقر وحلّ، من (السكنى) بمعنى (الحلول) . كقوله تعالى : وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ[١] . والمعنى : له تعالى كل ما حصل فى الليل والنهار ، مما طلعت عليه الشمس أو غربت. شبهالاستقرار بالزمان ، بالاستقرار فى المكان ، فاستعمل استعماله فيه . أو (سكن) من (السكون) ، مقابل الحركة . أى : ما سكن فيهما وما تحرك ، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر ، كما فى قوله : سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ[٢] ، لأن ذلك يعرف بالقرينة . وعليه، فإنما اكتفى بالسكون عن ضده دون العكس . لأن السكون أكثر وجودًا ، والنعمة فيه أكثر .

قال بعضهم : لا حاجة لدعوى الاكتفاء ، فإن ما سكن يعم جميع المخلوقات ، إذ ليس شىء منها غير متصف بالسكون ، حتى المتحرك ، حال حركته ، على ما حقق فى الكلام : من أن تفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلة السكنات المتخللة وكثرتها .

لطيفة .

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : ذكر تعالى فى الآية الأولى السموات والأرض ، إذ لا مكان سواهما . وفى هذه الآية ذكر الليل والنهار ، إذ لا زمان سواهما . فالزمان والمكان ظرفان

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٥] . . . وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ .

(٢) [١٦ / النحل/ ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

للمحدثات ، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات ، ومالك للزمان والزمانيات . وهذا بيان فى غاية الجلالة .

وقال الرازىّ : ههنا دقيقة أخرى . وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات . وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات ، لدقائق مذكورة فى العقليات الصرفة . والتعليم الكامل هو الذى يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى . وهذا من سر نظم الآية مع ما قبلها .

« وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » يسمع كل مسموع ، ويعلم كل معلوم ، فلا يخفى عليه شىء مما يشتمل عليه الملوَان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ » أى لكفار مكة المبكّتين بما تقدم : « أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا » أى معبودًا . كقوله تعالى : قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . والمعنى : لا أتخذ وليًّا إلا الله وحده . « فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق . بالجر ، صفة للجلالة ، مؤكدة للإنكار ، «وهو يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ» أى : يَرْزُقُ ولا يُرْزَقُ . أى : المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع . أى : فيجب اتخاذه وليًّا ليعبد شكرًا على إنعامه ، وكفايته الحوائج بلا طلب عوض . قيل : المراد بالطعم الرزق ، بمعناه اللغوىّ . وهو كل ما ينتفع به ، بدليل وقوعه مقابلًا له فى قوله تعالى : مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ[١] . فعبر بالخاص عن العام مجازًا ، لأنه أعظمه وأكثره ، لشدة الحاجة إليه . واكتفى به عن العام ، لأنه يعلم ، من نفى ذلك ، نفى ما سواه .

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٧] .

«قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ». أى : وجهه لله مخلصاً له ، لأصير متبوعاً للباقين . كقوله : وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١) . وكقول موسى : سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(٢) .

« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : وقيل لى : (وَلَا تَكُونَنَّ) . فهو معطوف على (أُمِرْتُ) بمعنى : أمرت بالإسلام ، ونهيت عن الشرك صريحاً مؤكداً، بعد النهى فى ضمن الأمر . ونهى المتبوع نهى التابعين . ويجوز عطفه على (قُلْ) . وفى الآية إرشاد إلى أن كل آمر ينبغى أن يكون عاملاً بما أمر به ، لأنه مقتداهم . قيل : هذه الآية للتحريض ، كما يأمر الملك رعيته بأمر ، ثم يقول : وأنا أول من يفعل ذلك ، ليحملهم على الامتثال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى » أى : بمخالفة أمره ونهيه أىّ عصيان . فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليًّا . « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يعنى : عذاب يوم القيامة ، الذى تظهر فيه عظمة القهر الإلهىّ . وفى الآية مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم ،وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم . ووجه التعريض إسنادماهومعلوم الانتفاء ، بـ (إِنْ)التى تفيد الشك تعريضاً . وجىء بالماضى إبرازا له فى صورة الحاصل على سبيل الفرض ، تعريضاً

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ . . .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

بمن صدر عنهم ذلك . وحيث كان تعريضا لهم ، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك ـ لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية ، مع أنه معصوم . كما لا يتوهم مثله فى قـوله : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ[١] وحينئذ فلا حاجة إلى ما أجيب عن ظاهر دلالته على ما ذكر ، بأن الخوف تعلق بالعصيان الممتنع الوقوع امتناعاً عاديًّا ، فلا يدل إلا على أنه يخاف لو صدر عنه العصيان . وهذا لا يدل على حصول الخوف .

قال بعضهم : لا يقال على تقدير العصيان ، يكون الجواب هو استحقاق العـذاب ، لا الخوف . لأنا نقول : لا منافاة بينهما . فالخوف إما على حقيقته ، أو كناية عن الاستحقاق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

« مَنْ يُصْرَفْ » بالبناء للمفعول ، أى العذاب ، « عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ » أى : نجاه وأنعم عليه ، أو أدخله الجنـة ، لقوله : فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ[٢] ، وقوله : يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ[٣] والجملة مستأنفة ، مؤكدة لتهويل العذاب .

« وَذَٰلِكَ » أى الصرف أو الرحمة ، « الْفَوْزُ الْمُبِينُ » أى : الظاهر .

ثم ذكر تعالى دليلا آخر ، فى أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ وليا غير الله تعالى ، بقوله :

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ..،

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٥] ونصها : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٨] ونصها : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ » أى ببلية ، كفقر ومرض ونحوها . و(الضر) : اسم جامع لما ينال الإنسان من مكروه ، « فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » أى : فلا يقدر على دفعه إلا هو وحده . « وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ » من عافية ورخاء ونحوها : و (الخير) اسم جامع لما ينال الإنسان من محبوب له ، « فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى : ومن جملته ذلك ، فيقدر عليه ، فيمسك به ، ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد . كقوله تعالى : فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ[١] . وكقوله سبحانه : مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ[٢] .

وفى الصحيح[٣] أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ .

---

(١) [١٠/يونس/١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٢) [٣٥/ فاطر/ ٢] ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٥ ـ باب الذكر بعد الصلاة ، حديث رقم ٥٠٠ وهذا نصه :

عن وَرَّاد ، كاتب المغيرة بن شعبة قال: أملى علىّ المغيرة بن شعبة ، فى كتاب إلى معاوية؛ أن النبىّ ﷺ كان يقول فى دُبُر كل صلاة مكتوبة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم ! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه[1] قال : كنت خلف النبيّ ﷺ فقال : ياغلام ! إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله تعالى لك، ولواجتمعوا على أن يضروك بشىء ، لم يضروك إلا بشى قد كتبه الله تعالى عليك . رفعت الأقلام ، وجفت الصحف ـ رواه الترمذىّ ـ وقال : حسن صحيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » أى : هو الغالب بقدرته ، المستعلى فوق عباده ، يدبر أمرهم بما يريد ، فيقع فى ذلك مايشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ، فلا يستطيع أحد منهم ردّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره وتقديره .

قال أبو البقاء : فى (فوق) وجهان :

أحدهما ـ فى موضع نصب على الحال من الضمير فى (القاهر) أى : مستعليا وغالبا .

والثانى ـ فى موضع رفع على أنه بدل من (القاهر) أو خبر ثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ، قُلْ لَا أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

« قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً » أى بحيث لا يمكن معارضته بما يساويه « قُلِ اللهُ »

(١) أخرجه الترمذىّ فى:٣٥ـ كتاب القيامة،٥٩ ـ باب حدثنا بشر بن هلال البصرىّ.

أى : أكبر شهادة ، إذ لا احتمال لطروّ الكذب فى خبره أصلًا ، جل شأنه . وأمرُه ﷺ بأن يتولى الجواب بنفسه ، إما للإيذان بتعينه ، وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره، أولأنهم ربما يتلعثمون فيه ، لا لترددهم فى أنه تعالى أكبر من كل شىء ، بل فى كونه شهيدًا فى هذا الشأن .

وقوله تعالى « شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » خبر لمحذوف ، أوخبر عن لفظ الجلالة . ودل على جواب (أىّ) من طريق المعنى ، لأنه إذا كان تعالى هو الشهيد بينه وبينهم ، كان أكبرُ شىء شهادة، شهيدًا له . فيكون من الأسلوب الحكيم ، لأنه عدل عن الجواب المتبادر ـ إليه ، ليدل على أن أكبر شىء شهادة شهيد للرسول ، فإن الله أكبر شىء شهادة ، والله شهيد له ، فينتج الأكبر شهادة شهيد له . والقياس المذكور من الشكل الثالث ، لأن الحد الأوسط موضوع فى المقدمتين ، لا من الثانى ، كما وقع للشهاب فى (العناية) وهو من بديهيات الميزان .

قال بعضهم: الغرض من السؤال بـ (أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) أن شاهدى أكبر شهادة . فقوله (شَهِيدٌ ...) الخ تنصيص له ، والسؤال المذكور لا يحتاج إلى جواب ، لكونه معلومًا بيّنًا عند الخصم ، فحاصله أن الله الذى هو أكبر شهادة ، شهد بذلك . انتهى .

ومعنى (شَهِيدٌ) مبالغ فى الشهادة على نبوّتى، بحيث يقطع النزاع بينى وبينكم ، إذ شهد سبحانه بالقول فى الكتب التى أنزلها على الأولين ، وبالفعل فيما ظهر على يدىّ من المعجزات، لا سيما معجزة القرآن ، كما قال تعالى :

«وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ» أى : الجامع للعلوم التى يحتاج إليها فى المعارف والشرائع، فى ألفاظ يسيرة ، فى أقصى مراتب الحسن والبلاغة ، معجزة شاهدة بصحة رسالتى . لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء ، وقد عجزتم عن معارضته « لِأُنذِرَكُم بِهِ » ، أى بما فيه من الوعيد، « وَمَنۢ بَلَغَ » عطف على ضمير المخاطبين . أى : لأنذركم به، يا أهل مكة! وسائر من بلغه

من الناس كافة ، فهو نذير لـكل من بلغه ، كقوله تعالى : وَمَنْ يَـكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ(١) .

« أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ » تقرير لهم مع إنكار واستبعاد .

« قُلْ لَا أَشْهَدُ » بما تشهدون ، « قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » أى : بل أشهد أن لا إله إلا هو ، لا يشارك فى إلهيته ، ولا فى صفات كماله « وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » يعنى : الأصنام .

وفى هذه الآية :

مسائل :

الأولى ـ استدل الجمهور بقوله تعالى (قُلِ اللهُ) فى جواب (أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) على جواز إطلاق (الشيء) عليه تعالى . وكذا بقوله سبحانه وتعالى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ(٢) ، فإن المستثنى يجب أن يدخل تحت المستثنى منه ، وذلك لأن الشيء أعم العام ـ كما قال سيبويه ـ لوقوعه على كل مايصح أن يعلم ويخبر عنه . واختار الزمخشرى شموله حتى للمستحيل . وصرح كثير من المحققين بأنه يختص بالموجود ؛ وضعفوا من أطلقه على المعدوم، بأنه محجوج بعدم استعمال العرب ذلك ، كما علم باستقراء كلامهم ، وبنحو . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٨٨] ونصها : وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

إِلَّا وَجْهَهُ ، إذ المعدوم لا يتصف بالهلاك ، وبنحو : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ[(١)].
إذ المعدوم لا يتصور منه التسبيح .

قال الناصر فى (الانتصاف) : هــذه المسألة معدودة من علم الـكلام باعتبارٍ مّا ، وأما هذا البحث فلغوىّ ، والتحاكم فيه لأهل اللغة . وظاهر قولهم : غضبت من لا شىء . و

* إذا رأى غير شىء ظنه رجلا[(٢)] *

ـ أن الشىء لا ينطلق إلا على الموجود ، إذ لو كان الشىء كل مايصح أن يعلم ، عدمًا كان أو وجودًا ، أو ممكنًا أو مستحيلًا ، لمـا صدق على أمرٍ مّا أنه ليس بشىء ، والأمر فى ذلك قريب . انتهى .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

(٢) صدر البيت :

* وضاقت الأرض حتى كان هاربهم *

من قصيدة لأبى الطيّب المتنبّى ، قالها فى صباه ، يمدح سعيد بن عبـد الله بن الحسن ابن الـكلابىّ المنبجىّ .

ومطلعها :

أَحْيَا ! وأيسرُ ما لاقيتُ ما قَتَلَا   والبينُ جار على ضُعفى وما عَدَلَا

قال الواحدىّ : يعنى لشدة ما لحقهم من الخوف ضاقت عليهم الأرض ، فلم يجدوا مهربا ـ كقوله تعالى : ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ـ وهاربهم إذا رأى غير شىء يعبأ به أو يفكر فى مثله ، ظنه إنسانًا يطلبه . وكذا عادة الهارب الخائف . كقول جرير :

ما زلتَ تحسب كل شىء بعدهم   خيلا تــكرّ عليهم ، ورجالا

هـــذا ، وتمسك مَنْ منع إطلاقه عليه تعالى بقوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا[1] . والاسم إنما يحسن لحسن مسماه ، وهو أن يدل على صفة من صفات الـكمال، ونعت من نعوت الجلال . ولفظ (الشيء) أعمّ الأشياء ، فيكون مسماه حاصلًا فى أحسن الأشياء وفى أرذلها . ومتى كان كذلك ، لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الـكمال، فوجب أن لا يجوز دعوة الله بهذا الاسم ، لأنه ليس من الأسماء الحسنى ، وقد أمر تعالى بأن يدعى بها . وأجيب : بأن كونه ليس من الأسماء الحسنى ، لـكونها توقيفية ، وكونه لا يدعى به لعدم وروده ـ لا ينافى شموله للذات العلية ، شمول العامّ . والمراد بإطلاقه عليـــه تعالى (فيما تقدم) شموله ، لا تسميته به . وبالجملة ، فلا يلزم من كونه ليس من الأسماء الحسنى ، أن لا يشمل الذات المقدسة شمولًا كليًّا ، كيف ؟ وهو الموضوعات العامة . والتحاكم للغويين فى ذلك ـ كما قدمنا ـ .

الثانية ـ ما أسلفناه من أن المعنىّ بالشهادة هو شهادته تعالى فى ثبوت النبوة له ﷺ ، هو الذى جنح إليه الأكثر . وكأن مشركى مكة طلبوا منه صلى الله عليه وسلم شاهداً على نبوته . فقيل لهم : أكبر شيء شهادة هو الله تعالى ، وقد شهد لى بالنبوة ، لأنه أوحى إلىّ هـــذا القرآن ، وتحدّاكم بمعارضته ، فعجزتم ، وأنتم أنتم فى مقام البلاغة . وإذ كان معجزاً ، كان إظهاره تعالى إياه على وفق دعواى ، شهادةً منه على صدقى فى النبوة .

ولبعضهم وجه آخر ، وهو أن المعنىّ ، شهادته تعالى فى ثبوت وحدانيته ، وتنزهه عن الأنداد والأشباه . ويرشحه تتمة الآية ، وهو قوله : (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ . . .) الخ وقوله (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .)[2] الآية ، وقوله (فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] ونصها : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

مَعَهُمْ)[١] ، مما يدل على أن الشهادة إنمـا عنى بها ، فى موارد التنزيل ، ثبوت الوحدانية . والقرآن يفسر بعضه بعضا ـ والله أعلم ـ .

الثالثة ـ إنما اقتصر على الإنذار فى قوله (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) لـكون الخطاب مع كفار مكة ، وليس فيهم من يبشَّر . أو اكتفى به عن ذكر البشارة على حدّ (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)[٢] .

الرابعة ـ استدل بقوله تعـالى (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) على أنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة ، وإلى الجن .

الخامسة ـ استدل به أيضاً على أن أحكام القرآن تعمّ الموجودين يوم نزوله ، ومن سيوجد بعدُ إلى يوم القيامة ، خلا أن ذلك بطريق العبارة فى الـكل ـ عند الحنابلة ـ وبالإجماع عندنا فى غير الموجودين ، وفى غير المـكلفين يومئذ ـ أفاده أبو السعود ـ .

السادسة ـ روى ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى قوله (وَمَنْ بَلَغَ) : من بلغه القرآن ، فـكأنما رأى النبىّ ﷺ وكلمه . ورواه ابن جرير[٣] عنه بلفظ : من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٠] ونصها : قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَـكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَـكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَـكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَـكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْـكُمْ لَعَلَّـكُمْ تُسْلِمُونَ .

(٣) الأثر رقم ١٣١٢٤ من التفسير .

وروى[1] عبد الرزاق عن قتادة فى هذه الآية ؛ أن رسول الله ﷺ قال : بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله.

وقال الربيع بن أنس : حقٌّ على من اتبع رسول الله ﷺ ، أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ ، وأن ينذر بالذى أنذر .

السابعة ـ دلّ قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) وقوله (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) على إثبات التوحيد بأعظم طرق البيان ، وأبلغ وجوه التأكيد . لأن (إنما) تفيد الحصر ، و(الواحد) صريح فى نفى الشركاء . ثم صرّح بالبراءة عن إثبات الشركاء . وقد استحب الشافعىّ لمن أسلم بعد إتيانه بالشهادتين، أن يتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام، لقوله (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) عقب التصريح بالتوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

وقوله تعالى « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » يعنى: اليهود والنصارى « يَعْرِفُونَهُ » أى : يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت فى الكتابين « كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ » بحلاهم ونعوتهم ، لا يخفون عليهم ، ولا يلتبسون بغيرهم .

قال المهايمى: لأنه ﷺ ذكر فى الكتاب نعته . وهو ، وإن لم يفد تعيُّنه باللون والشكل والزمان والمكان ، تعيّن بقرائن المعجزات . فبقاء الاحتمال البعيد فيه ، كبقائه فى الولد ، بأنه يمكن أن يكون غير ما ولدته امرأته ، أو يكون من الفجور ، مع دلالة القرائن على براءتها من التزوير والفجور . فهو، كما يعرفون أبناءهم فى ارتفاع الاحتمال البعيد بالقرائن على براءتها.

---

(١) الأثر رقم ١٣١١٩ من تفسير ابن جرير .

قال الزمخشريّ : وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب ، وبصحة نبوّته .

ثم بيّن تعالى أن إنكاره خسران لما عرفوه ، ولما أمروا بالتدين به بقوله « ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أي : من المشركين « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أي : بهذا الأمر الجليّ الظاهر الذى بشرت به الأنبياء ، ونوّهت به ، لأنه مطبوع على قلوبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً » كقولهم : الملائكة بنات الله[١] ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله . قال تعالى : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا[٢] .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] ونصها : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ .

و [١٦ / النحل / ٥٧] ونصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ .

و [١٧ / الإسراء / ٤٠] ونصها : أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً .

و [٣٧ / الصافات / ١٥٠] ونصها : أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ .

و [٤٣ / الزخرف / ١٩] ونصها: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

و [٥٣ / النجم / ٢٧] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ .

(٢) [٧ / الأعراف/٢٨]ونصها : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا =

« أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » أى : القرآن والمعجزات ، حيث سموها سحرًا . وإنما ذكر (أو) مع أنهم جمعوا بين الأمرين ، تنبيهاً على أن كلًّا منهما وحده بالغ غاية الإفراط فى الظلم على النفس . فكيف ؟ وهم قد جمعوا بينهما ، فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ، ونفوا ما أثبته .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى : لا ينجون من مكروه ، ولا يفوزون بمطلوب . وإذا كان حال الظالمين هذا ، فكيف بمن لا أحد أظلم منه ؟

تنبيه :

ما ذكرناه من كون الموصول كناية عن المشركين هو الظاهر ، لأن السورة مكية ، والخطاب مع مشركى أهلها . وجعله البيضاوىّ لهم ، ولأهل الكتاب ، وقوفاً مع عموم اللفظ. والمهايمىّ ؛ لأهل الكتاب خاصة ، ربطاً للآية بما قبلها . والظاهر الأول ، لما قلنا . وعبارة المهايمىّ : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) بتفويت ما أوتوا من الكتاب ، وما أمروا به ، فهم لا يؤمنون . وكيف لا يخسرون ، وهم ظالمون ، وكل ظالم خاسر ؟ وإنما قلنا : إنهم ظالمون، لأنهم يحرفون كتاب الله لفظاً أو معنًى ، فيفترون على الله الكذب ، ويكذبون آيات الله من كتابهم ، ومعجزات محمد ﷺ وكتابه . وقد يسترون بعض ما فى كتابهم ، وهو أيضاً تكذيب . فعلوا جميع ذلك لأنه لايتأتى لهم ترك الإيمان بمحمد ﷺ بدون أحد هذه الأمور.

وقال فى قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ ...) الآية : لأنهم بالتحريف يدّعون إلٰهية أنفسهم، وبالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل ، وينسبون إيجادها إلى غير الله ، مع افتقارها إلى القدرة الكاملة . وإنما قلنا: كل ظالم خاسر ، لأن كل ظالم لايفلح . كما قال تعالى (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) أى : لا يفلحون فى الدنيا بانقطاع الحجة عنهم ، وظهور المسلمين عليهم . وفيه إشارة إلى أن مدّعى الرسالة ، لو كان كاذباً كان مفترياً على الله ، فلا يكون مفلحاً ، فلا يكون سبباً لصلاح العالم ، ولا محلًّا لظهور المعجزات . انتهى .

= وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ » أى : الإنس والجن والشياطين . منصوب بمضمر تهويلاً للأمر « جَمِيعاً » ليفتضح من لا يفلح من الظالمين مزيد افتضاح ، ويظهر المفلحون بكمال الإعزاز . « ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا » أى مضوا على الشرك ، بأن ماتوا عليه ، وهم الشاهدون أن مع الله آلهة أخرى « أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ » أى الذين جعلتموهم شركاءنا ، وهم شركاؤكم فى العبودية ـ كذا قاله المهايمىّ ـ وعليه ، فالإضافة على بابها .

وفى (العناية) : الإضافة فيه لأدنى ملابسة ، كما أشار إليه القاضى بقوله : أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله ، لأنه لا شركة بينهم ، وإنما سموهم شركاء ، فلهذه الملابسة أضيفوا إليهم .

قيل : قوله تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) يقتضى حضورهم معهم فى المحشر ، و (أين) يسأل بها عن غير الحاضر ؟ أجيب بأنه بتقدير مضاف . أى : أين نفعهم وشفاعتهم ، أو أنهم بمنزلة الغيَّب ، لعدم ما رجوا منهم من الشفاعة . وعلى كلٍّ ، فالقصد من السؤال توبيخهم وتقريعهم ، وأن يقرر فى نفوسهم أن ما كانوا يرجونه مأيوس منه . وذلك تنبيه لهم فى دار الدنيا على فساد هذه الطريقة .

وقوله تعالى « الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : تزعمونها شركاء من عند أنفسكم . أى : فقصدتم بذلك فعل الفاتنين فى المملكة بجعلها لغير من هى له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

« ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ » أى : جواب ما اعترض به على فتنتهم التى هى شهادة أن مع الله آلهة أخرى . وعبّر عن جوابهم بالفتنة ، لأنه كذب « إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » اعتذروا عن أصنامهم بنفيها مؤكدًا بالقَسَم بالاسم الجامع ، مع نسبة الربوبية إليه تعالى ، لا إلى ما سواه ، مبالغة فى التبرؤ من الإشراك . فكان هذا العذرُ ذنباً آخر مؤكدًا لافترائهم بالإشراك الذى نفوه . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » أى: بنفى الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، بحضرة من لا ينحصر من الشهود « وَضَلَّ » أى : وكيف ضاع وغاب « عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : من الشركاء ، فلم تغن عنهم شيئاً ، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم، كقوله تعالى : (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)(١) فـ (ما) موصولة ، كناية عن الشركاء . وإيقاع الافتراء عليها ، مع أنه فى الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية ، والشركة والشفاعة ونحوها ـ للمبالغة فى أمرها ، كأنها نفس المفترى .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣٧] ونصها : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَـٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ .

تنبيهات :

الأول ـ ماذكرناه من أنه عبرعن جوابهم بالفتنة هو الأظهر . فالمراد : الجواب بما هو كذب ، لأنه سبب الفتنة ، فتجوّز بها إطلاقاً للمسبب على السبب ، أو هو استعارة . وقيل: الفتنة بمعنى العذر ، لأنها التخليص من الغش لغة ، والعذر يخلّص من الذنب ، فاستعيرت له . وقيل : بمعنى الكفر ، لأن الفتنة ما تفتتن به ويعجبك ، وهم كانوا معجبين بكفرهم مفتخرين به ، ويظنونه شيئاً ، فلم تكن عاقبته إلا الخسران ، والتبرؤ منه ، وليس هذا على تقدير مضاف ، بل جعل عاقبة الشيء عينه ، ادّعاءً .

قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن فى اللغة ، لا يعرفه إلا من عرف معانى الكلام ، وتصرف العرب فى ذلك . وذلك أن الله تعالى بيّن كَوْنَ المشركين مفتونين بشركهم ، متهالكين على حبه. فأعلم فى هذه الآية، أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه، إلا أن تبرؤوا منه وتباعدوا عنه ، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين . ومثاله : أن ترى إنساناً يحب غاوياً مذموم الطريقة ، فإذا وقع فى محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له : ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه .

قال الخفاجىّ ـ بعد نقله ما ذكر ـ : وليس هذا من قبيل عتابك السيف ، ولا من تقدير المضاف ، وإن صح فاحفظه ، فإنه من البدائع الروائع .

الثانى ـ ما بيّناه من أن (ما) فى قوله تعالى : (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) موصولة ، كناية عن الشركاء ، بمعنى عدم إغنائها عنهم ـ هو الموافق للآية الثانية التى سقناها . وجوز كونها مصدرية . أى : انظر كيف ذهب وزال عنهم افتراؤهم من الإشراك، حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية ، وتبرؤوا منه بالمرة .

هذا ، وجعل الناصر فى (الانتصاف) (ضَلَّ) بمعنى سُلِبُوا علمه ، فكأنهم نسوه وذهلوه دهشاً. وهو بعيد، لعدم ملاقاته للآية الأخرى. والتنزيل يفسر بعضه بعضاً. وعبارته:

فى الآية دليل بيّن على أن الإخبار بالشىء على خلاف ما هو به، كذب ، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره بمخبره . ألا تراه جعل إخبارهم وتبرّيهم كذباً ؟ مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون . أى : سلبوا علمه حينئذ دهشاً وحيرة ، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم . انتهى .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ .

قلت : المتحَن ينطق بما ينفعه وبما لاينفعه ، من غير تمييز بينهما ، حيرة ودهشاً . ألا تراهم يقولون : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(١) ؟ وقد أيقنوا بالخلود ، ولم يشكوا فيه . وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ(٢) ، وقد علموا أنه لايقضى عليهم .

وأما قول من يقول : معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا ، وما علمنا أنا على خطأ فى معتقدنا ، وحمل قوله : (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) يعنى فى الدنيا ـ فتمحلٌ وتعسف وتحريف لأفصح الكلام ، إلى ما هو عىّ وإفحام . لأن المعنى الذى ذهبوا إليه ، ليس هذا الكلام بمترجم عنه ، ولامنطبق عليه ، وهو نابٍ عنه أشد النبوّ . وما أدرى ما يصنع، مَنْ ذلك تفسيره ، بقوله تعالى : يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ(٣) بعد قوله : وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، فشبه كذبهم فى الآخرة بكذبهم فى الدنيا. انتهى .

والقول المذكور ، والحمل الذى ناقش فيه ، أصله لأبى علىّ الجبائىّ والقاضى . فإنهما

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٧] .
(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧٧] . . . قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

ذهبا إلى أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب ، واعتلا بوجوه واهية ساقها الرازيّ. فلتنظر ثمّت ، فإنا لا نسوّد وجوه صحائفنا بما فيه تحكيم العقل على النقل .

ثم بيّن تعالى بعض ما كان يصدر من مشركى مكة، مما طبع على قلوبهم بسببه فقال سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » أى : يصغى حين تتلو القرآن ، ولا يجزىء عنه شيئاً ، لأنه لا يتدبر فيه حتى يطّلع على إعجازه ، ويؤثر فيه الإرشاد « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى حُجُباً، جمع كنان. كغطاء وأغطية، لفظاً ومعنًى «أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى: كراهة أن يفهموا، ببواطن قلوبهم، بواطنَه التى بها إعجازه وإرشاده ، بإقامة الدلائل ورفع الشبه . «وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا» أى : وجعلنا فى آذانهم ، التى هى طريق الوصول إلى بواطن القلوب ، صمماً مانعاً من وصول السماع النافع . وقد مرّ فى أول البقرة تحقيق ذلك . فتذكر !

وقوله تعالى « وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا » إشارة إلى أنه لا يختص ما ذكر منهم بالقرآن ، لرؤيتهم قصورًا فيه ، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق الرسول لا يؤمنوا بها ، ويحملوها على السحر . لفرط عنادهم ، واستحكام التقليد فيهم ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف . كقوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ(١) .

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ » أى : بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاءوك يحاجّونك ويناظرونك فى الحق بالباطل . ثم فسر المجادلة بقوله « يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٣] . . . وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ .

هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أي : أباطيلهم وأحاديثهم التي لا نظام لها . وعدُّ أحسن الحديث وأصدقه ، من قبيل الأباطيل (وَهُوَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)ـ رتبةٌ من الكفر لا غاية وراءها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

«وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ » أي: لا يقنعون بما ذكر من تكذيبه ، بل ينهون الناس عن استماعه.

قال المهايميّ: وهم، لرؤيتهم حلاوة نظمه فوق نثرهم وشعرهم ، مع متانة معانيه ، يعرفون أن التدبر فيه يفيد التطلع على إعجازه . فيخافون تأثيره فى قلوب الخلائق . لذلك ينهون عنه . أى : عن قراءته واستماعه ، لئلا يدعوهم إلى التدبر فيه ، فيفسد عليهم أغراضهم الفاسدة .

« وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » أى: يتباعدون عنه بأنفسهم ، إظهارًا لغاية نفورهم عنه ، وتأكيدًا لنهيهم عنه . فإن اجتناب الناهى عن المنهىّ عنه ، من متممات النهْى. ولعل ذلك هو السرّ فى تأخير (النأى) عن (النهى) ـ أفاده أبو السعود ـ .

ولما أشعر ذلك بكونهم يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، خوفاً من قوة تأثير التنزيل فى القلوب ، أتبعه بأنه لا يحصل لهم هذا المطلوب ، لأن الله متم نوره ، ومظهر دينه، وإن الدائرة عليهم بقوله: « وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » بتعريضها لأشد العذاب عاجلًا وآجلًا « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى بذلك .

تنبيه :

روى الحاكم وغيره ، عن ثلة من التابعين ، أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب ، كان ينهى عن النبيّ ﷺ أن يُؤْذَى ، وينأى عنه فلا يؤمن به ، وحميته حينئذ ، باعتبار استتباعه لأتباعه .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنها نزلت فى عمومة النبيّ ﷺ ، وكانوا عشرة ،

فكانوا أشد الناس معه فى العلانية ، وأشدهم عليه فى السر . ولا يخفى أن لفظ التنزيل مما يصدق على ما ذكر ولا ينافيه ، وهو المراد بالنزول ـ كما أسلفنا مراراً ـ وقد قال أبو طالب يخاطب النبىّ ﷺ :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسَّد فى التراب دفينـا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضةٌ وابشر بذاك وقَرَّ منه عيونا
ودعوتنى وزعمتَ أنك ناصح ولقد صدقتَ وكنت ثم أمينا
وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامةُ أو حذارى سبةً لوجدتَنى سمحاً بذاك مبينا

وفى (ينهون) و (ينأون) تجنيس بديع .

ولما أخبر تعالى أنهم يهلكون أنفسهم ، شرح كيفيته مع بيان ما سيصدر عنهم فى الآخرة من القول المناقض لعقدهم الدنيوىّ ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ » أى : اطّلعوا عليها فعاينوها . يقال : وقف فلاناً على ذنبه: أطلعه عليه . أو أُدخلوها فعرفوا ما فيها من العذاب . يقال : وقفت على ما عند فلان ، تريد : فهمته وتبينته . والوقف عليها مجازىّ ، أو هو حقيقىّ بمعنى القيام . و (عَلَى) إما على حقيقتها . أى : أقيموا واقفين فوق النار على الصراط ، وهو جسر فوق جهنم . أو هى بمعنى (فى) ، أى : أُقيموا فى جوف النار وغاصوا فيها ، وهى محيطة بهم . وصحح معنى الاستعلاء حينئذ، كون النار دركات وطبقات، بعضها فوق بعض .

« فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » تمنوا الرجوع إلى الدنيا ، حين لا رجوع ، واعدين أن لا يكذبوا بما جاءهم ، وأن يكونوا من المؤمنين ، أى: بآياته ، العاملين بمقتضاها ، حتى لا نرى هذا الموقف الهائل . أو من فريق المؤمنين الناجين من العذاب ، الفائزين بحسن المآب .

تنبيه :

جواب (لو) محذوف ، تفخيما للأمر ، وتعظيما للشأن . وجاز حذفه لعلم المخاطب به . وأشباهه كثيرة فى القرآن والشعر . ولو قدرت الجواب ، كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم . وحذفُ الجواب فى ذلك أبلغ فى المعنى من إظهاره . ألا ترى أنك لو قلت لغلامك : والله! لئن قمتُ إليك . وسكتّ عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وَعظُمَ الخوفُ ، ولم يدر أىّ الأقسام تبغى . ولو قلتَ : لأضربنك، فأتيت بالجواب لَأَمِنَ غير الضرب ، ولم يخطر بباله نوع من المكروه سواه . فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيرا فى حصول الخوف ـ أفاده الرازىّ ـ وملخصه : أن حذف الجواب ثقة بظهوره ، وإيذانا بقصور العبارة عن تفصيله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ » إضراب عما يدل عليه تمنيهم الباطل من الوعد ، بالتصديق والإيمان ، أى : ليس ذلك عن عزم صحيح ، وخلوص اعتقاد ، بل هو بسبب آخر ، وهو أنه ظهر لهم ما كانوا يكتمون فى أنفسهم من الكفر والشرك ، بقولهم : (وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم ، فتمنوا لذلك ،

أو بشهادة جوارحهم عليهم ، أو ما كانوا يكتمون فى أنفسهم فى الدنيا من صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه ، كقوله تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرَ ...[1] الآية ـ وقوله تعالى[2] مخبرا عن فرعون وقومه : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . أو هذه الآية إخبار عن حال المنافقين ، وأنه يظهر نفاقهم الذى كانوا يسرونه . ولا ينافى هذا كون السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب بعد الهجرة . لأن الله تعالى ذكر وقوع النفاق فى سورة مكية وهى (العنكبوت) فقال: وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ[3] . هذا ماذكروه مما يمكن تنزيل اللفظ الكريم عليه لعمومه . وقد ناقش فى ذلك كلِّه العلامةُ أبو السعود ، واعتمد أن المراد بـ (مَا كَانُوا يُخْفُونَهُ فِي الدُّنْيَا) النارُ التى وقفوا عليها ، إذ هى التى سيق الكلام لتهويل أمرها ، والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها ، و (بإخفائها) تكذيبهم بها ، فإن التكذيب بالشىء كفر به ، وإخفاء له لا محالة . وإيثاره على صريح التكذيب الوارد فى قوله عز وجل : (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)[4] وقوله تعالى : (هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)[5] ، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم :

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠٢] . . . وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٤] . . . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ٤٣] .

(٥) [٥٢ / الطور / ١٤] .

(وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا)[١] لمراعاة ما فى مقابلته من البدو . هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم .

ثم قال فى الوجوه المتقدمة : إنه بعد الإغضاء عما فى كل منها من الاعتساف والاختلال ، لا سبيل إلى شىء من ذلك أصلا ، لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار ، وتفظيع حال أهلها ، وقد ذكر وقوفهم عليها ، وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف . ورتب عليه تمنيهم المذكور بـ (الفاء) القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها ، فإسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية ، وهى نفسها أدهى الدواهى ، وأزجر الزواجر ، وإسنادها إلى شىء من الأمور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر ، مع عدم جريان ذكرها ، ثمت ـ أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله . وأما ما قيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون ، فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها ، وأبوابها مفتوحة . فتأمل .

أقول : لا ريب فى بلاغة ما قرره ونفاسته ، لولا تكلفه حمل الإخفاء على ما ذكره ، مما هو غير ظاهر فيه ، وليس له نظائر فى التنزيل الكريم . فمجازيته حينئذ من قبيل المعمى. وفى الوجوه الأول إبقاؤه على حقيقته بلا تكلف ، وشموله لها ـ غير بعيد . لأن فى كل منها ما يؤيده ، كما بيناه . غاية الأمر أن ما قرره وجه منها بديع . وأما كونه المراد لا غير ، فدونه خرط القتاد ـ والله أعلم بأسرار كتابه ـ .

« وَلَوْ رُدُّوا » أى عن موقفهم ذلك إلى الدنيا كما تمنوه ، وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال « لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » من الكفر والشرك « وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » فى وعدهم بالإيمان ، أو ديدنهم الكذب فى أحوالهم .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٧] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالُوا إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

«وَقَالُوا» عطف على (لعادوا) أو استئناف، «إِنْ هِىَ» أى ما الحياة ، فالضمير لما بعده ، « إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أى : ليست الحياة التى يتوهم فيها البعث ، والتى يتوهم فيها الرد إلا حياتنا الأولى « وما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » أى : بعد مفارقتنا هذه الحياة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ » قال الجلال : أى عرضوا عليه . وقال ابن كثير : أى وقفوا بين يديه . « قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا » أى المعاد « بِالْحَقِّ » تقريعاً لهم ، ورداً لما يتوهمون عند الردّ « قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا » أى : إنه لحق ، وليس بباطل ، كما كنا نظن . أكدوا اعترافهم باليمين إظهارا لكمال يقينهم بحقيّته ، وإيذانا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط ، طمعاً فى نفعه . « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ » أى : ببلوغ الآخرة وما يتصل بها ، أو هو مجرى على ظاهره ، لأن منكر البعث منكر للرؤية ـ قاله النسفىّ ـ والثانى هو الصواب، وإن

اقتصر كثيرون على الأول ، وجعلوه استعارة تمثيلية لحالهم بحال عبدٍ قدم على سيده بعد مدة، وقد اطّلع السيد على أحواله . فإما أن يلقاه ببشر لما يرضى من أفعاله ، أو يسخط لما يسخط منها ـ فإنه نزغة اعتزالية . ولا عدول إلى المجاز ما أمكنت الحقيقة .

وفى كلام النسفىّ إشعار بأن اللقاء معناه الرؤية ، وهو ما فى القاموس . قال شارحه الزبيدىّ : وهو مما نقدوه ، وأطالوافيه البحث ، ومنعوه . وقالوا : لا يلزم من الرؤية اللقىّ، كالعكس .

وقال الراغب : هو مقابلة الشيء ومصادفته معاً ، ويعبّربه عن كل منهما . ويقال ذلك فى الإدراك بالحسّ والبصر .

لطيفة :

قال الخفاجىّ فى (العناية) : قيل : روى عن علىّ رضى الله عنه أنه نظم أبياتاً على وفق هذه الآية ، وفى معناها وهى :

زعم المنجمُ والطبيبُ ، كلاهما لاتُحْشَرُ الأجساد . قلتُ : إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر. أو صحّ قولى ، فالخسار عليكما

قال الخفاجىّ: لاأدرى من أيهما أعجب ؟ الرواية أم الدراية؟ فإن هذا الشعر لأبىالعلاء المعرّى فى ديوانه وهو :

قال المنجمُ والطبيبُ ، كلاهما : لاتُحْشَرُ الْأَجْسَادُ . قلت : إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر . أو صحّ قولى ، فالخسار عليكما
أضحى التُّقَى والشر يصطرعان فى الدّ نيـا . فأيهما أبرّ لديكما
طهّرتُ ثوبى للصلاة وقبله جسدى . فأين الطهر من جسديكما
وذكرت ربى فى الضمائر مؤنِساً خَلَدِى بذاك ، فَأَوْحِشَا خَلَدَيْكما

وبكرت فى البَرْدَيْن[1] أبغى رحمة   منه ، ولا تَرِعَانِ فى بَرْدَيكما
إن لم تَعُدْ بيدى منافعُ بالذى   آتى ، فهل من عائدٍ بيديكما
بُرْدُ التقىّ ، وإن تهلهل نسجُه ،   خير ، بعـــلم الله ، من بُرْديكما

قال ابن السيد فى (شرحه) . هذا منظوم مما روى عن علىّ رضى الله عنه؛ أنه قال لبعض من تشكك فى البعث والآخرة : إن كان الأمر كما تقول من أنه لا قيامة ، فقد تخلصنا جميعاً. وإن لم يكن الأمر كما تقول ، فقد تخلصنا وهلكتَ . فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده. وهذا الكلام ، وإن خرج مخرج الشك ، فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه ، وقلةِ أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه . مع أن المناظر على ثقة من أمره ، وهو نوع من أنواع الجدل .

وقوله : (إِلَيْـكُمَا) كلمة يراد بها الردع والزجر . ومعناها : كُفّاً عما تقولان ، وحقيقته: قولكما مصروف لكما ، لا حاجة لى به . انتهى.

ومن له معرفة بقرض الشعر ، يعلم أنه شعر مولد .

ثم نبه الخفاجىّ على أن هذا النوع يسمى استدراجاً .

قال فى (المثل السائر) : الاستدراج نوع من البلاغة استخرجتهُ من كتاب الله تعالى ، وهو مخادعات الأقوال التى تقوم مقام مخادعات الأفعال ، يستدرج الخصم حتى ينقاد ويذعن،

---

(١) البَرْدَان : الغداة والعشىّ :

ومنه الحديث الشريف المروىّ فى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرىّ ، رقم ٣٦٩ (اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان) ونصه :

« من صلّى البردين دخل الجنة » .

أى : من صلى صلاة الفجر والعصر ، لأنهما فى بردَىِ النهار ، أى طرفيه ، حين يطيب الهواء وتذهب سورة الحرّ .

وتَرِعان من وَرِع يَرِعُ . قال فى اللسان : الورع الكفّ عن المحارم والتحرّج .

وهو قريب من المغالطة ، وليس منها . كقوله تعـالى : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)(١) . ألا ترى لطف احتجاجه على طريقة التقسيم بقوله : (إن يك كاذبا فكذبه عائد عليه، وإن يصدق يصبكم بعض ما وعدكم به) ، ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى ، فإنه نبيّ صادق ، فلابدأن يصيبهم كل ماوعد به ، لا بعضه ، لكنه أتى بماهوأذعن لتسليمهم وتصديقهم ، لما فيه من الملاطفة في النصح ، بكلام منصف غير مشتطّ مشدّد . أراهم أنه لم يعطه حقه ، ولم يتعصب له ، ويحام عنه ، حتى لا ينفروا عنه . ولذا قدم قوله (كَاذِبًا) ، ثم ختم بقوله (إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي . . . » الخ يعني : أنه نبيّ على الهدى ، ولو لم يكن كذلك ما آتاه الله النبوة وعضده . وفيه من خداع الخصم واستدراجه ما لا يخفى . انتهى .

وقوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أي : جاءتهم القيامة فجأة . وسميت القيامة (ساعة) ، لأنهاتفجأ الناس بغتة في ساعةلايعلمها أحد إلا هو تعالى . والمعنى: جاءتهم منيّتهم . على أن المراد بالساعة ، الصغرى . قال الراغب : الساعة الكبرى بعث الناس للمحاسبة ، والصغرى موت الإنسان. فساعة كل إنسان موته ، وهي المشار إليها بقوله تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) . ومعلوم أن الحشر ينال الإنسان عند موته . انتهى .

و (بغتة) مصدر في موضع الحال ، أي : مباغتة . أو مصدر لمحذوف ، أي : تبغتهم . أو للمذكور. فإنّ (جاءتهم) ، بمعنى (بغتتهم) .

---

(١) [٤٠/ غافر/ ٢٨] ونصها : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

« قَالُوا » يعني : منكرى البعث ، وهم كفار قريش ، ومن سلك سبيلهم فى الكفر والاعتقاد . « يَاحَسْرَتَنَا » أى: يا ندامتنا! والحسرة : التلهف على الشيء الفائت . وذكرت على وجه النداء للمبالغة . والمراد : تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة . « عَلَىٰ مَافرَّطْنَا» أى: قصرنا « فِيهَا » أى : فى الحياة الدنيا . أضمرت وإن لم يجر ذكرها، للعلم بها. أى : على ما ضيعنا فيها ، إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجينا . أو الضمير للساعة ، أى : على ما فرطنا فى شأنها ، ومراعاة حقها ، والاستعداد لها ، بالإيمان بها ، واكتساب الأعمال الصالحة .

وقال ابن جرير[1] : الضمير يعود إلى الصفقة التى دل عليها قوله (قَدْ خَسِرَ ...) الخ إذ الخسران لا يكون إلا فى صفقة بيع قد جرت . قال : والمعنى : قد وُكِس الذين كذبوا بلقاء الله، ببيعهم الإيمان الذى يستوجبون به من الله رضوانه وجنته ، بالكفر الذى يستوجبون به منه سَخَطَهُ وعقوبته . ولا يشعرون ماعليهم من الخسران فى ذلك، حتى تقوم الساعة. فإذا جاءتهم الساعة بغتة ، فرأوا ما لحقهم من الخسران فى بيعهم ، قالوا حينئذ تندما: (يَاحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) .

وقوله تعالى « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » حال من فاعل (قَالُوا) ، فائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصورًا على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون، مع ذلك، تحمل الأوزار الثقال . والإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة ، بحيث لا تزول ولا تُنْسَى بما يكابدونه من فنون العقوبات ـ قاله أبو السعود ـ .

والأوزار : جمع وزر ، وهو فى الأصل : الحمل الثقيل ، سمى به الذنب لثقله على صاحبه . قيل : جعلها محمولة على الظهور استعارة تمثيلية ، مثل لزومها لهم ، على وجهٍ لا يفارقهم، بذلك. وخص الظهر ، لأنه المعهود حمل الأثقال عليه . كما عهد الكسب بالأيدى .

(١) تفسير ابن جرير (طبعة المعارف) بالصفحة ٣٢٥ من الجزء الحادى عشر .

وقيل : هو حقيقة ، لما روى عن السدّى[(١)] أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره ، إلا جاءه رجل قبيح الوجه ، أسودُ اللون ، مُنتن الريح، عليه ثياب دنِسة ، حتى يدخل معه قبره . فإذا رآه قال له : ما أقبح وجهك ! قال : كذلك كان عملك قبيحاً . قال : ما أنتن ريحك ! قال : كذلك كان عملك منتناً . قال : ما أدنس ثيابك ! قال فيقول : إن عملك كان دنساً . قال : من أنت ؟ قال : أنا عملك . قال : فيكون معه فى قبره . فإذا بعث يوم القيامة قال له : إنى كنت أحملك فى الدنيا باللذات والشهوات ، وأنت اليوم تحملنى . قال : فيركب على ظهره فيسوقه ، حتى يدخله النار . فذلك قوله تعالى (وَهُمْ يَحْمِلُونَ ...) الآية .

قال الخفاجىّ : ولعل هذا تمثيل أيضاً . وقريب منه ما قيل : من قال بالميزان ، واعتقد وزن الأعمال ، لا يقول إنه تمثيل . انتهى .

« أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » أى : بئس ما يحملونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ » أى : هزل ، وعمل لا يجدى نفعاً « وَلَهْوٌ » أى : اشتغال بهوى وطرب ، وما لا تقتضيه الحكمة ، وما يشغل الإنسان عما يهمه مما يلتذ به ثم ينقضى .

« وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » لدوامها ، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضارّ والآلام .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى ، ولا تؤثرون الأدنى الفانى ، على الأعلى الباقى . وههنا

---

(١) الأثر رقم ١٣١٨٨ من تفسير ابن جرير .

لطائف

الأولى: قال الرازىّ : اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم فى الدنيا ، وتحصيلا لذاتها. فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيهاً على خساستها وركاكتها. واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها . لأن هـذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها . فلهذا السبب حصل فى تفسير هذه الآية قولان :

الأول ـ أن المراد منه حياة الكافر. قال ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق . والسبب فى وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة ، أن حياة المؤمن يحصل فيهـا أعمال صالحة ، فلا تكون لعبًا ولهوًا .

والقول الثانى ـ إن هـذا عام فى حياة المؤمن والكافر . والمراد منه : اللذات الحاصلة فى هذه الحياة ، والطيبات المطلوبة فى هـذه الحياة ، وإنما سماها بـ(اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ) لأن الإنسان، حال اشتغاله باللعب واللهو، يلتذ به. ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة. فكذلك هذه الحياة، لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة .

الثانية : قال الخفاجىّ : جمع اللهو واللعب فى آيات . فتارة يقدم اللعب، كما هنا . وتارة قدم اللهو كما فى العنكبوت[1] . ولهذا التفنن نكتة مذكورة فى (درة التأويل) ملخصها : أن الفرق بين اللهو واللعب ، مع اشتراكهما فى أنهما الاشتغال بما لا يعنى العاقل ويهمه من هوى أو طرب ، سواء كان حراماً أم لا ؛ أن اللهو أعم من اللعب ، فكل لعب لهو ، ولا عكس . فاستماع الملاهى لهو ، وليس بلعب . وقد فرقوا بينهما أيضاً بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة ، والاسترواح به ، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب ، وإن لم يقصد به

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٤] ونصها : وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ذلك ، كما نقل عن أهل اللغة ، قالوا : واللهو، إذا أطلق، فهو اجتلاب المسرة بالنساء ، كما قال امرؤ القيس[١] :

ألا زعمت بَسْبَاسَةُ اليومَ أنني كَبِرْتُ وأن لايحسنُ اللهوَ أمثالى

وقال قتادة : اللهو، فى لغة اليمن (المرأة). وقيل: اللعب طلب: المسرة والفرح بما لايحسن أن يطلب به . واللهو : صرف الهم بما لايصلح أن يصرف به .

ولما كانت الآية ردًّا على الكفرة فى إنكار الآخرة ، وحصر الحياة فى الحياة الدنيا ، وليس فى اعتقادهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية ـ قدم اللعب الدال على ذلك ، وتمم باللهو . وأما فى العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة وتحقيرها ، بالقياس إلى الآخرة. ولذا ذكر باسم الإشارة المشعر بالتحقير. والاشتغالُ باللهو، مما يقصر به الزمان ، وهو أدخل من اللعب فيه . وأيام السرور قصار ، كما قال :

وليلةٍ إحدى الليالى الزُّهْرِ لم تك غير شفَق وفجر

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أيها الطَّلَلُ البالى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالى

قال السندوبىّ : بسباسة إحدى صواحباته التى يتغزل بهن .

لا يحسن اللهو (ويروى : لا يحسن السرّ) وهو ما يكون بين الرجل والمرأة .

وقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب :

ويروى السرّ ، وهو النكاح .

وأمثال جمع مثل ، أراد أمثالى من الرجال .

ومعنى البيت : أنه لما عيّرته وقالت له : كبرتَ وشُغِلتَ عن اللهو . ولا يحسن أمثالك من الرجال اللهو ، وإذا لم يحسنه أمثالك فأنت لا تحسنه .

وإذا قالت العرب (مثلك لا يحسن كذا) فإنما هو على طريقة التعظيم أن يذكروا مثله ولا يذكروه .

الثالثة :

فى قوله تعالى (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين، لعب ولهو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

وقوله تعالى « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ » قرئ بفتح الياء وضمها ، « الَّذِي يَقُولُونَ » أى : يقولونه فيك ، من أنك كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لتسليته ﷺ عن الحزن الذى يعتريه ، مما حكى عن الكفرة من الإصرار على التكذيب ، والمبالغة فيه ، ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانةمن الله عز وجل ، وأن ما يفعلونه فى حقه فهو راجع إليه تعالى فى الحقيقة ، وأنه ينتقم منهم أشد انتقام . وكلمة (قَدْ) لتأكيد العلم بما ذكر ، المفيد لتأكيد الوعيد .

وقوله تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » الفاء للتعليل ، لأن قوله تعالى : (قَدْ نَعْلَمُ) بمعنى لا تحزن ، كما يقال فى مقام المنع والزجر : نعلم ما تفعل ! ووجّه التعليلَ فى تسليته له ﷺ بأن التكذيب فى الحقيقة لى ، وأنا الحليم الصبور ، فتخلق بأخلاقى .

قال أبو السعود : وهذا يفيد بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ، ورفعة المحل ، والزلفى من الله عز وجل ، إلى حيث لا غاية وراءه ، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه ، على طريقة قوله تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)(١)، بل نفى تكذيبهم عنه ، وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ

(١) [٤ / النساء / ٨٠] . . . وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)[١] إيذانا بكمال القرب، واضمحلال شؤونه عليه الصلاة والسلام في شأن الله عز وجل . وفيه استعظام لجنايتهم، منبئ عن عظم عقوبتهم. وقيل: المعنى: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم، عناداً أو مكابرة. ويعضده ماروى سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي رضى الله عنه قال: قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) الآية ـ رواه الحاكم وصححه .

وروى ابن جرير[٢] عن السدي قال : لما كان يوم بدر ، خلا الأخنس بأبي جهل فقال : ياأبا الحكم ! أخبرني عن محمد ، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا، فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنوقصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) فآيات الله محمد ﷺ .

قال الرازي : وهذا القول غير مستبعد ، ونظيره قوله تعالى[٣] في قصة موسى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) . وقيل : المعنى فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ، ولكنهم يجحدون بآيات الله . كما يروى أن أباجهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكننا نكذب ما جئتنا به .

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . . . يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) الأثر رقم ١٣١٩٣ من التفسير .

(٣) [٢٧ / النمل / ١٤] . . . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

قال أبو السعود : وكأن صدق المخبر عند الخبيث ، بمطابقة خبره لاعتقاده . والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية . وقرئ « لَا يُكْذِبُونَكَ » من (أكذبه) ، بمعنى وجده كاذباً ، أو نسبه إلى الكذب ، أو بيّن كذبه ، وقال : أكذبه وكذبه بمعنى ـ كذا فى القاموس وشرحه ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ)

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ » افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام ، فإن عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين . وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، فى الصبر على ماأصابهم من أممهم ، من فنون الأذية . وعدة ضمنية له ﷺ بمثل مامُنِحُوه من النصر. وتصديرُ الكلام بالقسم ، لتأكيد التسلية . وتنوين (رسل) للتفخيم والتكثير ـ أفاده أبو السعود ـ .

قال الزمخشرىّ : فى قوله تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ) دليل على أن قوله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) ليس بنفى لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لغلامك : ما أهانوك ، ولكنهم أهانونى ! انتهى .

وناقشه الناصر فى (الانتصاف) بأنه لا دلالة فيه ، لأنه مؤتلف مع نفى التكذيب أيضاً ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين . أى : هؤلاء لم يكذبوك ، فحقك أن تصبر عليهم ، ولا يحزنك أمرهم . وإذا كان مَن قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم ، فصبروا عليهم ، وأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر . فقد ائتلف، كما ترى، بالتفسيرين جميعا . ولكنه من غير الوجه الذى استدل به ، فيه تقريب لما اختاره ، وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها

فى نحو قوله تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) فسلاه عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبيائهم . وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع ، مؤيد بالنظائر ـ والله أعلم ـ .

« فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا » أى على تكذيبهم وإيذائهم ، فتأسّ بهم « حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ » أى : لمواعيده ، من قوله : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)(٢) ،وقوله (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى)(٣) .

« وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ » أى من خبرهم فى مصابرة الكافرين ، وما منحوه من النصر ، فلابد أن نزيل حزنك بإهلاكهم ، وليس إمهالهم لإهمالهم ، بل لجريان سنته تعالى بتحقيق صبر الرسل وشكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِنْ كَانَ كَبُرَ » أى : شق وثقل ، « عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ » أى : عن الإيمان بما جئت به من القرآن ، ونأيهم عنه ، ونهيهم الناس عنه ، « فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الْأَرْضِ » أى سرباً ومنفذا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض ، حتى تطلع لهم آية يؤمنون

(١) [٣٥ / فاطر / ٤] . . . وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .
(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧١و١٧٢] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . . . إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

بها ، « أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ » أى مصعدا تعرج به فيها ، « فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ » أى : مما اقترحوه ، فافعل. وحَسُنَ حذف الجواب لعلم السامع به . أى : لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة ، إذ يصير الإيمان ضروريا غير نافع .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ » أى : ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله ، إظهار غاية قهره ، وغاية لطفه ، « فَلَا تَكُونَنَّ » أى : بالحرص على إيمانهم ، أو الميل إلى نزول مقترحهم « مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى : بما تقتضيه شؤونه تعالى ، التى من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم . إما اختيارا ، فلعدم توجههم إليه . وإما اضطرارا ، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار .

تنبيهات

الأول ـ فى هذه الآية مالا يخفى من الدلالة على المبالغة فى حرصه ﷺ على إسلام قومه، وترامية عليه ، إلى حيث لو قدَرَ أن يأتيهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء، لأتى بها. رجاءَ إيمانهم ، وشفقة عليهم .

الثانى ـ قال الناصر فى (الانتصاف) : هذه الآية كافلة بالرد على القدرية فى زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرة بـ (لو) ، ومقتضاها امتناع جوابها ، لامتناع الواقع بعدها . فامتناع اجتماعهم على الهدى ، إذاً إنما كان لامتناع المشيئة . فمن ثم ترى الزمخشرىّ يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة ، لا يكون الإيمان معها اختيارا، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وأن مشيئته اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ، ثابتة غير ممتنعة، ولكن لم يقع متعلقها . وهذه من خباياه ومكامنه فاحذرها ـ والله الموفق ـ .

الثالث ـ لم يقل (لَا تَكُنْ جَاهِلًا) بل من قوم ينسبون إلى الجهل ، تعظيما لنبيه ﷺ

بأن لم يُسْنَد الجهل إليه ، للمبالغة فى نفيه عنه . وما فيه من شدة الخطاب ، سرُّه تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزعُ فى مواطن الصبر ، مما لا يليق إلا بالجاهلين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ. وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

وقوله تعالى « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » تقرير لما مرّ من أن على قلوبهم أكنة ، وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى ، لا يتصور منهم الإيمان البتة . أى : إنما يستجيب لك ، بقبول دعوتك إلى الإيمان ، الأحياء الذين يسمعون ما يلقى إليهم ، سماع تفهم ، دون الموتى الذين هؤلاء منهم . كقوله تعالى (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ)[1] وإن كانوا أحياء بالحياة الحيوانية، أموات بالنسبة إلى الإنسانية، لموت قلوبهم بسموم الاعتقادات الفاسدة ، والأخلاق الرديئة .

و (الْمَوْتَىٰ) مبتدأ . يعنى : الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، يبعثهم الله يوم القيامة ، ثم إليه يرجعون ، فيجزيهم بأعمالهم . فالموتى مجاز عن الكفرة كما قيل :

لا يُعْجِبَنَّ الجهولَ بِزَّتُهُ فذاكَ مَيْتٌ ثِيابُهُ كَفَنُ

قيل : فيه رمز إلى أن هدايتهم كبعث الموتى ، فلا يقدر عليه إلا الله . ففيه إقناط للرسول ﷺ عن إيمانهم . وفى تسميتهم (موتى) من التهكم بهم ، والإزراء عليهم ، ما لا يخفى .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٨٠] . . . وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

« وَقَالُوا » يعنى : مشركى مكة ، بيان لنوع آخر من تعنتهم ، إذ لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخرّ لها صمّ الجبال ، « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ » أى: خارق، على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتمنتون . كقولهم[1] ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ... ﴾ الآيات .

« قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى : إن اقتراحها جهل ، لما أن فى تنزيلها قلعاً لأساس التكليف ، المبنىّ على قاعـدة الاختيار . أو استئصالا لهم بالكلية ، فإن من لوازم جحد الآية الملجئة، الهلاكُ ، جريا على سنته تعالى فى الأمم السالفة . وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم، لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَـٰئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَـٰبِ مِنْ شَىْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ » أى: مستقرة فيها ، لا ترتفع عنها « وَلَا طَـٰئِرٍ » يرتفع عنها إذ « يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » أى : أصناف مصنفة فى ضبط أحوالهـا ، وعدم إهمال شىء منها ، وتدبير شؤونها ، وتقدير أرزاقها .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ » أي : ما تركنا ، وما أغفلنا ، في لوح القضاء المحفوظ ، « مِنْ شَيْءٍ » أي : جليل أو دقيق ، فإنه مشتمل على مايجرى فى العالم ، لم يهمل فيه أمر شيء : والمعنى : أن الجميع علمهم عند الله ، لا ينسى واحداً منها من رزقه وتدبيره . كقوله: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)(١) أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانّها، وحاصر لحركاتها وسكناتها. «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » يعنى : الأمم كلها، من الدوابّ والطير، فينصف بعضهم من بعض، حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجمَّاء من القرناء . وإيراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء ، لإجرائها مجراهم .

تنبيهـــات

الأول ـ قال الزمخشريّ : إن قلت : فما الغرض فى ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لمـا لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لايشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان .

وقال الرازيّ : المقصود أن عناية الله لما كانت حاصلة لهذه الحيوانات ، فلو كان إظهار آية ملجئة مصلحة، لأظهرها ، فيكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية .

وقال القاضي : إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار ، وبيّن أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون ، بيّن بعده بقوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ..) إلخ، أن البعث حاصل فى حق البهائم أيضاً .

الثاني ـ زيادة (مِنْ) فى قوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ) لتأكيد الاستغراق . و (فِي) متعلقة بمحذوف هو وصف لـ (دَابَّةٍ) مفيد لزيادة التعميم . كأنه قيل : وما فرد من

(١) [١١ / هود / ٦] .

أفراد الدواب يستقر فى قطر من أقطار الأرض . وكذا زيادة الوصف فى قوله : (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) .

قال فى الانتصاف : فى وجه زيادة التعميم ، أن موقع قوله : (فِي الْأَرْضِ) و (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) موقع الوصف العام ـ وصفة العام عامة ـ ضرورة المطابقة ، فكأنه مع زيادة الصفة ، تضافرت صفتان عامتان .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : إن قلت : كيف قيل (الأمم) مع إفراد الدابة والطائر ؟ قلت : لمّا كان قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ) دالاًّ على معنى الاستغراق، ومغنياً عن أن يقال : وما من دوابّ ولا طير ، حمل قوله : (إِلَّا أُمَمٌ) على المعنى .

الرابع ـ دلت الآية على أن كل صنف من البهائم أمة ، وجاء فى الحديث : لولا أن الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها ـ رواه أبوداود[1] والترمذىّ عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه ـ .

الخامس ـ ماذكرناه فى معنى مماثلة الأمم لنا، من تدبيره تعالى لأمورها ، وتكفله برزقها ، وعدم إغفال شئ منها ، مما يبيّن شمول القدرة ، وسعة العلم ـ هو الأظهر . موافقة لقوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا . . .)[2] الآية ـ والقرآن يفسر بعضه بعضاً . ونقل الواحدىّ عن ابن عباس أن المماثلة هى فى معرفته تعالى ، وتوحيده وتسبيحه وتحميده . كقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[3] ، وقوله :

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢٢ ـ باب فى اتخاذ الكلاب للصيد وغيره ، حديث ٢٨٤٥ .

والترمذىّ فى : ١٦ ـ كتاب الصيد ، ١٦ ـ باب ما جاء فى قتل الكلاب .

(٢) [١١ / هود / ٦] .

(٣) [١٧ / الإسراء /٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ،وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)[١] .

وعن أبى الدرداء قال : أبهمت عقول البهائم عن كل شئ ، إلا عن أربعة أشياء : معرفة الإله ، وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه .

وقيل : المماثلة فى أنها تحشر يوم القيامة كالناس .

أقول : لا شك فى صحة الوجهين بذاتهما ، وصدق المثلية فيهما ، ولكن الحمل عليهما يُبعده عدم ملاقاته للآيةالأخرى . فالأمسّ، تأييداً للنظائر ، ماذكرناه أولاً ـ والله أعلم ـ .

السادس ـ ما بيناه فى معنى (الكتاب) من أنه اللوح المحفوظ فى العرش ، وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام ـ هو الأظهر ، لملاقاته للآية التىذكرناها تأييداً للنظائر القرآنية . ولم يذكر الإمام ابن كثير سواه، على توسعه .

وقيل : المراد منه القرآن كقوله تعالى(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)[٢] .

قال الخفاجىّ : قيل: حمله على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده . ويدفع بأن المعنى لم نترك شيئاً من الحجج وغيرها إلا ذكرناه ، فكيف يحتاج إلى آية أخرى مما اقترحوه ، ويكذب بآياتنا ؟ فالكلام بعضهآخذ بحجز بعض بلا شبهة .

وقال أبو السعود : أى ما تركنا فى القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التى من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته .

قال الشهاب فى قول البيضاوىّ (فإنه قد دوّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلًا

---

(١) [٢٤ / النور /٤١] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل/ ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

أو مجملًا) : يشير إلى أن ما ثبت بالأدلة الثلاثة ثابت بالقرآن ، لإشارته بنحو قوله(١) : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) إلى القياس. وقوله (وَمَاءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)(٢) إلى السنّة. بل قيل : إنه بهذه الطريقة يمكن استنباط جميع الأشياء منه . كما سأل بعض الملحدين بعضهم عن طبخ الحلوى ، أين ذكر في القرآن ؟ فقال : في قوله تعالى(٣) (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ) انتهى .

واستظهر الرازيّ أن المراد (بالكتاب) القرآن . واحتج بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد ، انصرف إلى المعهود السابق ، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هوالقرآن . فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن . إذا ثبت هذا ، فلقائل أن يقول : كيف قال تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) مع أنه ليس فيه تفاصيل علم

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] ونصها : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ .

(٢) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

و [٢١ / الأنبياء / ٧] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

الطب ، وتفاصيل علم الحساب ، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم . وليس فيه أيضاً تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم فى علم الأصول والفروع ؟ .

والجواب : أن قوله : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التى يجب معرفتها ، والإحاطة بها ، وبيانه من وجهين :

الأول ـ أن لفظ (التفريط) لايستعمل نفيا وإثباتا ، إلا فيما يجب أن يبين ، لأن أحدا لاينسب إلى التفريط والتقصير فى أن لايفعل ما لا حاجة إليه ، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه .

الثانى ـ أن جميع آيات القرآن ، أو الكثير منها ، دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ، ومعرفة الله ، ومعرفة أحكام الله . وإذا كان هذا التقييد معلوما من كل القرآن ، كان المطلق ههنا محمولا على ذلك المقيد . أما قوله : إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع ، فنقول : أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه، لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه. فأما روايات المذاهب، وتفاصيل الأقاويل ، فلا حاجة إليها . وأماتفاصيل علم الفروع ، فقال العلماء : إن القرآن دل على أن الإجماع ، وخبر الواحد ، والقياس ، حجة فى الشريعة . فكل مادل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة، كان ذلك فى الحقيقة موجودا فى القرآن .

وذكر الواحدىّ رحمه الله لهذا المعنى أمثلة ثلاثة :

المثال الأول ـ روى أن ابن مسعود(١) كان يقول : مالى لا ألعن من لعنه الله فى كتابه؟

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ٤ ـ باب وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .

عن عبد الله قال : لعن الله الواشمات والموتشمات والمتفلّجات للحسن المغيّرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأةً من بنى أسد يقال لها : أمّ يعقوب . =

يعنى : الواشمة والمستوشمة ؛ والواصلة والمستوصلة ،

وروى أن امرأة قرأت جميع القرآن ، ثم أتته ، فقالت : ياابن أم عبد ! تلوت البارحة ما بين الدفتين ، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة ! فقال . لو تلوتيه لوجدتيه ، قال الله تعالى : (وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وإن مما آتانا به رسول الله أنه قال : لعن الله الواشمة والمستوشمة .

قال الرازىّ : وأقول : يمكن وجدان هــــذا المعنى فى كتاب الله بطريق أوضح من ذلك ، لأنه تعالى قال فى سورة النساء (وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا*لَعَنَهُ اللَّهُ .)[١] فحكم

= فجاءت فقالت : إنه بلغنى إنك لعنت كيت وكيت . فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، ومن هو فى كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول .

قال : لئن كنتِ قرأتيهِ ، لقد وجدتِيهِ . أما قرأتِ : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ؟

قالت : بلى .

قال : فإنه قد نهى عنه .

قالت : فإنى أرى أهلك يفعلونه .

قال : فاذهبى فانظرى .

فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً .

فقال : لو كانت كذلك ما جامعتْنا .

وأخرجه مسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس والزينة ، حديث ١٢٠ (طبعتنا) .

(١) [٤ / النساء / ١١٧،١١٨] ونصها : إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا . . .

عليه باللعن ، ثم عدّد بعده قبائح أفعاله ، وذكر من جملتها قوله[١] (وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ) . وظاهر هذه الآية يقتضى أن تغيير الخلق يوجب اللعن . انتهى .

قلت : وتتمة الحديث تؤيد ذلك أيضاً . ولفظه : لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله ـ رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن ابن مسعود[٢] ـ .

ثم قال الرازىّ :

المثال الثانى ـ ذكر أن الشافعىّ رحمه الله كان جالساً فى المسجد الحرام فقال: لا تسألونى عن شىء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى . فقال رجل : ما تقول فى المُحْرِم إذا قتل الزنبور ؟ فقال : لا شىء عليه . فقال : أين هـذا فى كتاب الله ؟ فقال : قال الله تعالى : « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » ثم ذكر إسناداً إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . ثم ذكر إسنادا إلى عمر رضى الله عنه أنه قال : للمحرم قتل الزنبور . قال الواحدىّ : فأجابه من كتاب الله مستنبطاً بثلاث درجات .

وأقول . ههنا طريق آخر أقرب منه ، وهو أن الأصل فى أموال المسلمين العصمة . قال تعالى : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)[٣] . وقال : (لَا يَسْأَلْكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١١٩] ونصها : وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٠١ .

(٣) [٢/ البقرة/ ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا =

أَمْوَالَكُمْ)[١] وقال (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)[٢] فنهى عن أكل أموال الناس إلا بطريق التجارة ، فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة . وهذه العمومات تقتضي أن لا يجب على المحرم الذى قتل الزنبور شىء ، وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب الحكم بمرتبة واحدة .

المثال الثالث ـ قال الواحدى : روى فى حديث العسيف الزانى[٣] أن أباه قال للنبى ﷺ : اقض بيننا بكتاب الله . فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده! لأقضين بينكما بكتاب الله .

= إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٦] ونصها : إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ .

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

(٣) أما حديث العسيف فها كه بنصه الكامل :

فقد أخرجه البخارى فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣٠ ـ باب الاعتراف بالزنى ، حديث ١١٥٤و١١٥٥ .

عن أبى هريرة وزيد بن خالد قالا : كنا عند النبى ﷺ ، فقام رجل فقال: أنشدك الله إلّا قضيت بيننا بكتاب الله .

فقام خصمه ، وكان أفقه منه ، فقال : اقض بيننا بكتاب الله وأذن لى .

قال « قل » .

قال : إن ابنى كان عسيفاً على هذا ، فزنى بامرأته . فافتديت منه بمائة شاة وخادم . =

ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف، وبالرجم على المرأة إن اعترفت. قال الواحدى: وليس للجلد والتغريب ذكر فى نص الكتاب . وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبى ﷺ فهو عين كتاب الله . قال الرازى : وهـذا حق ، لأنه تعالى قال : (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ، وكل ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام كان داخلا تحت هـذه الآية . انتهى .

وبالجملة، فالقرآن الكريم كلية الشريعة ، والمجموع فيه أمور كليات ، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله ، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها ، وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال . وقد جوّد البحث فى هذه المسألة المهمة، العلامة الشاطبىُّ فى (الموافقات) فى الطرف الثانى ، فى الأدلة على التفصيل . فارجع إليه .

وقد نقلنا شذرة منه فى مقدمة هذا التفسير . فتذكر ! .

السابع ـ قال أبو البقاء: (مِنْ) فى قوله تعالى (مِنْ شَيْءٍ) زائدة . و(شىء) هنا واقع موقع المصدر . أى : تفريطاً . وعلى هذا التأويل لا يبقى فى الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوى على ذكر كل شىء صريحا . ونظير ذلك : لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)(٣) . أى :

= ثم سألت رجلا من أهل العلم فأخبرونى ؛ أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم .

فقال النبىّ ﷺ « والذى نفسى بيده ! لأقضينّ بينكما بكتاب الله ، جلّ ذكره . المائة شاة والخادم ردٌّ . وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغد ، يا أُنيس ! على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها » .

فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها .

وأخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٢٥ (طبعتنا) .

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٠] ونصها : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ =

ضررا . وقد ذكرنا له نظائر . ولا يجوز أن يكون (شَيْئًا) مفعولا به ، لأن (فَرَّطْنَا) تتعدى بنفسها ، بل بحرف الجر ، وقد عديت بـ (فِي) إلى (الْكِتَابِ) ، فلا تتعدى بحرف آخر . ولا يصح أن يكون المعنى : ما تركنا في الكتاب من شيء ، لأن المعنى على خلافه ، فبان أن التأويل ما ذكرنا . انتهى .

وقال الخفاجى : التفريط التقصير . وأصله أن يتعدى بـ (فى) وقد ضمن هنا معنى (أَغْفَلْنَا وَتَرَكْنَا) . فـ (مِنْ شَيْءٍ) فى موضع المفعول به ، و (مِنْ) زائدة . والمعنى : ماتركنا فى الكتاب شيئاً يحتاج إليه من دلائل الألوهية والتكاليف .

هذا ما ارتضاه أبو حيان والزمخشرى ، وعدل عنه البيضاوى . لأنه لا يتعدى . فجعل التقدير (تفريطاً) فحذف المصدر ، وأقيم (شيئاً) مقامه ، وتبع فيه أبا البقاء ، إذ اختار هذا ، وأورد عليه فى (الملتقط) أنه ليس كما ذكر ، لأنه إذا تسلط النفى على المصدر ، كان منفيا على جهة العموم ، ويلزمه نفى أنواع المصدر ، ونفى جميع أفراده ، وليس بشيء ، لأنه يريد أن المعنى حينئذ : أن جميع أنواع التفريط منفية عن القرآن ، وهو مما لا شبهة فيه ، ولا يلزمه أن يذكر فيه كل شيء كما لزم على الوجه الآخر ، حتى يحتاج إلى التأويل . كما أن نفى تعديه لا يضر من قال إنه مفعول به على التضمين ، كما مر . وأما ما قيل : إن (فرط) يتعدى بنفسه ، لما وقع فى القاموس (فرط الشيء ، وفرط فيه تفريطاً ضيعه وقدم العجز فيه وقصر) فلا نسلم أنه يتعدى بنفسه . وتفردُ صاحب القاموس بأمر ، لا يسمع فى مقابلة الزمخشرى وغيره . مع أنه يحتمل أن تعديته المذكورة فيه ليست وضعية ، بل مجازية ، أو بطريق التضمين ـ انتهى كلام الشهاب ـ .

أقول : ما للمجد فى القاموس ، ليس من تفرداته وعندياته ، إذ اللغة مرجعها السماع ،

= تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

لا الاجتهاد . وموازنته بين الزمخشريّ وغيره ، من باب معرفة الحق بالرجال ، الذى الصواب عكسه . على أنه ليس فى (الكشاف) ما يقتضى مازعمه . وقد استشهد شارح القاموس ، الزبيديّ شاهدا على تعديته بنفسه ، تأييدا لكلام المجد ، قول صخر الغيّ[1] :

ذلك بَزِّى فلن أُفَرِّطَهُ أخاف أن يُنجزوا الذى وعدوا

قال ابن سيدة : يقول . لا أضيعه ، وقوله : بزى ، أراد سلاحى . ثم قال الزبيديّ : وقال أبو عمرو : فرطتك فى كذا وكذا ، أى تركتك . وبه فسر أيضاً قول صخر . انتهى .

وأنشد أبو السعود قول ساعدة بن جُؤَيَّة[2] :

* معه سِقاءٌ لا يفرِّط حمله *

أى : لا يتركه .

وبه يعلم سقوط ما لأبى البقاء ، وسقوط دعوى أن أصله أن يتعدى بـ (فى) ودعوى التضمين السابقة ، وتكلف كون (شَىْءٍ) واقعا موقع المصدر .

هذا وقرىء (فَرَطْنَا) بالتخفيف ، وهو بمعنى المشدّد . وإنما توسعنا فيما روى على القول الثانى فى معنى الكتاب ، لشهرة الآية فى هذا المعنى ، وإن كان الأظهر الأول ، لما ذكرناه ، ولأن السورة مكية ، والأحكام فيها لم تتم ـ والله أعلم ـ .

الثامن ـ دلت الآية على حشر الدوابّ والبهائم والطير كلها ، أى : بعثها يوم القيامة . كقوله تعالى : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)[3] .

وروى الإمام أحمد[4] عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين

---

(١) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا أخلّفه فأتقدم عنه . وقال ابن سيده . يقول : لا أضيّعه . وقيل : معناه لا أقدمه وأتخلّف عنه .

(٢) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا يترك حمله ولا يفارقه .

(٣) [٨١ / التكوير / ٥] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

تنتطحان ، فقال : يا أباذر ! هـــل تدرى فيم تنتطحان ؟ قال : لا. قال : لـكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما . ورواه عبدالرزاق وابن جرير[١] ، وزاد : قال أبو ذر : ولقد تركنا رسولُ الله ﷺ ، ومايقلّب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما .

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد[٢] فى مسند أبيه عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال : إن الجماء لتُقَصُّ من القرناء يوم القيامة .

وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة فى هـــذه الآية قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة : الدوابّ والبهائم والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى تراباً ! فلذلك يقول الـكافر : « يَا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَاباً ». وقدروى هذا مرفوعاً فى حديث الصور . أفاده ابن كثير .

قلت : روى الإمام أحمد[٣] ، والبخارىّ فى (الأدب المفرد) ومسلم[٤] والترمذىّ[٥] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء ، من الشاة القرناء ، تنطحها .

(١) الأثر رقم ١٣٢٢٣ من التفسير .

وفى المسند بالصفحة ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٢٠ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٢٠٣ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٢ ـ باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص .

وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال : حشرها الموت . وروى عن مجاهد والضحاك مثله . والأول أظهر .

التاسع ـ (فى الإكليل) : استدل بهذه الآية على مسألة أخرى ، أخرجه أبوالشيخ عن أنس أنه سئل : من يقبض أرواح البهائم ؟ قال : ملك الموت . فبلغ الحسن فقال : صدق ! وإن ذلك فى كتاب الله . ثم تلا هذه الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ » أى : مثلهم فى جهلهم ، وعدم فهمهم ، وسوء حالهم ، كمثل الصم (جمع أصم وهو الذى لا يسمع) والبكم (جمع أبكم ، وهو الذى لا يتكلم) . وهم مع ذلك فى ظلمات لا يبصرن . فكيف يهتدى مثلهم إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه ؟ وقد كثر تشبيههم بذلك فى التنزيل ، إعلاماً ببيان كمال غراقتهم فى الجهل ، وانسداد باب الفهم والتفهيم بالكلية .

ثم أشار إلى أنهم من أهل الطبع بقوله « مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى : فهو المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فمن أحب هدايته ، وفقه بفضله وإحسانه للإيمان . ومن شاء ضلالته تركه على كفره . (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

ثم أمر تعالى رسوله بأن يبكتهم بما لا سبيل لهم إلى إنكاره ، ببيان أنهم إذا نزلت بهم شدة ، فإنهم يفزعون إليه تعالى ، لا إلى الأصنام ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ » أى:أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ » أى:مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة ، « أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ » يعنى القيامة «أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ » أى: فى كشف العذاب عنكم . وهذا محطّ التبكيت . أى : أتخصون آلهتكم بالدعوة إلى رفع تلك الشدة ، بل لا تدعونها مع الله أيضاً « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » متعلق بـ (أَرَأَيْتَكُمْ) مؤكد للتبكيت ، كاشف عن كذبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)

« بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ » أى : تخصون بالدعوة « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » أى : إن شاء كشفه . والتقييد بالمشيئة لبيان أن إجابتهم غير مطّردة ، بل هى تابعة لمشيئته تعالى ، المبنية على حِكَم استأثر بعلمها « وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » أى : تتركون ما تشركون تركاً كليًّا لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع . عطف على (تَدْعُونَ) ، وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما، وتأخر الكشف عنهما،لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة .

ثم بين تعالى أن من كفار الأمم السالفة من بلغوا فى القسوة إلى أن أخذوا بالشدائد ليخضعوا ويلتجئوا إلى الله تعالى ، فلم يفعلوا . تسليةً لنبيه ﷺ فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ » أى : رسلًا ، فكذبوهم ولم يبالوا، لكونهم فى الرخاء ، « فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ » أى : الشدة والقحط ، « وَالضَّرَّاءِ » أى : المرض ونقصان الأنفس والأموال « لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ » أى : يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون إليه من كفرهم ومعاصيهم ، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » أى : بالتوبة والتمسكن . ومعناه. نفى التضرع. كأنه قيل : فلم يتضرعوا . وجئ بـ (لَوْلَا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم ، كما قال «وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ» فلم يكن فيها لين يوجب التضرع ، ولم ينزجروا وإنما ابتلوا به ، « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : من الشرك . فالاستدراك على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع ، وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم المزينة لهم .

لطيفة :

إن قلت : قد أسند تعالى هنا التزيين إلى الشيطان ، وأسنده إلى نفسه فى قوله : وَكَذَٰلِكَ (زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ)[1] فهل هو حقيقة فيهما ، أو فى أحدهما ؟ قلت : وقع التزيين

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] ونصها : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ =

فى مواقع كثيرة : فتارة أسنده إلى الشيطان، كالآية الأولى ، وتارة إلى نفسه كالثانية، وتارة إلى البشر كقوله (زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ)(١) ـ فى قراءة ـ وتارة مجهولا غير مذكور فاعله كقوله (زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ)(٢) ، لأن التزيين له معان يشهد بها الاستعمال واللغة : أحدها : إيجاد الشيء حسناً مزيناً فى نفس الأمر ، كقوله : (زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا) ، والثانى : جعله مزيناً من غير إيجاد ، كتزيين الماشطة العروس ، والثالث : جعله محبوباً للنفس ، مشتهى للطبع ، وإن لم يكن فى نفسه كذلك . فهذا إن كان بمعنى خلق الميل فى النفس والطبع لا يسند إلا إلى الله ، لأنه الفاعل له حقيقة ، لإيجاده له ، ولغة ونحواً لا تصافه بخلقه . وإن كان بمجرد تزويره وترويجه بالقول وما يشبهه ، كالوسوسة والإغواء،

= فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(١) [٦ / الأنعام [١٣٧] ونصها : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٢] ونصها: وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٦] ونصها : إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ .

و [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

و [٦٧ / الملك / ٥] ونصها: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

فهذا لا يسند إليه تعالى حقيقة ، وإنما يسند إلى البشر أو الشيطان . وإذا لم يذكر فاعله، يقدّر في كل مكان ما يليق به ـ كذا في (العناية) ـ .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » أي : من البأساء والضراء ، أي تركوا الاتعاظ به « فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » أي : من النعم ، كالصحة والسعة وراحة البال والأمن، وصنوف رغائبهم، استدراجاً وإملاءً ومكرًا بهم ، عياذًا بالله من مكره ، « حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا » من مطالبهم ورغائبهم، مع الشرك « أَخَذْنَاهُمْ » أي : بالعذاب المستأصل ، « بَغْتَةً » أي : فجأة بلا تقديم مذكّر، إذلم يفدهم في المرة الأولى ، « فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ » متحسرون، يئسون من كل خير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أي : آخرهم . كناية عن الاستئصال ، لأن ذهاب آخر الشيء يستلزم ذهاب ماقبله . وهو من (دَبَرَهُ) إذا تبعه ، فكان في دُبُرِهِ . أي : خلفه . فالدابر ما يكون بعد الآخر ، ويطلق عليه تجوّزًا . وقال أبو عبيد: دابر القوم آخرهم . وقال الأصمعيّ : الدابر الأصل ، ومنه : قطع الله دابره ، أي : أصله .

« وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أي : على ما جرى عليهم من الهلاك . فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض ، من شؤم عقائدهم وأعمالهم ، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها ، لاسيما مع مافيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم،عليهم السلام .

تنبيهات

الأول ـ روى فى هذه الآية أخبار وآثار . منها ما أخرجه الإمام أحمد[١] عن عقبة بن عامر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ ... إلى .. هم مُبْلِسُونَ » ورواه ابن جرير[٢] وابن أبى حاتم عنه .

وروى ابن أبى حاتم أيضاً عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم (أَوْ فُتِحَ عَلَيْهِمْ) باب خيانة، حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ... الآية . ورواه أحمد وغيره .

وقال الحسن البصرىّ : من وسع الله عليه ، فلم ير أنه يمكر به ، فلا رأى له . ومن قتّر عليه ، ولم ير أنه ينظر له ، فلا رأى له . ثم قرأ . « فَلَمَّا نَسُوا ... » الآية ـ قال الحسن : مكر بالقوم، ورب الكعبة ! أعطوا حاجتهم ثم أخذوا .

وقال قتادة : بغت القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ـ روى ذلك ابن أبى حاتم ـ

الثانى ـ قال الرازىّ : قال أهل المعانى : وإنما أخذوا فى حال الرخاء والراحة ليكون أشد، لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فى قوله تعالى (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجل النعم ، وأجزل القسم . أى : فهو إخبار بمعنى الأمر ، تعليماً للعباد .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) الأثر رقم ١٣٢٤١ من التفسير .

قال الناصر فى (الانتصاف) : ونظيرها قوله تعالى[1] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)فيمن وقف ههنا ، وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين . ومنهم من وقف على (الْمُنْذَرِينَ) وجعل الحمد متصلًا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى ، وأنه جل جلاله خير مما يشركون. فعلى الأول يكون الحمد ختماً ، وعلى الثانى فاتحة ، وهو مستعمل فيهما شرعاً ، ولكنه فى آية النمل أظهر فى كونه مفتتحاً لما بعده ، وفى آية الأنعام ختم لما تقدمه حتماً ، إذ لا يقتضى السياق غير ذلك . انتهى .

قلت : إذا جرينا على ما هو الأسدّ فى الآى من توافق النظائر ، اقتضى حمل آية النمل على ما هنا ، وإدعاء الأظهرية فيها ممنوع ، فإن التنزيل يفسر بعضه بعضاً . فتأمل . ثم أمر تعالى رسوله بتكرير التبكيت عليهم . وتثنية الإلزام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)

بقوله تعالى: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ » بأن أصمكم وأعماكم ، « وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ » بأن غطى عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم « مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ » أى: بذلك المأخوذ. وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان ، وفسد أمره ، وبطلت مصالحه فى الدين والدنيا .

« انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى نوردها بطرق مختلفة، كتصريف الرياح. و(انظر) يفيد التعجيب من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٥٨و٥٩] . . . ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

« ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ » أي : بعد رؤيتهم تصريف الآيات يعرضون عنها ، فلا يتأملون فيها، عنادا وحسدا و كبرا .

تنبيهات

الأول ـ المراد بالآيات : إما مطلق الدلائل ، أو الدلائل القرآنية مطلقا ، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا ، أو ما ذكر قبل هذا من المقدمات العقلية الدالة على وجود الصانع وتوحيده المشار إليها بقوله : إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ . . . الآية . ومن الترغيب بقوله : فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ، والترهيب بقوله : إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ . . . الآية . ومن التنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين . ذهب إلى كلٍّ بعضٌ من المفسرين ، وعموم اللفظ يصدق على ذلك كله بلا تدافع .

الثاني ـ قال بعض المفسرين من الزيدية : دلت الآية على جواز الاحتجاج في أمر الدين. انتهى. وهو ظاهر.

الثالث ـ المقصود من هذه الآية : بيان أن القادر على تحصيل هذه القوى الثلاث ، وصونها عن الآفات ، ليس إلّا الله تعالى . وإذا كان الأمر كذلك ، كان المنعم بهذه النعم العالية ، والخيرات الرفيعة ، هو الله تعالى . فوجب أن يقال : المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى . وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة ـ قرره الرازيّ ـ .

ثم أشار تعالى إلى تبكيت لهم آخر بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِن أَتَاكُمْ » لإعراضكم عن الآيات بعد تصريفها « عَذَابُ اللهِ » أى : المستأصل لكم ، « بَغْتَةً » أى : فجأة من غير تقديم ما يشعر به ؛ إذ لم يفد ما تقدم ، «أَوْ جَهْرَةً » بتقديمه مبالغة فى إزاحة العذر . وقيل : ليلا أو نهارا ، كما فى قوله تعالى : بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ، لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة ، وفيما أتى نهارا الجهرة « هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ » أى : هل يهلك بذلك العذاب إلاأنتم؟ وَوَضعَ الظاهرَ موضعه ، تسجيلاعليهم بالظلم ، وإيذاناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الإعراض عما صرف الله له من الآيات، موضع الإيمان

ثم أشار تعالى إلى وظيفة الرسل ، وتحقيق مافى عهدتهم ، لبيان أن ما يقترحه الكفار عليه ، ﷺ ، ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ » بالثواب لأهل الإيمان والأعمال الصالحة ، « وَمُنْذِرِينَ » بالعقاب لأهل الكفر والمعاصى ، « فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ » للأعمال والأخلاق ، فهم أهل البشارة ، « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى : من العذاب الذى أنذروا به دنيويًّا وأخرويًّا ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : بفوات مابشروا به من الثواب العاجل والآجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ » أى : الذى أنذروا به عاجلا أو آجلا « بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » أى : عن أمر الله فى ترك الإيمان ، ومباشرة الأعمال الطالحة واكتساب الأخلاق الرديئة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أى : قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات ، وأخرى غير ذلك : لا أدعى أن خزائن رزق الله مفوضة إلىّ ، فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهبا ، وغير ذلك .

(والخزائن : جمع خزانة، وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء. وخَزْنُ الشىء إحرازه، بحيث لا تناله الأيدى) .

« وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ » أى : من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة ، أو وقت نزول العذاب أو نحوها .

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ » أى: حتى تكلفونى من الأفاعيل الخارقة للعادات مالا يطيقه البشر ، من الرقىّ فى السماء ونحوه ، أو تعدّوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى أمرى ، كما ينبئ عنه قولهم : مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . والمعنى : إنى لا أدعى شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة ، حتى تقترحوا علىّ ما هو من آثارها وأحكامها ،

وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك، دليلا على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التي لا تعلق لها بشيء مما ذكر قطعا . بل إنما هي عبارة عن تلقي الوحي من جهة الله عز وجل، والعمل بمقتضاه فقط ، كما ينبئ عنه قوله تعالى :

« إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ » أي: ما أتبع فيما أقول لكم إلا ما يوحى إليّ من جهته تعالى ، شرفني بذلك وأنعم به عليّ ، إذ يكشف لي عن الملائكة فيخبرونني .

ثم كرر الأمر تثنية للتبكيت بقوله :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ » مثل للضال والمهتدي على الإطلاق . والاستفهام إنكاريّ، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ، ومن يعلمها . وفيه من الإشعار بكمال ظهورها، ومن التنفير عن الضلال، والترغيب في الاهتداء ـ ما لا يخفى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر . أي : أفلا تتفكرون فتهتدوا ، ولا تكونوا ضالين أشباه العميان .

تنبيهات :

الأول ـ جعل بعض المفسرين قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) تبرؤًا من دعوى الألوهية، لأن قسمة الأرزاق بين العباد ، ومعرفة الغيب ، مخصوصان به تعالى . قال : ولذا كرر في الملكية لفظ (وَلَا أَقُولُ) . والمعنى : لا أدعي الألوهية ولا الملكية .

وأورد على هذا أن المراد : لا أملك أن أفعل ما أريد مما تقترحونه ، وليس المراد التبرؤ عن دعوى الإلهية ، وإلا لقيل : لا أقول لكم إني إله. كما قيل: ولا أقول لكم إني ملك . وأيضاً في الكناية عن الألوهية بـ (عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ) ما لا يخفى من البشاعة ، بل هو جواب عن اقتراحهم عليه ﷺ أن يوسع عليهم خيرات الدنيا ـ كذا في (العناية) ـ .

قال أبو السعود : وجعل هذا تبرؤًا عن دعوى الإلهية ، مما لا وجه له قطعاً .

الثانى ـ قال الجبائىّ : الآية دالة على أن المَلَك أفضل من الأنبياء ، لأن المعنى : لا أدعى منزلة فوق منزلتى . ولولا أن الملك أفضل ، وإلا لم يصح ذلك .

قال القاضى : إن كان الغرض بما نفى طريقة التواضع ، فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفى قدرته على أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة ، لم يدل على كونهم أفضل .

وقرر الزمخشرىّ الأول تأييدا لمذهبه فقال فى تفسير الآية : أى لا أدعى ما يستبعد فى العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله ، وهى قِسَمه بين الخلق وأرزاقه، وعلم الغيب، وإنى من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى ، وأفضله ، وأقربه منزلة منه . أى: لم أدع إلهية ولا ملكية، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، حتى تستبعدوا دعواى وتستنكروها ، وإنما أدعى ما كان مثله لكثير من البشر ، وهو النبوة . انتهى .

وتعقبه الناصر فى (الانتصاف) بقوله : هو يبنى على القاعدة المتقدمة له، فى تفضيل الملائكة على الأنبياء . ولعمرى إن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة فى الاستدلال بها . ولمخالفه أن يقول : إنما أوردت الآية ردًّا على الكفار فى قولهم : مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ...) الآية ـ فردّ قولهم : (مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ)بأنه بشر ، وذلك شأن البشر ، ولم يدّع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء، لأنه لا خلاف أن الأنبياء، يأكلون الطعام ، وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء .

وكذلك رد قولهم (أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ) بأنه لا يملك خزائن الله تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به .

ثم قال الناصر رحمه الله : ولم يحسن الزمخشريّ في قوله (ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة) فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل كالملكية ، ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ. والمنزلة عبارة عن المحل الذي يُنزِل اللهُ فيه العبد من علوّ وغيره ، فإطلاقها على الإلٰهية تحريف. والله الموفق للصواب .

الثالث ـ قال الرازيّ : ظاهر قوله تعالى (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) يدل على أنه ﷺ لا يعمل إلا بالوحي ، وهو يدل على حكمين :

الأول ـ أن هذا النص يدل على أنه ﷺ لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام، وأنه ما كان يجتهد ، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) .

الثاني ـ أن نفاة القياس قالوا : ثبت بهذا النص أنه ﷺ ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه ، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه ، بقوله تعالى : (فَاتَّبِعُوهُ) ، وذلك ينفي جواز العمل بالقياس . ثم أكد هذا الكلام بقوله : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ) وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى . والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير . ثم قال (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين، وأن لا يكون غافلًا عن معرفته. انتهى.

وفي (فتح الرحمن) : تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء ، عملًا بما يفيده القصر في هذه الآية .

والمسألة مدونة في الأصول . وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوتيت القرآن ومثله معه .

ثم لما أخبر تعالى : أن أولئك المشركين كالصم البكم العمى ، بل الموتى ، إذ لم يتعظوا بتصريف الآيات الباهرة، أمر بتوجيه الإنذار إلى من يتأثر بما يوحى إليه ، اطّراحاً لأولئك الفجار ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

« وَأَنْذِرْ بِهِ » أى: بما يوحى ، المتقدم ذكره « الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ » يعنى : من دون الله تعالى ، « وَلِيٌّ » أى : ناصر ينصرهم « وَلَا شَفِيعٌ » يشفع لهم وينجيهم من العذاب ، غيره تعالى (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى : الاعتقادات الفاسدة ، والأعمال الطالحة ، والأخلاق الرديئة .

قال فى (العناية) : خص بالذكر هؤلاء ، لأنهم الذين ينفعهم الإنذار ، ويقودهم إلى التقوى . وليس المراد الحصر حتى يرد أن إنذاره لغيرهم لازم أيضاً . انتهى .
وجملة (لَيْسَ لَهُمْ) فى موضع الحال من (يُحْشَرُوا) ، فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة. والمراد بـ (الولىّ) و (الشفيع) الآلهة التى كان المشركون يزعمون أنها شفعاؤهم ، وحينئذ فلا دلالة فى الآية على نفى الشفاعة للمسلمين ، لأن شفاعة الرسل يومئذ إنما تكون بإذنه تعالى ، فكأنها منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

روى الإمام مسلم(١) عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر ، فقال له المشركون : اطرد هؤلاء يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ ... » الآية .

وأخرج نحوه الحاكم وابن حبان فى صحيحيهما .

وروى الإمام أحمد(٢) عن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ ، وعنده خبّاب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يامحمد ! أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل عليه القرآن : « وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » إلى قوله « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » .

ورواه ابن جرير(٣) عن ابن مسعود أيضاً قال : مرّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٥و٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٩٨٥ (طبعة المعارف) .

(٣) الأثر رقم ١٣٢٥٥ من التفسير .

وفيه : فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء من قومك ، أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ونحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتهم نتبعك ! فنزلت هذه الآية : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... »الآية .

ووراء ما ذكرنا، روايات لا تصحّ ولا يوثق بها .

إذا علمت ذلك تبين أنه ﷺ لم يطردهم بالفعل ، وإنما همّ بإبعادهم عن مجلسه آن قدوم أولئك ، ليتألفهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان ، فنهاه الله عن إمضاء ذلك الهمّ .

فما أورده الرازيّ من كونه ﷺ طردهم ، ثم أخذ يتكليف في الجواب عنه ، لمنافاته العصمة على زعمه ، فبناءٌ على واهٍ . والقاعدة المقررة أن البحث في الأثر فرع ثبوته ، وإلا فالباطل يكفي في رده، كونُه باطلًا . وقد أوضحت ذلك في كتابي (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث).

والمعنى : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك . كقوله[1] : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) .

وقوله تعالى : « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أي يعبدونه ويسألونه ، « بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » قال سعيد بن المسيّب وغيره : المراد به الصلاة المكتوبة .

وقوله تعالى : « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » المراد بالوجه الذات ، كما في قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ومعنى إرادة الذات الإخلاص لها ، والجملة حال من (يَدْعُونَ) أي : يدعون ربهم مخلصين له فيه ، وتقييده به لتأكيد عليّته للنهي ، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام، المضاد للطرد.

وقوله تعالى « مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ »،

(١) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

openkandil.com

كقول نوح عليه السلام فى الذين قالوا[1] : (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ) أى: إنما حسابهم على الله عز وجل، وليس علىّ من حسابهم من شىء ، كما أنه ليس عليهم من حسابى من شىء .

قال العلامة أبو السعود : الجملة اعتراض وسط بين النهى وجوابه، تقريرا له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوّغاً لطردهم من أقاويل الطاعنين فى دينهم ، كدأب قوم نوح حيث قالوا . (مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ) أى : ما عليك شىء من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة ، حتى تتصدى له ، وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام ، وإنما وظيفتك ، حسبما هو شأن منصب النبوة ، اعتبار ظواهر الأعمال ، وإجراء الأحكام على موجبها . وأما بواطن الأمر فحسابها على العليم بذات الصدور، كقوله تعالى (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى) وذكر قوله تعالى : (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَىْءٍ) مع أن الجواب قد تم بما قبله ، للمبالغة فى بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷺ ، بنظمه فى سلك مالا شبهة فيه أصلًا ، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام، عليهم ، على طريقة قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[2] وأما ما قيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة

---

(١) [٢٦/ الشعراء/ ١١١ـ١١٣] وهاكم نصها حسب الكتاب : قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى ، لَوْ تَشْعُرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٤] ونصها : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٠ / يونس / ٤٩] ونصها: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٦ / النحل / ٦١] ونصها : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا =

جملةواحدة، لتأدية معنى واحد،على نهجقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى[1]) فغيرحقيق بجلالة شأن التنزيل . انتهى .

والقول المذكور للزمخشريّ ، حيث ذهب إلى أن الجملتين فى معنى جملة واحدة ، تؤدى مؤدَّى (وَلَا تَزِرُ) الآية ، وأنه لابد منهما .

هذا ، وقيل : الضمير للمشركين، والمعنى : لا يؤاخذون بحسابك ، ولا أنت بحسابهم، حتى يهمك إيمانهم ، ويحرّكـ الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين .

وأغرب المهايميّ حيث قال : والعماةُ، لكونهم أرباب شرف ومال ، يكرهون مجالستهم ، لقلة شرفهم ومالهم ، فقال عز وجل لأشرف الناس : (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : ما يعود عليك من نقصهم فى الشرف والمال من شيء (وَمَا مِنَ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : وما يعود عليهم من كمالك فى الشرف والمال عليهم من شيء ، فإذا لم يلحقك نقصهم ، ولم يأخذوا كمالك بسلبه عنك ، فلاوجه لطردهم . انتهى .

وفيه بعدٌ ، لعدم ملاقاته لآية نوح السالفة . ولا يخفى مراعاة النظائر .

وفى (العناية) : قدم خطابه ﷺ فى الموضعين ، تشريفاً له . وإلا كان الظاهر (وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِكَ مِنْ شَيْءٍ) بتقديم (عَلَى) ومجرورها ، كما فى الأول . وفى النظم رد العجز على الصدر ، كما فى قوله : عادات السادات ، سادات العادات .

وقوله تعالى : « فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » الظلم : وضع الشيء فى غيرمحله، أى : فلا تهمّ بطردهم عنك ، فتضع الشيء فى غير موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ » هم الشرفاء « بِبَعْضٍ » وهم المستضعفون ، بما

= مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

مننا عليهم بالإيمان . وقوله : « لِيَقُولُوا » أى : الشرفاء « أَهَٰؤُلَاءِ » أى المستضعفون ، « مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ بَيْنِنَا » أى : بشرف الإيمان ، مع أن الشرفاء على زعمهم ، أولى بكل شرف ، فلو كان شرفاً لا نعكس الأمر ، فهو إنكار لأن يُخَصَّ هؤلاء من بينهم بإصابة الحق ، والسبق إلى الخير ، كقولهم : (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)[١] .

ثم أشار تعالى إلى أنه إنما منَّ عليهم بنعمة الإيمان ، لأنه علم أنهم يعرفون قدر هذه النعمة ، فيشكرونها حق شكرها . وأما أولئك ، فلا يعرفون قدرها ، فلا يشكرونها ، بقوله سبحانه «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ»؟ فهو ردٌّ لقولهم ذلك ، وإبطالٌ له ، وإشارةٌ إلى أن مدار استحقاق الإنعام، معرفة شأن النعمة، والاعتراف بحق المنعم . كما أن فيه من الإشارة إلى أن أولئك المستضعفين عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن، والتوفيق للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك ، مع التعريض بأن القائلين بمعزل عن ذلك كله ـ مالا يخفى.

قال الحافظ ابن كثير : إن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه فى أول بعثته ضعفاء الناس ، من الرجال والنساء ، والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل . كما قال قوم نوح لنوح (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ...)[٢] الآية ـ وكما سأل هرقلُ[٣] ملكُ الروم أباسفيان ـ حين سأله عن تلك المسائل ـ : (فأشراف الناس

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ .

(٢) [١١ / هود / ٢٧] ونصها : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .

(٣) انظر صحيح البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع ، حديث ٧، عن أبى سفيان لما أرسل إليه هرقل فى ركب من قريش ، وكانوا تجارًا بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه =

يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم. فقال : هم أتباع الرسل) وكان مشركو مكة يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون : (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا) كقوله: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ [1] . وكقوله تعالى: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا [2] ؟ قال الله تعالى فى جواب ذلك : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا [3] وقال فى جوابهم هنا : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ، أى :له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . كما قال تعالى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [4] .

وفى الحديث الصحيح [5] : إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم

= وهم بإيلياء فدعاهم فى مجلسه ... وهو حديث طويل يوجّه فيه هرقل إلى أبى سفيان عما يعلمه أبو سفيان عن رسول الله ﷺ . لا يفتْ مسلماً الاطلاع على هذا الحديث فإن فيه خيرًا كثيرًا .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ .

(٢) [١٩ / مريم / ٧٣] .

(٣) [١٩ / مريم / ٧٤] .

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] .

(٥) أخرجه مسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٣٣ (طبعتنا) ونصه: عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » وأشار بأصابعه إلى صدره .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) حديث رقم ٧٨١٤ (طبعة المعارف) .

وروى[1] ابن جرير عن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم ابن عدىّ ، والحرث بن نوفل ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، فى أشراف من بنى عبد مناف، من الكفار ، إلى أبى طالب فقالوا : ياأباطالب ! لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا، فإنما هم عبيدنا وعُسَفاؤنا ـ كان أعظم فى صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتّباعنا إياه ، وتصديقنا له . فأتى أبو طالب النبىّ ﷺ ، فحدثه بالذى كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلتَ ذلك ، حتى تنظر ما الذى يريدون ، وإلام يصيرون من قولهم ! فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ)[2] . إلى قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) . قال : وكانوا : بلالٌ وعمارُ بن ياسر وسالم مولى أبى حذيفة وصبيح مولى أسيد . ومن الحلفاء : ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، ومسعود بن القارىّ ، وواقد بن عبد الله الحنظلىّ، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين، ومرثد بن أبى مرثد = وأبو مرثد من غنىّ ، حليفُ حمزة بن عبد المطلب = وأشباههم من الحلفاء. ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ) ... الآية ـ فلما نزلت أقبل عمر ، فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله عز وجل : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ...)[3] الآية .

تنبيهات وفوائد

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية :

١ ـ أن الواجب فى الدعاء الإخلاص به ، لأنه تعالى قال : (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) ـ هكذا قال الحاكم ـ وهكذا جميع الطاعات ، لاتكون لغرض الدنيا. قال النفس الزكية عليه السلام:

---

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير .

(٢) [٦ / الأنعام / ٥١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٤] .

إذا دعا الإمام ثم وجد أفضل منه، وجب عليه أن يسلم الأمر له . فإن لم يفعل ذلك فسق ، لأنه إن لم يفعل دل على أنه طالب للدنيا .

٢ ـ ودلت على أن الغداة والعشيّ لهما اختصاص بفضل العمل والدعاء ، فلذلك خصهما بالذكر .

٣ ـ ودلت على أن الفضل بالأعمال. وما خرج من المفاضلة من غير أمر الدين، كالكفاءة فى النكاح ، فذلك لمخصص ، نحو قوله عليه السلام[1] : العرب بعضها أكفاء للبعض .

٤ ـ ودلت على أن أحدًا لا يؤخذ بذنب غيره ، وهى كقوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ[2] . وقد تقدم ما ذكر فيما ورد أن الميت ليعذَّب ببكاء أهله ، على أن المراد إذا أوصاهم بذلك .

٥ ـ ودلت على أن حديث النفس لا يؤاخذ به ، لأنه قد روى أنه ﷺ قد همّ بذلك .

٦ ـ ودلت على أن الفقر لا يؤثر فى حال المؤمن . وقد ورد فى الحديث[3] عنه ﷺ : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بكذا سنة . وروى أن آخر من يدخل الجنة

---

(١) أخرجه فى الجامع الصغير ، عن عائشة فى السنن للبيهقىّ . ونصه : العرب للعرب أكفاء . والموالى أكفاء للموالى ، إلا حائك أو حجّام .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٣٧ ـ باب ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، ونصه :

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، نصف يوم » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

من الصحابة عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله . وروى أن علياً عليه السلام لم يخلف شيئاً بعد وفاته ـ هكذا فى التهذيب ـ انتهى .

أقول : الحديث الأول ، رواه الترمذىّ عن أبى هريرة وقال : حسن صحيح ، ولفظه : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . وأما حديث : آخر من يدخل الجنة من الصحابة ... الخ فلم أجده بهذا اللفظ .

وقد روى البزار وأبو نعيم عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن بن عوف . والذى نفس محمد بيده ! لن يدخلها إلا حبواً . قال السيوطىّ : إسناده ضعيف ـ كذا فى (منتخب كنز العمال) فى ترجمة عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، فى (فضائل الصحابة) .

٧ ـ هذا ، وقال ابن الفرس : قد يؤخذ من هذه الآية أن لا يمنع من يذكّر الناس بالله وأمور الآخرة فى جامع أو طريق أو غيره . قال : وقد اختلف المتأخرون فى مؤذن يؤذن بالأسحار ، ويبتهل بالدعاء ، يردّد ذلك إلى الصباح ، وتأذى به الجيران ، هل يمنع ؟ واستدل (من قال : لا يمنع) بهذه الآية ، وبقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ[1] . . . الآية . انتهى .

٨ ـ قرأ ابن عامر « بالغُدْوَةِ » بالواو وضم الغين ، هنا وفى سورة الكهف ، والباقون بالألف وفتح الغين . وهى قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبى رجاء العطاردىّ وغيرهم .

قال أبو عبيد : قرأ ابن عامر وأبو عبدالرحمن السلمىّ (بالغدوة) ، وقرأ العامة (بالغداة) ونراهما قرآ ذلك اتباعاً للخط ، لأنها رسمت فى جميع المصاحف بالواو ، كالصلاة والزكاة ،

(١) [٢ / البقرة / ١١٤] ونصها : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا ، أُولَـٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

وليس ، فى إثباتهم الواو فى الكتابة ، دليل على أنها القراءة ، لأنهم قد كتبوا (الصلاة والزكاة) بالواو ، ولفظهما على تركها ، فكذلك (الغداة) ، على هذا وجدنا ألفاظ العرب . انتهى .

وقال أبو علىّ الفارسىّ : الوجه قراءة العامة (بالغداة) ، لأنها تستعمل نكرة ، فأمكن تعريفها بإدخال لام التعريف عليها . فأما (غدوة) فمعرفة ، وهو علم صيغ له ، وحينئذ فيمتنع دخول لام التعريف عليه ، كسائر المعارف ، وكتابتها بالواو لا تدل على قولهم . انتهى .

قال الشهاب مجيبًا ومناقشًا : إن (غدوة) وإن كان المعروف فيها أنها علم جنس ، ممنوع من الصرف ، ولا تدخله الألف واللام ، ولا تصح إضافته ، فلا تقول : غدوة يوم الخميس ـ كما قال الفرّاء ـ ولكنه سمع اسم جنس أيضاً ، منكّرًا مصروفاً ، فتدخله اللام ، وقد نقله سيبويه فى كتابه عن الخليل ، وذكره جم غفير من أهل اللغة والنحو ، فلا عبرة بقول أبى عبيد أن من قرأ بالواو أخطأ ، وأنه اتبع رسم الخط ، لأن الغداة تكتب بالواو ، كالصلاة والزكاة ، وهو علم جنس ، لا تدخله الألف واللام ، والمُخَطِّئُ مُخْطِئٌ ، لما مر . وقد ذكر المبرّد عن العرب تنكيره وصرفه ، وإدخال الألف واللام عليه ، إذا لم يرد غدوة يوم بعينه ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وكفى بوقوعه فى القراءة المتواترة حجة ، فلا حاجة إلى ما قيل : إنه علم ، لكنه نكّر ، لأن تنكير علم الجنس لم يعهد . ولا أنه معرفة ، ودخلته اللام لمشاكلة العشىّ . كما فى قوله : رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً ، إذ قال (اليزيد) لمجاورة الوليد . ومنه تعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة . انتهى .

٩ ـ فى القاموس : الغُدوة بالضم ، البكرة ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس كالغداة . والعشىّ والعشية : آخر النهار .

وفى الصحاح : من صلاة المغرب إلى العتمة .

وقال الأزهرىّ : يقع العشىّ على ما بين الزوال والغروب .

١٠ ـ جعل الزمخشرىّ (ذلك) إشارة إلى هذا الفتن المذكور ، حيث قال : ومثل ذلك

الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض ، أى: ابتليناهم بهم . وعبر عنه بذلك، إيذاناً بتفخيمه. كقولك : ضربت زيداً ذلك الضرب . ولا يلزم منه تشبيه الشيء بنفسه ، لأن المثل ليس بمراد ، إنما جيء به مبالغة ، كما يقال (ذلك كذلك) كذا قرره العلامة . يعنى: أن التشبيه كما يجعل كناية عن الاستمرار ، لأن ما له أمثال يستمر نوعه بتجدد أمثاله ، كما أشار إليه شراح الحماسة فى قوله :

هكذا يذهبُ الزمانُ ويَفْنَى الـ ... ـعلمُ فيه ويدرُسُ الأَثَرُ

والاستمرار يقتضى التحقق والتقرر ويستلزمه ، فجعل فى أمثال هذا بواسطة الإشارة إلى البعيد عبارة عن تحقق أمر عظيم . وكونه عظيما مستفاد من لفظ (ذلك) المشار به إلى هذا الفتن القريب المذكور، وليست الكاف فيه زائدة. ومن قال إنها مقحمة أراد أن التشبيه فيه غير مقصود فيه ، بل المراد لازمه الكنائىّ أو المجازىّ . والزمخشرىّ ، لما فى هذا الوجه من البلاغة والدقة ، اختاره فيما ورد فيه كذلك ـ كذا فى (العناية) ـ .

وقال أبو السعود : (ذلك) إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل ، ومحله فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف . والتقدير : فتنا بعضهم ببعض فتوناً كائناً مثل ذلك الفتون ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، فصار نفس المصدر المؤكد ، لا نعتاً له . والمعنى : ذلك الفتون الكاملَ فتناً .

قال الشهاب : هذا الإقحام للمبالغة، مطرد فى عُرْفِ العرب والعجم . انتهى .

وقيل : الكاف ليست بزائدة ، والمشار إليه هو المشبه به ، الأمر المقرر فى الذهن ، والمشبه مادل عليه الكلام من الأمر الخارجىّ ، والمبالغة إنما يفيدها الإبهام الذهنىّ والتفسير بقوله : (فَتَنّا) ، وهو ما يعلمه كل أحد من الفَتْن مَنْ هو ـ انظر (العناية) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله تعالى «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» : ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هؤلاء هم الذين سأل المشركون طردهم وإبعادهم، فأكرمهم الله تعالى بهذا الإكرام .

قال البيضاوىّ : وصفهم تعالى بالإيمان بالقرآن ، واتباع الحجج ، بعد ما وصفهم بالمواظبة على العبادة ، وأمره بأن يبدأهم بالتسليم ، أو يبلّغ سلام الله تعالى إليهم ، ويبشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله ، بعد النهى عن طردهم ، إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتى العلم والعمل. ومن كان كذلك ينبغى أن يقرّب ولا يطرد ، ويعزّ ولا يُذل ، ويُبشّر من الله بالسلامة فى الدنيا ، والرحمة فى الآخرة . انتهى .

وسلف عن ابن جرير(١) أنها نزلت فى عمر رضى الله عنه . وأخرج الفريابىّ وابن أبى حاتم عن ماهان، قال : جاء ناس إلى النبىّ ﷺ فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً ، فما ردّ عليهم شيئاً ، فأنزل الله : (وَإِذَا جَاءَكَ ...) الآية . ولا يخفى أن الآية تشمل جميع ذلك ، وربما تتعدد الوقائع المشتركة فى حكم واحد ، فتنزل الآية بياناً للكل . وتقدم لنا فى مقدمة هذا التفسير ، فى بحث سبب النزول ، أن قول السلف : نزلت فى كذا ، قد يقصدون به أن واقعته مما يشملها لفظ الآية ، لنزولها إثرها ، فتذكّرْهُ ، وأَجِلْ فكرك فى أطرافه ، فإنه مهم جداً. وبمعرفته يندفع إشكال الرازىّ الذى قرره هنا .

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير (انظر الحاشية رقم ١ ص٢٣٢٩) .

وقوله تعالى : (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أى : أوجبها على ذاته المقدسة ، تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا .

وقوله : (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ) الخ بدل من (الرَّحْمَةَ » . وقرىء بكسر الهمزة على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف .

وقوله : (بِجَهَالَةٍ) فى موضع الحال ، أى : عمله وهو جاهل ، وفيه معنيان :

أحدهما ـ أنه فاعل فعل الجهلة ، لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أوظانّ ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير ، ومنه[1] قول قول الشاعر :

على أنها قالت عشيةَ زرْتُها ... جهلتَ على عمدٍ ولم تَكُ جاهلا

والثانى ـ أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شىء حتى يعلم حاله وكيفيته ـ كذا فى الكشاف ـ .

---

(١) استشهد به الزمخشرىّ فى الكشاف وقال :

وفيه معنيان : أحدهما أنه فاعل فعل الجهلة . لأن من عمل مايؤدى إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظانّ ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير . ومنه قول الشاعر . أى : جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة . ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شىء حتى يعلم حاله وكيفيته .

وقال شارحه : ولا يشترى الحلم بالجهل ، ولا الأناة بالطيش ، ولا الرفق بالخرق ، كما قال :

فإن تزعمينى كنت أجهل فيكم ... فإنى شريت الحلمَ بعدكِ بالجهل

وإن لم يكن كذلك ، يصدق عليه أنه من أكبر الجهّال ، والحمار أفضل منه. انتهى.

فعلى الأول ، الجهل : بمعنى السفه والمخاطرة من غير نظر للعواقب ، كما فى قوله[1] :

* فَنَجْهلَ فَوْقَ جهلِ الجَاهِلِينا *

وكانت العرب تتمدح به ، فلا حاجة لتقدير مفعول .

وعلى الثانى ، المراد : الجهالة بمضارّ ما يفعله .

وقوله تعالى (وَأَصْلَحَ) أى : العمل . كقوله (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا)[2] .

وروى الإمام أحمد والشيخان[3] عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما قضى الله على الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى .

تنبيه :

نقل بعض المفسرين عن الحاكم أنه قال : دلت الآية على وجوب تعظيم المؤمنين .

---

(١) هذا البيت السادس والتسعون من معلقة عمرو بن كلثوم ، وهو آخرها . وصدره :

* ألا ، لا يجهلَنْ أحدٌ علينا *

قال التبريزىّ : معناه نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله .

فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ، ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية على مثل لفظة الأولى ، وهى تخالفها فى المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان وأخصر من اختلافهما .

ومطلع القصيدة :

ألا هُبِّى بصحنك فاصبَحينا ولا تُبْقِى خمور الأَنْدَرِينا

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] ونصها : إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنْ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّـئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٣) انظر الحاشية رقم (٢) بالصفحة ٢٢٥٥ وفيها سردنا جميع روايات هـذا الحديث ، كما جاءت فى كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخارىّ) .

ودلت على أنه ينبغي إنزال المسرة بالمؤمن ، لأنه أمر بأن يقول لهم (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) لتطييب قلوبهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى : آيات القرآن ، فى صفة المطيعين والمجرمين . ومرّ قريبًا الكلام على (كذلك) « وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ » بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل . وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره ، فإن (السبيل) مما يذكر ويؤنث ، وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور ، لم يقصد تعليله بها بعينها ، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر . أو علة لفعل مقدّر ، هو عبارة عن المذكور ، فيكون مستأنفاً . أى : ولتستبين سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل . وقرئ بنصب (السبيل) على أن الفعل متعد ، وتاؤه للخطاب . أى : ولتستوضح أنت ، يا محمد ! سبيل المجرمين ، فتعاملهم بما يليق بهم ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

« قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى : تعبدونه أو تسمونه آلهة . ثم كرر الأمر تأكيدًا لقطع أطماعهم بقوله تعالى « قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ » أى : فى عبادة الأصنام ، وطرد من ذكر .

ثم قال البيضاوىّ : هو إشارة إلى الموجب للنهى . وعلة الامتناع عن متابعتهم ، واستجهال لهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم ، وأن ما هم عليه هوًى ، وليس بهدى . وتنبيه لمن تحرّى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد . انتهى .

« قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا » أي : إن اتبعت أهواءكم ، لمخالفة الأمر الإلهيّ والعقل جميعاً .
« وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » أي : للحق إن اتبعت ما ذكر . وفيه تعريض بأنهم كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)

« قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي » أي : على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ ، لا يمكن التشكيك فيها « وَكَذَّبْتُمْ بِهِ » استئناف أو حال ، والضمير للبينة . والتذكير باعتبار المعنى المراد . أعني : الوحي، أو القرآن ، أو نحوهما . « مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ » أي : من العذاب .

قال أبو السعود : استئناف مبين لخطئهم في شأن ما جعلوه منشأً لتكذيبهم بالبينة ، وهو عدم مجيء ما وعد فيها من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بقولهم (مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[1]؟ بطريق الاستهزاء ، أو بطريق الإلزام ، على زعمهم . أي : ليس ماتستعجلونه من العذاب الموعود في القرآن ، وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه ، في حكمي وقدرتي ، حتى أجيء به ، وأظهر لكم صدقه . أو ليس أمره بمفوّض إليّ .

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أي: لو كان عندي لكنت أنا الحاكم ، لكن ما الحكم في ذلك تعجيلًا وتأخيرًا إلا لله، وَقَدْ حَكَمَ بتأخيره ، لما له من الحكمة العظيمة، لكنه محقق الوقوع لأنه « يَقُصُّ الْحَقَّ » أي : يبينه بياناً شافياً ، « وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ » أي : القاضين بين عباده .

---

(١) [١٠ / يونس / ٤٨] ونصها: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

لطيفة :

قرىء « يَقْضِ الحقَّ »[١] بالضاد ، وانتصاب الحق على المصدرية ، لأنه صفة مصدر محذوف قامت مقامه . أو على المفعولية ، بتضمين (يقضى) معنى (ينفذ) ، أو هو متعد من (قضى الدرع) إذا صنعها . قال الهذلى[٢] :

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... داودُ أوصَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ

(١) قال الإمام النسفىّ فى تفسيره (مدارك التنزيل) :

(يقص) حجازىّ وعاصم . أى : يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدّره . من (قص أثره) .

الباقون (يقض الحق) أى : القضاء الحق فى كل ما يقضى من التأخير والتعجيل . فالحق صفة لمصدر (يقض). وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين .

(٢) قائله أبو ذؤيب الهذلىّ من قصيدته التى مطلعها :

أمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تتوجَّعُ ... والدهر ليس بمُعْتِبٍ من يجزعُ

قالها وقد هلك له خمسة بنين فى عام واحد ، أصابهم الطاعون .

وفى رواية : وكان له سبعة بنين شربوا من لبن شربت منه حية ، ثم ماتت فيه ، فهلكوا فى يوم واحد .

الضمير فى (وعليهما) عائد إلى بطلين سبق وصفهما قبل هذا البيت .

(مسرودتان) أى : درعان مخروزتان أو منسوجتان . من (السرد) وهو الخرز . وقيل : النسج ، وهو تداخل الحلق بعضها فى بعض .

تبَّع من ملوك حمير كانت تنسب إليه الدروع التبّعية . وذكر الأصمعىّ مايفيد أن أباذؤيب قد غلط فى هذا ، فقال : إنه (أى أبا ذؤيب) سمع بالدروع التبّعية فظن أن تبعاً عملها . وكان تبع أعظم شأناً من أن يصنع شيئاً بيده . وإنما عملت بأمره وفى ملكه .

(قضاهما) أى : فرغ منهما داود النبىّ عليه السلام .

(الصنَع) الحاذق بالعمل ، والمرأة صنعاء .

قال الرازيّ : واحتج أبو عمرو على هذه القراءة بقوله : (وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) قال : والفصل يكون في القضاء ، لا في القصص . وأجاب أبو عليّ الفارسيّ فقال : القصص ههنا بمعنى القول ، وقد جاء الفصل في القول . قال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)[1] . وقال (أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)[2] ، وقال : (نُفَصِّلُ الْآيَاتِ)[3] . انتهى .

قال الشهاب : معنى (يقصه) أي يبيّنه بياناً شافياً ، وهو عين القضاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

« قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ » أي: لو أن في قدرتي وإمكاني العذاب الذي تتعجلونه ، بأن يكون أمره مفوضاً إليّ من قِبَلِهِ تعالى ، لقضي الأمر بيني وبينكم ، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم .

وفي (العناية) : قضي الأمر بمعنى قطع . وقضاؤه كناية عن إهلاكهم.

قال أبو السعود : وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل ، الذي هو الله تعالى، وتهويل الأمر ، ومراعاة حسن الأدب ـ مالا يخفى . فما قيل في تفسيره : لأهلكتكم

---

(١) [٨٦ / الطارق / ١٣] .

(٢) [١١ / هود / ١] ونصها : الٓر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٣٢] ونصها : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

عاجلا ، غضباً لربي ، وانتصاصاً من تكذيبكم به ، ولتخلصت سريعاً ـ بمعزل من توفية المقام حقه .

وقوله تعالى : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية، من انتفاء كون أمر العذاب مفوضاً إليه ﷺ ، المستتبع لانتفاء قضاء الأمر ، وتعليل له. والمعنى : والله تعالى أعلم بحال الظالمين ، وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج ، لتشديد العذاب ، ولذلك لم يفوض الأمر إليّ ، فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت في الصحيحين[1] عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ يارسول الله ! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال: لقدلقيت من قومك، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن[2] الثعالب ، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قدأظلتني. فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال فناداني ملك الجبال ، وسلّم عليّ ، ثم قال : يامحمد ! إنّ الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال . وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك . فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبيْن ! فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين في السماء ، فوافقت إحداهما الأخرى ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، الحديث رقم ١٥٢٥ .
وأخرجه مسلم في : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ١١١ (طبعتنا) .

(٢) قال ياقوت في (معجم البلدان) :
وقال القاضي عياض : قرن المنازل ، وهو قرن الثعالب ، ميقات أهل نجد ، تلقاء مكة على يوم وليلة .

وهذا لفظ مسلم : فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأناهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً .

فالجواب : ـ والله أعلم ـ أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه ، حال طلبهم له ، لأوقعه بهم . وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال ، أنه ، إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة ، يكتنفانها جنوباً وشمالا ، فلهذا استأنى بهم ، وسأل الرفق لهم . انتهى .

ثم بيّن تعالى اختصاص المقدورات الغيبية به ، من حيث العلم ، إثر بيان اختصاص جميعها به تعالى من حيث القدرة، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

« وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » جمع (مفتح بكسر الميم ، وهو المفتاح) وقرىء (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ) شبه بالأمور الجليلة التى يستوثق منها بالأقفال ، وأثبت لها المفاتح تخييلا .

وقوله تعالى : « لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » تأكيد لمضمون ما قبله ، وإيذان بأن المراد الاختصاص من حيث العلم . والمعنى : ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لى ، حتى ألزمكم بتعجيله ، ولا معلوماً لدىّ لأخبركم بوقت نزوله ، بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلماً ، فينزله حسبما تقتضيه مشيئته ، المبنية على الحكم والمصالح ـ أفاده أبو السعود ـ .

ثم لما بين تعالى تعلق علمه بالمغيبات ، تأثّرهُ بالمشاهدات، على اختلاف أنواعها، وتكثر أفرادها بقوله : « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » من الخلق والعجائب . ثم بالغ فى إحاطة علمه

بالجزئيات الفائتة للحصر بقوله سبحانه « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى : مكتوب ومحفوظ فى العلم الإلهىّ .

تنبيهـــــات

الأول ـ قال الحاكم : دلّ قوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب . انتهى .

وفى (فتح البيان) : فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليّين وغيرهم من مدّعى الكشف والإلهام ، ما ليس من شأنهم ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم . ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة ، والأنواع المخذولة ، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق ﷺ [1] : من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد .

قال ابن مسعود : أوتى نبيكم كل شئ إلا مفاتيح الغيب .

قال ابن عباس : إنها الأقدار والأرزاق .

وقال الضحاك : خزائن الأرض ، وعلم نزول العذاب .

وقال عطاء : هوماغاب عنكم من الثواب والعقاب .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) ونصه: عن أبى هريرة رضى الله عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها ، أو كاهنا فصدقه ، فقد برئ مما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام .

وأخرجه ابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٢ ـ باب النهى عن إتيان الحائض ، الحديث رقم ٦٣٩ (طبعتنا) .

وقيل : هو انقضاء الآجال ، وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم . واللفظ أوسع من ذلك .

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] : مفاتح الغيب خمس لا يعلمها

(١) لتعدد روايات هذا الحديث، ولاختلاف بعض ألفاظ فيها ، ترانا مضطرين إلى سرد جميعها عن كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخاري) والحديث رقم ٥٧٩ . وهو برقم ٧٢ من مسند عبد الله بن عمر . وهاكم نصوص رواياته :

١٥ ـ كتاب الاستسقاء ، ٢٩ ـ باب لا يدرى متى يجىء المطر إلا الله .

حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون في غد . ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام . ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا . وما تدرى نفس بأى أرض تموت . وما يدرى أحد متى يجىء المطر » .

٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام، ١ ـ باب وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.

حدثنا عبد العزيز بن عبدالله . حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتح الغيب خمس : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

٦٥ ـ كتاب التفسير، ١٣ ـ سورة الرعد، ١ ـ باب إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ.

حدثني إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن قال : حدثني مالك عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » . =

إلا الله تعالى . لا يعلم أحد ما يكون فى غد إلا الله . ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام إلا الله. ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يدرى أحد متى يجىء المطر ـ أخرجه البخارىّ ـ وله ألفاظ . وفى رواية : ولا يعلم أحــد متى تقوم الساعة إلا الله . انتهى .

الثانى ـ قرىء (ولا حبةٌ ولا رطبٌ ولا يابسٌ) بالرفع ، وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل (من ورقة) وأن يكون رفعاً على الابتداء ، وخبره (إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ) كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا فى الدار ـ كذا فى الكشاف ـ .

الثالث ـ ما أسلفناه فى (الكتاب المبين) من أنه (اللوح المحفوظ) هو المتبادر من إطلاقه أينما ورد . وقيل : الكتاب المبين علم الله تعالى. والأظهر الأول.

قال الزجاج : يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات فى كتاب من قبل أن يخلق الخلق ، كما قال عز وجل :(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)(١) وفائدة هذا الكتاب أمور :

= ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣١ ـ سورة لقمان ، ٢ ـ باب إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .

حدثنا يحيى بن سليمان قال: حدثنى ابن وهب قال: حدثنى عمر بن محمد بن زيد بن عبدالله ابن عمر ؛ أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال النبىّ ﷺ « مفاتيح الغيب خمس » ثم قرأ : إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .

٩٧ـ كتاب التوحيد ، ٤ـ باب قول الله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا.

حدثنا خالد بن مخلد . حدثنا سليمان بن بلال . حدثنى عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبىّ ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم ما فى غد إلا الله . ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] . . . إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ .

أحدها ـ أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال فى اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى فى المعلومات ، وأنه لا يغيب عنه مما فى السموات والأرض شىء ، فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ ، لأنهم يقابلون به ما يحدث فى صحيفة هذا العالم ، فيجدونه موافقاً له .

وثانيها ـ يجوز أن يقال : إنه تعالى ذكر ما ذكر ، من الورقة والحبة ، تنبيهاً للمكلفين على أمر الحساب ، وإعلاماً بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون فى الدنيا شىء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التى ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف ، فبأنْ لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى .

وثالثها ـ أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات ، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم ، وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات فى ذلك الكتاب على التفصيل التام ، امتنع أيضاً تغييرها ، وإلا لزم الكذب ، فتصير كِتْبَةُ جملة الأحوال فى ذلك الكتاب موجباً تامًّا ، وسبباً كاملًا فى أنه يمتنع تقدم ما تأخر ، وتأخر ما تقدم ، كما قال صلوات الله عليه(١) : جف القلب بما هو كائن إلى يوم القيامه . انتهى .

الرابع ـ روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ قال : مامن شجرة فى بر ولا بحر ، إلا ملك موكل بها ، يكتب ما يسقط منها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٩٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٦٨٥٤ م (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله خلق خلقه ، ثم جعلهم فى ظلمة ، ثم أخذ من نوره ماشاء ثم ألقاه عليهم ، فأصاب النور من شاء أن يصيبه ، وأخطأ من شاء . فمن أصابه النور يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأ يومئذ ضل . فلذلك قلت : جفّ القلم بما هو كائن » .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن الحرث قال : ما فى الأرض من شجرة ، ولا كمغرز إبرة ، إلا عليها ملك موكل يأتى الله بعلمها . يبسها إذا يبست ورطوبتها إذا رطبت . وكذا رواه ابن جرير [1] .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهى الدواة ، وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضى ، ما كان من خلق مخلوق ، أو رزقٍ حلالٍ أو حرام ، أو عمل بر أو فجور ، وقرأ هذه الآية : (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ...) إلى آخر الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ » أى : يُنِيمكم فيه . استعير (التوفى) من الموت للنوم ، لما بينهما من المشاركة فى زوال الإحساس والتمييز ، فإن أصله قبض الشىء بتمامه .

« وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ » أى فيه . وتخصيص الليل بالنوم ، والنهار بالكسب ، جرياً على المعتاد . « ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ » أى : يوقظكم . أطلق البعث ترشيحاً للتوفى « فِيهِ » أى : فى النهار ، « لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى » أى ليتم مقدار حياة كل أحد .

« ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أى : رجوعكم بالبعث بعد الموت ، « ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى : فى ليلكم ونهاركم ، بالمجازاة عليه ، مبالغة فى عدله .

تنبيهان :

الأول ـ ظاهر الخطاب فى الآية على العموم . وخصه فى (الكشاف) بالكفرة ، ذهاباً إلى أن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ) يدل على تهديد شديد ، لا يليق إلا

---

(١) الأثر رقم ١٣٣٠٨ من التفسير .

بالمعاندين الجاحدين ، وأن المقصود بيان حالهم المذمومة فى الليل . كما أن قوله : (مَا جَرَحْتُمْ) بيان حالهم المذمومة فى النهار . وحمل (البعث) لا على الإيقاظ ، بل على البعث من القبور . و (فيه) بمعنى (من أجله) كقولك : فيم دعوتنى ؟ فتقول : فى أمر كذا . والمعنى : أنكم ملقَوْن كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار. وأنه تعالى مطلع على أعمالكم ، يبعثكم من القبور فى شأن ماقطعتم به أعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار، ليقضى الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى ، وجزائهم على أعمالهم . والذى حمله على ذلك، زعمه أن قوله (وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) دالّ على حال اليقظة ، وكسبهم فيها . وكلمة (ثم) تقتضى تأخير البعث عنها .

قال شراحه : ولا يخفى مافيه من التكلف ، وأنه لا حاجة إليه ، لأن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) إشارة إلى ما كسب فى النهار السابق على ذلك الليل ، ولا دلالة فيه على الإيقاظ من هذا التوفى ، وأن الإيقاظ متأخر عن التوفى . وإن قولنا (يفعل ذلك التوفى لنقضى مدة الحياة المقدرة) كلام منتظم غاية الانتظام .

الثانى ـ قال الشريف المرتضى فى (الدرر والغرر) فيما وقع من القرآن من ذكر الرجوع إلى الله نحو (إِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) : كيف ترجع إليه ، وهى لم تخرج من يده ؟ وأجاب : بأنه فى دار التكليف قد يغيّر البعض ، فيضيف بعض أفعاله تعالى إلى غيره ، فإذا انكشف الغطاء ، انقطعت حبال الآمال عن غيره ، فيرجع إليه . أو أن المراد أن الأمور فى يده من غير خروج ورجوع حقيقىّ . فـ (رجع) بمعنى (صار) . تقول العرب : رجع علىّ من فلان مكروه ، بمعنى صار ، ولم يكن سبق . فهو بمعنى المصير إليه ، كما تشهد به اللغة . أو أنه فى دار الدنيا ما يكون للعباد ظاهراً كالعبد لسيده ، فإذا أفضى الأمر إلى الآخرة ، زال ذلك ، ورجع الأمر كله إلى الله ، ظاهراً وباطناً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » قد مرّ تفسيره ، وأنه المتصرف فى أمورهم لا غـيره ، يفعل بهم ما شاء .

« وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » أى : ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها ، وهم الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ[١] ، كقوله : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) وقوله : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ)[٢] الآية .

لطيفة :

الحكمة فى ذلك أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه ، وتعرض على رؤوس الأشهاد، كان أزجر عن المعاصى . وأن العبد إذا وثق بلطف سيده ، واعتمد على عفوه وستره ، لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه ـ أفاده القاضى ـ .

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى: أسبابه ومباديه « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا » أى : ملائكة موكلون بذلك ، « وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ » أى: بالتوانى والتأخير . وقال ابن كثير : أى: فى حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها ويتركونها حيث شاء الله عزوجل ، إن كان من الأبرار ففى علّيين ، وإن كان من الفجار فى سجّين .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : [٨٢ / الانفطار / ١٠و١١] وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ .

(٢) [٥٠ / قٓ / ١٧] ... عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

« ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » أى : الذى يتولى أمورهم . و(الْحَقِّ) : العدل الذى لا يحكم إلا بالحق . قال ابن كثير : الضمير للملائكة . أو للخلائق المدلول عليهم بـ(أحد). والإفراد أولًا ، والجمع آخرًا لوقوع التوفى على الانفراد ، والرد على الاجتماع . أى : ردوا بعد البعث ، فيحكم فيهم بعدله ، كما قال (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)(١). وقال : (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)(٢) إلى قوله (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ولهذا قال (مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ) .

« أَلَا لَهُ الْحُكْمُ » يومئذ لا حكم فيه لغيره ، « وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ » يحاسب الخلائق فى أسرع زمان .

فوائد :

الأولى ـ قال ابن كثير : ونذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام(٣) أحمد عن سعيد ابن يسار عن أبى هريرة رضى الله عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الميت تحضره

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٤٩ و ٥٠] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٤٧ ـ ٤٩] ونصها : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .

(٣) رواه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

obeikandi.com

الملائكة ، فإذا كان الرجلَ الصالحَ ، قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة ، كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال ذلك ، حتى تخرج . ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقولون ، مرحباً بالنفس الطيبة ، كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدة ، وأبشرى بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال لها ، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجلَ السوءَ ، قالوا : اخرجى أيتها النفس الخبيثة ، كانت فى الجسد الخبيث. اخرجى ذميمة ، وأبشرى بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . فلايزال حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان! فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت فى الجسد الخبيث . ارجعى ذميمة ، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر . فيجلس الرجل الصالح ، فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء ، فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول . قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث غريب .

الثانية ـ قال بعض أهل الكلام : إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تقبض عند النوم ، ثم ترد إليها إذا ذهب النوم . فأما الروح التى تحيا بها النفس ، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل . والمراد بالأرواح، المعانى والقوى التى تقوم بالحواس ، ويكون بها السمع والبصر ، والأخذ والمشى والشم . ومعنى (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) أى : يوقظكم ، ويرد إليكم أرواح الحواس ، فيستدل به على منكرى البعث ، لأنه بالنوم يُذهب أرواحَ هذه الحواس ، ثم يردها إليها . فكذا يحي الأنفس بعد موتها ـ نقله النسفىّ ـ .

الثالثة ـ قال الخازن: فإن قلت: قال الله تعالى فى آية: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)[١]

(١) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وقال فى آية أخرى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ)(١) ، وقال هنا : (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) ، فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟ .

قلت : وجه الجمع أن المتوفى فى الحقيقة هو الله تعالى . فإذا حضر أجل العبد ، أمر الله ملك الموت بقبض روحه ، والملك الموت أعوان من الملائكة ، يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده . فإذا وصلت إلى الحلقوم ، تولى قبضها ملك الموت نفسه ، فحصل الجمع .

قال مجاهد : جعلت الأرض لملك الموت، مثل الطشت، يتناول من حيث شاء . وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم . انتهى .

ثم أمر تعالى أن يبكّت المشركون بانحطاط شركائهم عما زعموا لها ، بأنهم يخصون الحق تعالى بالالتجاء إليه عند الشدائد بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ » أى : شدائده ، كخوف العدوّ ، وضلال الطريق ، « وَالْبَحْرِ » كخوف الغرق ، والضلال ، وسكون الريح . استعيرت الظلمة للشدة ، لمشاركتهما فى الهول ، وإبطال الأبصار ، ودهش العقول . يقال لليوم الشديد : يوم مظلم ، ويوم ذو كواكب . أى : اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، وظهرت الكواكب فيه .

« تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا » أى : تذللا إليه ، تحقيقاً للعبودية ، « وَخُفْيَةً » بضم الخاء ،

---

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] . . . ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

وقرئ بكسرها . أي : سرًّا ، تحقيقاً للإخلاص . « لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا » حال من الفاعل بتقدير القول . أي : قائلين ، وعداً بالشكر ، لئن أنجيتنا « مِنْ هَٰذِهِ » أي : الشدة المعبر عنها بالظلمات ، « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أي : لك ، باعتقاد أنك المخصوص بالثناء الجميل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

ثم أمره تعالى بالجواب تنبيها على ظهوره وتعينه عندهم ، أو إهانة لهم إذ لا يلتفتون لخطابه بقوله : « قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ » أي : من غير شفاعة أحد ولا عون ، « ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ » أي : ثم أنتم بعد ما تشاهدون من النجاة عنها ، الموعود فيها بالشكر وعدا وثيقاً بالقسم ، تشركون ، بعبادته والثناء عليه ، غيره . وتنسبون النجاة الحاصلة بعد تخصيصه بالدعوة ، إلى شفاعة الشريك ، فقد جعلتم الشرك مكان الشكر .

تنبيهات

الأول ـ ماقدمناه من أن ظلمات (الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) مجاز عن مخاوفها وأهوالها ، هو ماقاله المحققون .

قال الرازيّ : ومنهم من حمله على حقيقته فقال: أما ظلمات البحر، فهي أن تجتمع ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة السحاب ، ويضاف الرياح الصعبة ، والأمواج الهائلة إليها ، فلم يعرفوا كيفية الخلاص ، وعَظُمَ الخوفُ . وأما ظلمات البر ، فهي ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، والخوف الشديد من هجوم الأعداء والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب . والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد ، لا يرجع

الإنسان إلا إلى الله تعالى . وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطنا ، لأن الإنسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله تعالى ، وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى . وهو المراد من قوله (تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) . فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة ، والخلقة الأصلية فى هذه الحالة ، بأنه لا ملجأ إلا الله ، ولا تعويل إلا على فضل الله ، وجب أن يبقى هـذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات . ولـكنه ليس كذلك ، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة ، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب ، ويقدم على الشرك . ومن المفسرين من يقول : المقصود من هذه الآية الطعن فى إلهية الأصنام والأوثان .

ثم قال الرازى رحمه الله ، وأنا أقول : التعلق بشىء ممـا سوى الله فى طريق العبودية ، يقرب من أن يكون تعلقاً بالوثن ، ولذلك فإن أهــل التحقيق يسمونه بالشرك الخفى . انتهى .

الثانى ـ قال بعض المفسرين : دل قوله تعالى : (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) على أن دعاء السر أفضل . قيل : وكان جهر النبى ﷺ بالدعاء ليعلّم غيره . انتهى .

وهذا بناء على أن قوله تعالى : (تَضَرُّعاً) تذللا ، لا جهرا . وكثير من المفسرين ذهب إلى أن المعنى جهرا وسرا ، ولعــله الصواب . فإن العيان يؤيده ، إذ لا يتمالك من اشتد عليه الأمر ، وأظلم عليه طريق الخلاص ، على الاقتصار على دعاء السر وحده ـ والله أعــلم ـ .

وفى القاموس وشرحه : تضرع إلى الله تعالى ، أى : ابتهل وتذلل . وقيل : أظهر الضراعة ، وهى شدة الفقر والحاجة إلى الله تعالى . ومنه قوله تعالى : (تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) أى : مظهرين الضراعة ، وحقيقة الخشوع . انتهى .

الثالث ـ المراد بالـكرب ما يعم ماتقدم، ولا محذور فى التعميم بعد التخصيص، لـكثرة وروده . أو ما يعترى المرء من العوارض النفسية التى لا تتناهى ، كالأمراض والأسقام ،

وماقيل : إن المراد بالأول كرب مخصوص ، أو الأولى نعمة رفع ، وهذه نعمة دفع ، وأنه من قبيل (متقلداً سيفاً ورمحاً) ـ تكلف لا داعى له ـ كذا فى (العناية) ـ .

الرابع ـ وضع (تشركون) ، موضع (لا تشكرون) الذى هو مقتضى الظاهر المناسب لقوله : (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) لأن إشراكهم تضمن عدم صحة عبادتهم ، وشكرهم لأنه عبادة ، بل نفيها لعدم الاعتداد بها معه . إذ التوحيد ملاك الأمر ، وأساس العبادة ، فوضعه موضعه توبيخاً لهم، لعدم الوفاء بالعهد. ولم يذكر متعلقه لتنزيله منزلة اللازم ، تنبيها على استبعاد الشرك فى نفسه ـ كذا فى (العناية) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

« قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ » قال المهايمىّ : أى: قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر: إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد ، لكن لا وجه للأمان منها، لاستمرار منشأ الخوف ،وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها. إذ هو القادر على إرسال عذاب أعظم من تلك الشدة من فوقكم ، كإمطار النار أو الحجارة، أو إسقاط السماء .

« أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » كالخسف والطوفان ، « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا » أى : يخلطكم فرقاً خلط اضطراب ، فيجعلكم متحزبين مختلفين فى القتال ، بأن يقوّى أعداءكم « وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ » أى: شدة « بَعْضٍ » يعنى : يسلط بعضكم على بعض بالقتل والتعذيب .

« انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ » أى : نحوّلها من نوع إلى آخر . «لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» أى : يفهمون ويعتبرون ، فيكفوا عن كفرهم وعنادهم .

تنبيهان :

الأول ـ روى البخاري[1] عن جابر رضى الله عنه قال . لما نزلت هذه الآية (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك! (أَوْمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك! (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قال : هذا أهون ، أو هذا أيسر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد روى ابن مردويه من حديث ابن عباس مايفسر به حديث جابر ، ولفظه: عن النبيّ ﷺ قال : دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعاً ، فرفع عنهم ثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين . دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض، وأن لايلبسهم شيعاً ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ؛ فرفع الله عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الأخريين. فيستفاد من هذه الرواية المراد بقوله (مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) ، ويستأنس له أيضاً بقوله تعالى : (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ)[2] .

وروى الإمام[3] مسلم عن سعد بن أبى وقاص أنه أقبل مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية، حتى إذا مرّ بمسجد بنى معاوية، دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلًا ، ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربى ثلاثاً ، فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة . سألت

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٢ ـ باب قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ... الآية . الحديث رقم ٢٠٠٢

(٢) [١٧ / الإسراء / ٦٨] ... حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

ربى أن لا يهلك أمتى بالسَّنة ، فأعطانيها . وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق ، فأعطانيها . وسألت ربى أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها .

وروى الإمام أحمد[١] من حديث أبى بصرة نحوه ، لكن قال (بدل خصلة الإهلاك)، أن لا يجمعهم على ضلالة[٢] . وكذا الطبرىّ من مرسل الحسن .

قال الخفاجىّ : فإن قلت : كيف أجيبت الدعويان ، وسيكون خسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ؟ أى : كما رواه الترمذىّ[٣] وغيره ؟

قلت : الممنوع خسف مستأصل لهم . وأما عدم إجابته فى بأسهم ، فبذنوب منهم ، ولأنهم بعد تبليغه ﷺ لهم ، ونصيحته لهم ، لم يعملوا بقوله. انتهى .

وقد روى أحمد والترمذىّ[٤] من حديث سعد بن أبى وقاص قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ »... » الخ ، فقال : أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعدُ. قال الحافظ ابن حجر : وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر، بأن المراد بتأويلها

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) الأثر رقم ١٣٣٧٥ من التفسير .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب ماجاء فى الخسف ونصه : عن حذيفة بن أسيد قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر الساعة . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج والدابة وثلاثة خسوف . خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب . ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس (أو تحشر الناس) فتبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٣ ـ حدثنا الحسن بن عرفة .

ما يتعلق بالفتن ونحوها . انتهى . أى : مما ستصدق عليها الآية ، ولما تقع بالمسلمين . فقوله: إنها كائنة ، أى : فى المسلمين ، لا أنها خطاب لهم ، ونزولها فيهم ـ كما وهم ـ إذ يدفعه السياق والسباق ، وتتمة الآية ـ كما لا يخفى ـ وسنزيده بياناً .

الثانى ـ ماروى عن ابن عباس من أنه كان يقول فى قوله تعالى : (عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) يعنى أئمة السوء (وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) يعنى : خدم السوء . رواه ابن جرير[1] وابن أبى حاتم . فإن صح عنه، فمراده أن لفظ الآية مما يصدق على ذلك. لأن العذاب كل مامرّ (من المرارة) على النفس، وشق عليها ، لا أن ذلك هو المراد من الآية ، لنبوّه عن مقام التهويل ، فى شديد الوعيد، ولخفاء الكناية عن ذلك من جوهر اللفظ ، ولعدم موافقته لنظائر الآية فى هذا الباب ـ كما لا يخفى ـ .

والظاهر أن السلف كانوا يتلون بعض الآيات فى بعض المقامات، إشعاراً بأن معناها يحاكى تلك الواقعات ، لا أنها نزلت فى تلك القضيات . ومن ذلك قول أبىّ بن كعب ، قال فى هذه الآية : هن أربع خلال ، كلهن واقع ، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين (أَلْبَسُوا شِيَعاً) و (ذَاقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) ، وبقيت اثنتان لابد منهما الرجم والخسف ـ رواه[2] أحمد وغيره ـ وقد أعلّ هذا الأثر بأن أبيًّا لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية ، وكأن التقييد بذلك من كلام أبى العالية، روايه عنه . وبالجملة، فاستشهاد السلف بالآيات فى بعض الشؤون، للإشعار المذكور ـ مما لا ينكر ، فافهم ذلك، فإنه ينفعك فى مواطن كثيرة .

---

(١) الأثر رقم ١٣٣٤٩ من التفسير .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

وقوله تعالى « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ » أى بالقرآن المجيد « وَهُوَ الْحَقُّ » أى الكتاب الصادق فى كل ما نطق به . « قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى : لم يفوض إلىّ أمركم فأمنعكم من التكذيب ، وأجبركم على التصديق . إنما أنا منذر ، وقد بلغت . وبعضهم أرجع الضمير فى (بِهِ) للعذاب . أى : كذب بالعذاب الموعود ، قومُك المعاندون ، وهو الواقع لا محالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » أى : لكل خبر عظيم وقت استقرار ، لصدقه أو كذبه . « وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : مستقر هذا النبأ ومآله ، وأن العاقبة له ، كما قال تعالى (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ » أى : بالطعن والاستهزاء ، « فِي ءَايَاتِنَا » أى : المنسوبة إلى مقام عظمتنا ، التى حقها أن تعظم بما يناسب عظمتنا . والموصول كناية عن مشركى مكة ، فقد كان ديدنهم ذلك ، « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى فلا تجالسهم ، وقم عنهم ، « حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر ، غير ما كانوا فيه من الخوض فى آياتنا .

« وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ » بأن يشغلك فتنسى النهى عن مجالستهم ، « فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى : إن ينسينّك الشيطان ، فجلست معهم ، فلا تؤاخذ به ، لكن إذا ذكرت النهى ، فلا تقعد معهم ، لأنهم ظالمون بالطعن فى الكلام المعجز ، عنادًا .

وفى الحديث(١) : إن اللهوضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه ـ رواه الطبرانىّ عن ثوبان مرفوعاً. وإسناده صحيح ـ وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ...) الآية ، لأن فى حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه، مشاركة لصاحبه .

فوائد :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه فى حال نسيانه . ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة فى العبادات والتعليقات. انتهى

وقال الرازىّ : ومن الحشوية من استدل بهذه الآية فى النهى عن الاستدلال والمناظرة فى ذات الله تعالى وصفاته . قال : لأن ذلك خوض فى آيات الله ، والخوض فى آيات الله حرام بدليل هذه الآية .

والجواب عنه : أن المراد من الخوض فى الآية ، الشروع فى الطعن والاستهزاء . فسقط هذا الاستدلال ـ والله أعلم ـ .

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١١ ـ كتاب الطلاق، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسى، حديث رقم ٢٠٤٥ (طبعتنا) عن ابن عباس .

(٢) [٤/ النساء/ ١٤٠] ... إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً .

وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أحكام :

الأول ـ وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله أو بحججه أو برسله ، وأن لا يقعد معهم ، لأن في القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عامّ لنا ، ولرسول الله ﷺ . وإنما يجب الإعراض ، وترك الجلوس معهم ، إذا لم يطمع في قبولهم ، فإذا انقطع طمعه إذًا ، فلا فائدة في دعائهم . ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سبباً في ترك الخوض ، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف ، إذا كان وقوفه يوهم عدم الكراهة .

الحكم الثاني ـ جواز مجالسة الكفار ، مع عدم الخوض ، لأنه إنما أمرنا بالإعراض مع الخوض . وأيضاً فقد قال تعالى : (حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) . قال الحاكم : والآية تدل أيضاً على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة ، إذا أظهروا المنكرات . وتدل على إباحة الدخول عليهم لغرض ، كما يباح للتذكير . وفي الآية أيضاً دلالة على وجوب الإنكار ، لأن الإعراض إنكار . قال : وتدل على أن التقية من الأنبياء والأئمة بإظهارهم المنكر لا تجوز ، خلاف الإمامية ، وتدل على جواز النسيان على الأنبياء .

الحكم الثالث ـ أن الناسي مرفوع عنه الحرَج . فإن قيل : النسيان فعل الله ، فلِمَ أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب : بأن السبب من الشيطان ، وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر . فأضيف إليك لذلك . كما أن من ألقى غيره في النار فمات ، يقال : إنه القاتل ، وإن كان الإحراق فعل الله . واختلف في النسيان ما هو ؟ فقال الحاكم : هو معنى يحدثه الله في القلب . وقال أبو هاشم وأصحابه : ليس بمعنى ، وإنما هو زوال العلم الضروريّ الذي جرت العادة بحصوله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَـٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » أى: ومايلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء عما يحاسبون عليه من خوضهم ، « وَلَـٰكِنْ ذِكْرَىٰ » أى: ولكن أمروا بالإعراض عنهم ، ليكون ذكرى لضعفاء المسلمين ، لئلا يقع شيء من مطاعن المستهزئين فى قلوبهم. « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى : يبلغ مبلغ التوقى من شبهاتهم ، بالجلوس مع علمائه بدلهم .

تنبيهان

الأول ـ ماذكرناه فى معنى الآية ، هو ماقرره المهايمىّ رحمه الله تعالى . وقيل : المعنى : ولكن على المتقين أن يذكروهم ذكرى إذا سمعوهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ، لعلهم يتقون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم ، فلايعودون إليه . وجوزوا أن يكون الضمير (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) ، أى : يذكرونهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم ، أو يزدادوها . انتهى .

وما ذكرناه أسدّ وأوجه .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير، قال فى الآية : أى ما عليك أن يخوضوا فى آيات الله إذا فعلت ذلك . أى : إذا تجنبتهم ، وأعرضت عنهم . وعليه فالموصول كناية عن النبىّ ﷺ . التفت به تعظيما وتكريماً .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : قد يستدل بقوله تعالى : (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ ...) الخ على أن من جالس أهل المنكر ، وهو غير راض بفعلهم ، فلا إثم عليه . لكن آية النساء تدل على أنه آثم ، مالم يفارقهم ، لأنه قال : (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ)[1] أى:

(١) [٤/ النساء/ ١٤٠] ونصها: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ =

إن قعدتم فأنتم مثلهم فى الإثم، وهى متأخرة . فيحتمل أن تكون ناسخة لهذه ، كما ذهب إليه قوم منهم السدّىّ . اﻫ .

أقول : المنفىّ فى الآية هو لحوق شيء من وبال الخائضين ، وإثم كفرهم لمجالسيهم المتقين، فلا ينافى ذلك لحوق وبال المجالسة على انفرادها ، وهو ما أفادته آية النساء . فالمثلية إذن فى مطلق الإثم ، وإن تباين (ماصدقه) فيهما ، إذ لاقائل بأن مطلق مجالستهم ردة وكفر. نعم ! لو قيل بأن المثلية محمولة على ما إذا حصل الرضا بشأن مجالستهم ، فلا إشكال إذن . وبالجملة فاستدلال (الإكليل) واهٍ ، ولذا عبر بـ (قد) ، ودعوى النسخ أوهى . فتأمل !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

« وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ » أى : الذى كلفوه ودعوا إليه ، وهو دين الإسلام ، « لَعِبًا وَلَهْوًا » حيث سخروا به واستهزؤوا «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» حيث اطمأنوا بها ، وزعموا أن لا حياة بعدها أبدًا ، وأن السعادة فى لذاتها . أى : أعرض عنهم ، ودعهم ، ولا تبال بتكذيبهم، وأمهلهم قليلًا ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم . « وَذَكِّرْ بِهِ » أى: ذكر الناس بهذا القرآن « أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مخافة أن تسلم إلى الهلاك ، وترتهن بسوء كسبها ، وغرورها بإنكار الآخرة . يقال : أبسله لكذا : عرضه ورهنه ،

= ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

أو أسلمه للهلكة . « لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ » ينصرها بالقوة « وَلَا شَفِيعٌ » يدفع عنها بالمسألة .

« وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا » أى : وإن تفد كل نوع من أنواع الفداء ، بما يقابل العذاب ، لا يقبل منها ، لبعدهم عن مقام الفداء . والعدل : الفدية ، لأن الفادى يعدل المفدى بمثله .

« أُولَـٰئِكَ » إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً « الَّذِينَ أُبْسِلُوا » أى : سلموا للهلاك ، بحيث لا يعارضه شيء ، « بِمَا كَسَبُوا » بهذا الاغترار من إنكار الآخرة معها ، والانهماك فى الشهوات المحرمة ، « لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ » أى : ماء مغلىّ يتجرجر فى بطونهم ، وتتقطع به أمعاؤهم ، « وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : بنار تشتعل بأبدانهم، « بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى : بسبب كفرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا » أى : أنعبد من دونه ما لا يقدر على نفعنا ، إن دعوناه ، ولا ضرنا إن تركناه ، «وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا» عطف على (ندعو)، داخل فى حكم الإنكار والنفى . أى : ونرد إلى الشرك . والتعبير عنه بالرد على الأعقاب ـ لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو عَلَمٌ فى القبح ، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر ـ أفاده أبو السعود ـ .

(بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ » أى : للإسلام والتوحيد ، وأنقذنا من عبادة الأصنام ، فنصير

كالمستمر على الضلال ، بل « كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ » أى : استمالته عن الطريق الواضح مردة الجن ، « فِى الأَرْضِ » القفر المهلكة ، « حَيْرَانَ » أى : تائها ضالّا عن الجادّة ، لا يدرى كيف يصنع ، « لَهُ » أى : لهـذا المستهوَى « أَصْحَابٌ » أى : رفقة « يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى » أى : إلى الطريق المستقيم ، « ائْتِنَا » على إرادة القول ، أى : يقولون ائتنا . أى : وهو قد اعتسف المهمه ، تابعاً للشياطين ، لا يجيبهم ولا يأتيهم . فشبه حال من خلص من الشرك ، ثم عاد له ، بحال من ذهبت به المردة فى مهمه بعد ما كان على الجادة ، ولا يدرى مقصده الذى هو سائر إليه ، مع وجود رفقة تناديه لتهديه ، وهو لا يسمع لهم .

«قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ » أى : الذى أرسل به رسله ، « هُوَ الْهُدَى » أى : وما وراءه ضلال وغىّ ، « وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ » أى : فى مخالفة أمره . (وأن أقيموا) عطف على (لنسلم) . ومعناه : أن نسلم . فاللام فيه رديفة (أن) ، أو عطف عليه ؛ واللام تعليلية ، أى : للإسلام ، ولإقامة الصـلاة . وفى ورود (أقيموا الصلاة) محكيا بصيغته ، وورود (نسلم) محكيا بمعناه ، احتمال أن يكون ﷺ حـكى قول الله بمعناه ، دون لفظه . انظر (الانتصاف) .

تنبيه :

فى تخصيص الصلاة بالذكر من بـين أنواع الشرائع ، وعطفها على الأمر بالإسلام ، وقرنها بالأمر بالتقوى ـ دليل على تفخيم أمرها ، وعظم شأنها ـ ذكره بعض الزيدية ـ.

« وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة ، كقوله : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)[١] .

وقوله تعالى : « وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ » بيان لقدرته تعالى على حشرهم ، بكون مراده لا يتخلف عن أمره ، وأن قوله وأمره هو النافذ والواقع . والمراد بـ (القول) كلمة (كن) تحقيقا أو تمثيلا . فـ (قوله الحق) مبتدأ وخبر . و (يوم) ظرف لمضمون هذه الجملة . كقوله تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[٢] وكأن قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ) الخ عقب قوله : (وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) سيق للاحتجاج على قدرته تعالى على البعث ، ردًّا على منكرى ذلك من المشركين ، الذين السياق فيهم . وماأشبه الآية بقوله تعالى: (أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ...)[٣] الآية .

ولا يخفى أن باستحضار النظائر القرآنية ، تنجلى الحقائق . وقد توسع المفسرون هنا فى إعراب هذه الجملة ، بسرد وجوهٍ ضاع الظاهر بينها ـ وقد علمته ، فاحرص عليه ـ .

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] ... ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٣) [٣٦ / يس / ٨١و٨٢] .

« وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » أى: فلابد أن يفعل بالمطيع والعاصى فعل الملوك، لمن يطيعهم أو يعصيهم . فـ (يوم) ظرف لقوله (وَلَهُ الْمُلْكُ) ـ قاله أبو السعود ـ وتقييد اختصاص الملك به تعالى، بذلك اليوم، مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات ، لغاية ظهور ذلك، بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا ، المصححة للمالكية المجازية فى الجملة ، كقوله تعالى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[١] . وقوله : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ)[٢] .

وقد زعم بعضهم أن المراد بـ (الصور) هنا جمع صورة ، أى : يوم ينفخ فيها ، فتحيي. قال ابن كثير : والصحيح أن المراد بـ (الصور) القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وهكذا قال ابن جرير[٣] : الصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال[٤]: إن إسرافيل قد التقم الصور ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ .

وروى الإمام أحمد[٥] عن عبد الله بن عمرو قال: إن أعرابيا سأل النبىّ ﷺ عن الصور؟

---

(١) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٦] . . . وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا .

(٣) تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ٤٦٣ من الجزء الحادى عشر (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبىّ ﷺ كان يقول « كيف أنعم ؟ وصاحب الصور قد التقم الصور ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر متى يؤمر » .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٢ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٨٠٥ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٢١ ـ باب فى ذكر البعث والصور ، =

فقال: قرن ينفخ فيه . ورواه أبو داود والترمذيّ والحاكم، عنه أيضاً .

« عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أي هو عالمهما، « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » ذو الحكمة في سائر أفعاله . والعلم بالأمور الجليّة والخفية .

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكر لمن اتخذ دينه هزوا ولعبا إنكار إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ الذي يزعمون أنهم على دينه ، ويفتخرون به ـ على أبيه في شركه بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ، إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا » أي : صوراً مصنوعة ، « ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أي : باعتقاد إلهيتها ، أو اتصافها بصفاته ، أو استحقاقها للعبادة ، لأن الإلهية بوجوب الوجود بالذات . وهي ممكنة مصنوعة وأنى لها الاتصاف بصفاته ، وهي عاجزة عن النفع والضر ، خالية عن الحياة والسمع والبصر ، والعبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها من لا يخلو عن هذه الوجوه من الذلة ، وإنما يستحقها من كان في غاية العلوّ ـ أفاده المهايميّ ـ .

تنبيهات :

الأول ـ قرئ « آزَرَ » بالنصب ، عطف بيان ، لقوله : (لأبيه) وبالضم على النداء .

الثاني ـ الآية حجة على الشيعة في زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرا ، وأن آزر عم إبراهيم ، لا أبوه ، على مابسطه الرازيّ هنا ، وذلك لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة، ومثله لا يجزم به من غير نقل .

= حديث ٢٤٧٤٢. أما الترمذيّ فلم يروه . إنما روى الحديث السابق عن أبي سعيد الخدريّ في: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٩ ـ سورة الزمر ، ٨ ـ حدثنا ابن أبي عمر .

الثالث ـ قال بعض مفسرى الزيدية : فى الآية دلالة على بطلان قول الإمامية : إن الإمام لا يجوز أن يكون إبوه كافرا . لأنه إذا جاز نبيّ ، أبوه وزوجته كافران ، فالامام أولى .

اشتمل كلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ذكر الحجة العقلية إجمالا على فساد قول عبدة الأصنام ، بإنكاره اتخاذها آلهة ، وهى ما هى فى عجزها . وقد جاءت مفصلة فى سورة مريم فى قوله تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ...) الآيات[١] .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيح[٢] عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة . فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارب! إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى: إنى حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال : ياإبراهيم ! انظر ما تحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فليقى فى النار .

الرابع ـ قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة فى الدين، لا سيما للأقارب ، فإن من كان أقرب ، فهو أهمّ . ولهذا قال تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [١٩ / مريم / ٤١ـ٤٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٦ .

الْأَقْرَبِينَ)[١] ، وقال تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)[٢] . وقال ﷺ[٣] : ابدأ بنفسك ثم بمن تعول . ولهذا بدأ ﷺ بعليّ وخديجة وزيد ، وكانوا معه فى الدار ، فآمنوا وسبقوا ، ثم بسائر قريش ، ثم بالعرب، ثم بالموالى . وبدأ إبراهيم بأبيه ، ثم بقومه . وتدل هذه الآية على أن النصيحة فى الدين والذم والتوبيخ لأجله، ليس من العقوق ، كالهجرة ـ هكذا فى التهذيب. انتهى .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] .

(٢) [٦٦ / التحريم / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٣) هذا الحديث (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) ملفّق من حديثين :

الأول (ابدأ بنفسك ثم تصدق عليها) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤١ (طبعتنا) ونصه :

عن جابر قال : أعتق رجل من بنى عذرة عبدًا له عن دُبُر . فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال « ألك مال غيره » ؟ فقال : لا . فقال « من يشتريه منى » ؟ فاشتراه نُعَيم بن عبد الله العَدَوىّ بثمانمائة درهم . فجاء بها رسولَ الله ﷺ . فدفعها إليه ، ثم قال « ابدأ بنفسك فتصدق عليها . فإن فضل شيء فلأهلك . فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرابتك . فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا » .

يقول : فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك .

والحديث الثانى (ابدأ بمن تعول) وأخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١٨ ـ باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى ، حديث ٧٦٣ ونصه :

عن حكيم بن حزام رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول. وخير الصدقة عن ظهر غنى. ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى: نطلعه على حقائقهما، ونبصره فى دلالتهما على شؤونه عز وجل ، من حيث إنهما بما فيهما ، مربوبان ومملوكان ، له تعالى . و(الملكوت) مصدر على زنة المبالغة ، كالرّهبوت والجبروت ، ومعناه : الملك العظيم، والسلطان القاهر. وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما. وقد أسلفنا الكلام فى (وكذلك) قريباً عند قوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا)[1] وأن مختار الزمخشرىّ كونه إشارة إلى مصدر ما بعده ، والكاف مقحمة ، والتقدير : تلك الإراءة والتبصير البديع، نريه ونبصره. فجدّد به عهدًا .

« وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » عطف على علة محذوفة لم تقصد بعينها ، إشعارًا بأن لتلك الإراءة فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر .

قال المهايمىّ فى الآية : (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) ليعلم أن شيئًا من روحانيات الأفلاك والكواكب والمشايخ والشياطين لا يصلح للإلهية، (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) بالتوحيد بالاستدلال بالأدلة الكثيرة . وقيل : (وَلِيَكُونَ) علة لمقدر هو عبارة عن المذكور . أى : وليكون من الموقنين بالتوحيد ، فعلنا مافعلنا من الإراءة والتبصير بآيات السموات والأرض .

لطائف

الأولى ـ قال الرازىّ : وههنا دقيقة عقلية ، وهى أن نور جلال الله تعالى لائح غير

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .

منقطع ولا زائل البتة ، والأرواح البشرية ، لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى . فإذا كان الأمر كذلك ، فبقدر ما يزول ذلك الحجاب ، يحصل هذا التجلّى . فقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً) إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى ، لأن كل ماسوى الله فهو حجاب عن الله تعالى ، فلما زال ذلك الحجاب، لا جرم تجلّى له ملكوت السموات بالتمام . فقوله : (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ) معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نورُ تجلى جلال الله تعالى ، فكان قوله (وَكَذَٰلِكَ) منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية.

الثانية ـ قال الرازىّ : اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل. ولهذا المعنى لا يوصف علم الله تعالى بكونه يقيناً، لأن علمه غير مسبوق بالشبهة، وغير مستفاد من الفكر والتأمل . واعلم أن الإنسان فى أول ما يستدل به ، فإنه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه ، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت ، صارت سببًا لحصول اليقين . وذلك لوجوه :

الأول ـ أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثر وقوة ، فلا تزال القوة تتزايد حتى تنتهى إلى الجزم .

الثانى ـ أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكة . فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد، جارٍ مجرى تكرار الدرس الواحد . فكما أن كثرة التكرار تفيد الحفظ المتأكد الذى لا يزول عن القلب ، فكذا ههنا .

الثالث ـ أن القلب عند الاستدلال كان مظلماً جدًّا ، فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الأول، امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة فى القلب ، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة ، فإذا حصل الاستدلال الثانى امتزج نوره بالحالة الأولى ، فيصير الإشراق واللمعان أتم . وكما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر

نورها فى أول الأمر ، وهو الصبح ، فكذلك الاستدلال الأول يكون كالصبح . ثم ، كما أن الصبح لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس، فإذا وصلت إلى سمت الرأس حصل النور التام ، فكذلك العبد كلما كان تدبره فى مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر ، كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى . إلا أن الفرق بين شمس العلم ، وشمس العالَم ، أن شمس العالم الجسمانىّ لها فى الارتقاء والتصاعد حدّ معين ، لا يمكن أن يزاد عليه فى الصعود . وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد ، فلا نهاية لتصاعدها، ولا غاية لازديادها . فقوله (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) إشارة إلى مراتب الدلائل والبينات . وقوله (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) إشارة إلى درجات أنوار التجلى ، وشروق شمس المعرفة والتوحيد . انتهى .

الثالثة ـ ذكر تعالى الإراءة فى هذه الآية مجملة ، ثم فصلها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا، قَالَ هَٰذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي » قال المهايمىّ : لما رأى ـ يعنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ الملكوت ، وأيقن أن شيئاً منها لا يصلح للإلهية ، أراد الرد على قومه فى اعتقاد إلٰهيتها لخستها ، باعتبار افتقارها فى أفعالها إلى أجسام لها دناءة الأفول ، وإن كانت علوية ، وكذا فى اعتقاد إلٰهية تلك الأجسام. كما رد عليهم فى اعتقاد إلٰهية الأصنام، فَلْتَظْهَرَ ظهور الكواكب التى كانوا يعبدونها . انتهى .

وبالجملة ، فالآية بيان لكيفية استدلاله عليه الصلاة والسلام ، ووصوله إلى رتبة الإيقان.

ومعنى (جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) ستره بظلامه . و (الكوكب) قيل : الزهرة ، وقيل : المشترى .

أقول : (الكوكب) لغةً : النجم . قال الزبيديّ فى (شرح القاموس) : وكونه علماً بالغلبة على الزهرة غير معتدّ به ، وإنما هى الكوكبة بالهاء . انتهى .

قال الزمخشريّ : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلٰهاً ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدِثاً أحدثها ، وصانعاً صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . وقول إبراهيم لقومه : (هَٰذَا رَبِّى) إرخاء للعنان معهم بإظهار موافقته لهم أولًا ، ثم إبطال قولهم بالاستدلال ، لأنه أقرب لرجوع الخصم .

قال الزمخشريّ : قول إبرهيم ذلك، هو قول من ينصف خصمه ، مع علمه بأنه مبطل. يحكى قولَهُ كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغَب . ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة.

« فَلَمَّا أَفَلَ » أى : غاب ، « قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » أى : لا أحب عبادة من كان كذلك ، فإن الأفول دناءة تنافى الإلٰهية ، بل تمنع من الميل إلى صاحبها ، فضلًا عن اتخاذه إلهاً أو معبوداً ، فضلًا عما يفتقر إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

« فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً » أى : طالعاً منتشر الضوء «قَالَ هَٰذَا رَبِّى» على الأسلوب المتقدم « فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » فإن مارأيته لا يليق بالإلٰهية لدناءته بمحوه .

قال الزمخشريّ : وفيه تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً ، وهو نظير الكواكب في الأفول ، فهو ضال . وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله تعالى ولطفه .

وفي (الانتصاف) : التعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولًا (لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ) وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن الخصوم قد أقامت عليه، بالاستدلال الأول ، حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ، ولا يصغون إلى الاستدلال . فما عرّض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود ، واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك حين تمّ قيام الحجة ، وتبلّج الحقّ ، وبَلَغَ من الظهور غاية المقصود . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي » على نحو ما تقدم ، وتذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر، أولأنه أراد : هـذا الطالع ، أو الذي أراه ، أو لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ، ليستدرجهم . إذ لو حقر بوجه ما كان سبباً لعدم إصغائهم ـ وعلى الأخير اقتصر المهايميّ ـ فقال : لم يؤنثه لئلا يعارض عظمته نقص الأنوثة ، ولو غير حقيقية ، وهي وإن كانت في الواقع لم يأت بها لفظاً ، لأنه قصد بذلك مساعدة الخصم أولا .

وقوله تعالى : « هَـٰذَا أَكْبَرُ » أي : أكبر الكواكب جرماً ، وأعظمها قوة ، فهو أولى بالإلهية . وفيه تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من إظهار النصفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى ، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر .

« فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ » صادعاً بالحق : « يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » أى من الأجرام المحدثة المتغيرة من حالة إلى أخرى ، أو من إشرا كـكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ » أى : وجه قلبى وروحى فى المحبة والعبادة ، بل جملته مسلماً « لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً » أى : مائلا عن الأديان الباطلة ، والعقائد الزائغة ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وفى هذا المقام :

مباحث

الأول ـ توسع المفسرون هنا فى قوله : (هَٰذَا رَبِّى) :

فمن قائل بأن المتكلم بهذا آزر ، وأنه لما قال ذلك ، قال إبراهيم (لاأحب الآفلين) .

وقيل: إنه إبراهيم ، وكان ذلك فى حال الطفولية، قبل استحكام النظر فى معرفة الله تعالى لقوله : (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى ...) الخ .

وقيل : بعد بلوغه وتكريمه بالرسالة، إلا أنه أراد الاستفهام الإنكارى، توبيخاً لقومه، فحذف الهمزة ، ومثله كثير .

وقيل: على إضمار القول أى: يقولون هذا ربى ، وإضمار القول كثير .

وقيل : المعنى فى زعمكم واعتقادكم .

وقيل : الإخبار على سبيل الاستهزاء ... إلى أقوال أخر .

والقصد فى ذلك تنزيه مقامه عليه الصلاة والسلام عن الشك والحيرة ، واعتقاد ربوبية ذلك ، لمنافاته للعصمة .

وأقول : هذا مسلّم بلا ريب ، ولكنّ الأوجَه من جميع ذلك كله ما أسلفناه أوّلا من أن قوله : (هَٰذَا رَبِّى) من باب استعمال النصفة مع الخصوم ، على سبيل الوضع، وهو سوق مقدمة فى الدليل لايمتقدها ، لكونها مسلمة عند غيره، لأجل إلزامه بها. وهو مصطلح أهل الجدل. وقد اقتصر الزمخشرىّ على هذا الوجه الفريد .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وذلك متعين . وقد وردفى الحديث الوارد فى الشفاعة[1] أنهم يأتون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسى! نفسى ! ويذكر كذباته الثلاث ، ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة هى أختى ، وإنما عنى : فى الإسلام . وقوله : إنه سقيم ، وإنما عنى همّه بقومه وبشركهم والمؤمن يسقمه ذلك ـ وقوله: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) ، وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض . فإذا عدّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات ، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دلّ ذلك على أنها أعظم ما صدر منه . فلو كان الأمر على مايقال ، من أن هذا الكلام محكىّ عنه على أنه نظره لنفسه ، لكان أولى أن يعدّه ، وأعظم، مما ذكرناه . لأنه حينئذ يكون شكّا ، بل جزما . على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون فى هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير[2] من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر . واختاره ابن جرير مستدلا عليه بقوله:(لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى) الآية . وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السَّرَب الذى ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه من نمروذ بن كنعان،

---

(١) حديث الشفاعة هــذا أخرجه البخارىّ فى مواضع . ومنها فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٤٠ عن أنس وفيه ذكره ، عليه السلام ، كذباتِه الثلاث .

(٢) الأثر رقم ١٣٤٦٢ من التفسير .

لما كان قد أُخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ . فلما حملت أم إبراهيم به ، وحان وضعها ، ذهبت إلى سَرَبٍ ، ظاهرَ البلدة ، فولدت فيه إبراهيم ، وتركته هناك . وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين .

ثم قال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين ، فى المقام الأول مع أبيه ، خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية ، التى هى على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده فى الرزق ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبيّن فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل ، وهى الكواكب السيارة السبعة . وأشدُّهن إضاءة وأشرفهن عندهم ، الشمس ثم القمر ثم الزهرة . فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه ، ولا تملك لنفسها تصرفا ، بل هى جرم من الأجرام ، خلقها الله منيرة ، لما له فى ذلك من الحكم العظيمة ، وهى تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب ، حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا المنوال . وهذه لا تصلح للإلهية . ثم بين فى القمر ما بين فى النجم ، ثم الشمس كذلك . فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التى هى أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، تبرأ من عبادتهن وموالاتهن ، وأخبر بأنه يعبد خالقهن ومسخرهن .

ثم قال ابن كثير : وكيف يجوز أن يكون ناظرا فى هذا المقام ، وهو الذى قال الله فى حقه (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)(١) . وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥١ و ٥٢] .

قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[١] .

وقد ثبت فى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : كل مولود يولد على الفطرة .

وفى صحيح مسلم[٣] عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء . وقال تعالى (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ)[٤] . ومعناه، على أحد القولين، كقوله (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) . فإذا كان هذا فى حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل

(١) [١٦ / النحل / ١٢٠و١٢١] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٠ ـ باب إذا أسلم الصبىّ فمات ، هل يصلّى عليه ؟ حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة كان يحدّث قال النبىّ ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه . كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء . هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ » .

ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... الآية .

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا) .

وانظر نصه الكامل بالصفحة (١٥٦٩) من هذا التفسير .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٧٢] ... شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ .

الذى جعله الله (أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ناظرًا فى هـذا المقام ؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة ، بعد رسول الله ﷺ ، بلاشك ولا ريب .

ومما يؤيد أنه كان فى هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيـه من الشرك ، لا ناظرًا ، قوله تعالى (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ...) الآية الآتية . انتهى .

وممن جوّد هذا المبحث الجليل ، وبيّن أن إبراهيم عليـه الصلاة والسلام كان مناظرًا لقومه ، العلامةُ الشهرستانىُّ فى كتابه (الملل والنحل) ، ونحن نسوقه عنـه تأييدًا لهذا البحث المهم ، وتعرّفًا بمعتقد قومه ، وما دفعهم إليه ، لما فيه من الفوائد .

قال رحمه الله تحت ترجمة (أصحاب الهياكل والأشخاص) : هؤلاء من فرق الصابئة (وهم المتعصبون للروحانيين) ، وقد أدرجنا مقالتهم فى المناظرات جملة ، ونذكرها ههنا تفصيلًا :

اعلم أن أصحاب الروحانيات ، لما عرفوا أن لابد للإنسان من متوسط ، ولابد للمتوسط من أن يُرَى فيتوجه إليه ، ويتقرب به ، ويستفاد منه ، فزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات السبع ، فتعرفوا أولًا بيوتها ومنازلها ، وثانياً مطالعها ومغاربها ، وثالثاً اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، ورابعاً تقسيم الأيام والليالى والساعات عليها ، وخامساً تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها ، فعملوا الخواتيم ، وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا ليوم زحل مثلًا يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وصفته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وبخّروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة ، وسألوا حاجتهم منه ، الحاجة التى تستدعى من زحل من أفعاله وآثاره الخاصة به .

وكذلك رفع الحاجة التى تختص بالمشترى فى يومه وساعته ، وجميع الإضافات التى

ذكرنا ، إليه . وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب . وكانوا يسمونها : أرباباً آلهة ، والله تعالى هو رب الأرباب، وإله الآلهة . ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب، فكانوا يتقربون إلى الهياكل ، تقرباً إلى الروحانيات ـ يعنى الملائكة ـ ويتقربون إلى الروحانيات ، تقرباً إلى البارئ تعالى ، لاعتقادهم بأن لكل روحانىّ هيكلاً ، ولكل هيكل فَلَكاً ، فالهياكل أبدان الروحانيات ، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات ، وهى أربابها ومدبراتها ، تتصرف فى أبدانها تدبيرًا وتصريفاً وتحريكاً ، كما يتصرف فى أبداننا. ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه . ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضى منهم العجب . وهذه الطلسمات المذكورة فى الكتب والسحر والكهانة والتختيم والتعزيم والخواتيم والصور، كلها من علومهم. وأما أصحاب الأشخاص فقالوا : إذا كان لابد من متوسط يتوسل به ، وشفيع يتشفع إليه ، والروحانيات وإن كانت هى الوسائل ، لكنا إذا لم نرها بالأبصار ، ولم نخاطبها بالألسن ، لم يتحقق القرب إليها إلا بهياكلها ، ولكن الهياكل قد ترى فى وقت ، ولا ترى فى وقت ، لأن لها طلوعاً وأفولًا ، وظهورًا بالليل ، وخفاء بالنهار، فلم يَصْفُ لنا التقرب بها ، والتوجه إليها ، فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا ، فنعكف عليها، ونتوسل بها إلى الهياكل، فنتقرب بها إلى الروحانيات، ونتقرب بالروحانيات إلى الله تعالى ، فنعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص فى مقابلة هيكل ، وراعوا فى ذلك جوهر الهيكل ، أعنى الجوهر الخاص به من الحديد وغيره ، وصوروه بصورته على الهيأة التى تصدر أفعاله عنه ، وراعوا فى ذلك الزمانَ والوقتَ والساعة والدرجة والدقيقة وجميع الإضافات النجومية، من اتصال محمود يؤثر فى نجاح الطالب التى تستدعى منه ، فتقربوا إليه فى يومه وساعته ، وتبخّروا بالبخور الخاص به وتختموا بخاتمه ، ولبسوا ثيابه ، وتضرعوا بدعائه ، وعزّموا

بعزائمه ، وسألوا حاجتهم منه، فيقولون : كان تقضى حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها، وذلك هو الذى أخبر التنزيل عنهم أنهم عبـدة الـكواكب والأوثان . فأصحاب الهياكل هم عبدة الـكواكب ، إذ قالوا بإلهيتها ـ كما شرحنا ـ وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان ، إذ سموها آلهة فى مقابلة آلهة أولئك السماوية ، وقالوا: (هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ)(١). وقد ناظر الخليل عليه الصلاة والسلام هذين الفريقين ، فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص ، وذلك قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) . وتلك الحجة أن كسرهم قولًا بقوله : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) . ولما كان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية فيهـا حق الرعاية ، ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام ، لا من غيره ، كان أكثر الحجج معـه ، وأقوى الإلزامات عليه (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وقال : (يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا)(٢) لأنك جهدت كل الجهد ، واستعملت كل العلم ، حتى عملت أصناماً فى مقابلة الأجرام السماوية فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعاً وبصرًا ، وأن تغنى عنك ، وتضر وتنفع ، وإنك بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها ، ، لأنك خلقت سميعاً بصيرًا ضارًّا نافعاً. والآثار السماوية فيك أظهر منها فى هذا المتخذ تـكلفاً ، والمعمول تصنعاً ، فيالها من حيرة ، إذ صار المصنوع بيديك، معبودًا لك ، والصانع أشرف من المصنوع . (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)(يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ

(١) [١٠ / يونس / ١٨] ونصها : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ . . .

جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)(١) فلم يقبل حجته القولية ، فعدل عليه الصلاة والسلام إلى الكسر بالفعل ، فجعلهم جذاذاً ، إلا كبيرًا لهم (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)(٢) (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)(٣) فأفحمهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم ، كما أفحمهم بالقول ، حيث أحال الفعل منهم ، وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم ، وإلا فما كان الخليل كاذباً قط . ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل كما أراه الله تعالى الحجة على قومه ، قال (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها ، وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة ، وتقريرًا أن الكمال فى الرجال ، فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي) على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا) وإلا فما كان الخليل كاذباً فى هذا القول ، ولا مشركاً فى تلك الإشارة . ثم استدل بالأفول والزوال والتغير والانتقال ، بأنه لا يصلح أن يكون ربًّا إلٰهاً ، فإن الإله القديم لا يتغير ، وإذا تغير فاحتاج إلى مغير ، وهذا لو اعتقدتموه ربًّا قديماً وإلٰهاً أزليًّا ، ولو اعتقدتموه واسطة وقبلة وشفيعاً ووسيلة ، فالأفول والزوال أيضاً ، يخرجه عن الكمال . وعن هذا ما

(١) هذه هى الآيات الشريفة حسب ترتيبها وبنصها الكامل فى الكتاب .

[١٩ / مريم / ٤٤ـ٤٦] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٥٩] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٦٣ـ٦٥] .

مااستدل عليهم بالطلوع ، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول ، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص ، لما عراهم من التحير بالأفول ، فأتاهم الخليل عليه الصلاة والسلام من حيث تحيرهم ، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته . وذلك أبلغ فى الاحتجاج . ثم (لَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ). فيا عجباً ! من لا يعرف ربًّا كيف يقول : (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) ؟ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة ، والواصل إلى الغاية والنهاية ، كيف يكون فى مدارج البداية ؟ دع هـذا كله خاف قاف ، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف. فإن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج . وعن هذا قال (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ) لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك ، وهو رب الأرباب الذى يقتبسون منـــه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار (فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) قرر مذهب الحنفاء ، وأبطل مذهب الصابئة ، وبين أن الفطرة هى الحنيفية ، وأن الطهارة فيها ، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها ، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها ، وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها ، وأن الأنبياء والرسل مبعوثة لتقريرها وتقديرها ، وأن الفاتحة والخاتمة ، والمبدأ والـكمال ، منوطة بتلخيصها وتحريرها . ذلك الدين القيم ، والصراط المستقيم ، والمنهج الواضح ، والمسلك اللائح . انتهى كلام الشهرستانىّ رحمه الله تعالى. وإنما نقلت كلامه برمته ، لأنه كما قيل :

* وما محاسن شىء كلُّهُ حَسَنُ *

وقد قدّم رحمه الله الـكلام على أصحاب الروحانيات الصابئة ، وأتبعها بمناظرة بديعة جرت بينهم وبين الحنفاء ، بما تفيد مراجعتُه فائدة كبرى . فجزاه الله خيراً .

الثانى ـ تبيّن مما ذكره الشهرستانىّ أن سر احتجاج الخليل عليه الصلاة والسلام بالأفول دون البزوغ ، مع كون كل منهما منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية ـ هو إتيانهم من حيث تحيرهم ، إلزاماً لهم بما يعترفون بصحته .

وقال أبو السعود : لما كان البزوغ حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ، ملائمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة ـ عدل عنه إلى الأفول ، لأنه حالة مقتضية لانطماس الآثار ، وبطلان الأحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة ، يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد . انتهى. وهو لطيف ، إلا أن الأول أسدّ .

الثالث ـ لو قيل : إن الأفول ، لما كان يمنع من استحقاق معروضه لصفة الربوبية على ما ذكرنا ، وقد ثبت ذلك فى أكبر الكواكب ـ (أعنى الشمس) ـ فلزم ثبوته فيما دونها بالأولى ـ فهلا اقتصر على أفول الشمس رعاية للإيجاز والاختصار ؟ أجيب : بأن الأخذ من الأدنى فالأدنى ، إلى الأعلى فالأعلى ، له نوع تأثير فى التقرير والبيان والتأكيد ، لا يحصل من غيره ، فكان سوق الاستدلال على هذا الوجه أولى ـ أفاده الرازىّ ـ .

الرابع ـ قال الرازىّ : تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنيًّا على الدليل ، لا على التقليد ، وإلا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ » أى جادلوه ، وأرادوا مغالبته بالحجة ، فيما ذهب إليه من توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، تارة بأدلة فاسدة ، واقفة فى حضيض التقليد ، وأخرى بالتخويف ، وقد أشير إلى جواب كل منهما . « قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ » أى: أتجادلوننى فى توحيده ، وقد هدانى لإقامة الحجج ، ورفع الشبه على نفى إلهية ما سواه ،

وقد ثبت أنها ناقصة فى ذواتها ، فكمالاتها من غيرها ، ولا إلهية للناقص بالذات ، لأن كماله لا يكون مطلقاً . و (تحاجونى) بإدغام نون الجمع فى نون الوقاية ، وقرىء بحذف الأولى .

وقوله تعالى : « وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » أى لا أخاف معبوداتكم ، لأنها جمادات لا تضر بنفسها ولا تنفع ، وهو جواب عما خوفوه عليه الصلاة والسلام فى أثناء المحاجة من إصابة مكروه من جهة أصنامهم ، كما قال لهود عليه السلام قومه : (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ)(١) . و تخويفهم ، وإن لم يسبق له ذكر ، لكنه فهم من قوله: (وَلَا أَخَافُ) .

وقال ابن كثير : أى ومن الدليل على بطلان قولكم ؛ إن هذه المعبودات لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها كيد فكيدونى بها ولا تُنظرون . انتهى .

« إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً » أى : من إصابة مكروه بى من جهتها ، وذلك إنما هو من جهته تعالى ، من غير دخل لمعبوداتكم فيه أصلا .

وفى (الانتصاف) : غاية خوف إبراهيم منها ، المعلق على مشيئة الله تعالى لذلك ، خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى ، لا بها ، وكأنه فى الحقيقة لم يخف إلا من الله ، لأن الخوف الذى أثبته منها معلق بمشيئة الله وقدرته ، وهو كلا خوف منها ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى : « وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً » كأنه علة الاستثناء ، أى : أحاط بكل شىء علماً . فلا يبعد أن يكون فى علمه إنزال المخوف بى من جهتها ، أى : كرجمه بالنجوم. لأنه إذا أحيل شىء إلى علم الله ، أشعر بجواز وقوعه . وفى الإظهار فى موضع الإضمار ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، إظهار منه عليه الصلاة والسلام لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى ، واستسلام لأمره ، واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته .

---

(١) [١١ / هود / ٥٤] ... قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

هذا ، وجعل المهايمي ذلك علة لاستدراك محذوف ، لعلمه من المقام ، حيث قال في الآية: ولا أخاف الضرر على نفسي من تأثير ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربي أن يجعل لهم شيئاً من التأثير ، لكنه لا يشاء في شأني ، لأنه (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)فعلم أنه لو أوجد التأثير فيهم بما يضرون به مَن بعثه لتوحيده ، صار محجوبا . انتهى ـ والأول أقرب ـ .

« أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » أي : تعتبرون بأن هذه المعبودات جمادات ، لا تضر ولا تنفع، وأن النافع الضار هو الذي خلق السموات والأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ » أي : معبوداتكم ، وهي مأمونة الخوف ، « وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ » ، أي : بإشراكه « عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا » أي: حجة . إذ الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة. والمعنى : وما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع أعظم المخوفات وأهولها . « فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ » أي : فريقي الموحدين والمشركين ، « أَحَقُّ بِالْأَمْنِ » أي: من لحوق الضرر، « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أي: مايحق أن يخاف منه . أو مَن أحق بالأمن أو مِن أولي العلم؟ وجواب الشرط محذوف . أي : فأخبروني .

ثم بيّن تعالى من له الأمن، جواباً عما استفهم عنه الخليل عليه السلام بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » أي: بشرك، كما يفعله الفريق المشركون ،

حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل، وأن عبادتهم للأصنام من تمات إيمانهم وأحكامه، لكونها لأجل التقريب والشفاعة ، كما قالوا (مَانَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ)(١). وهذا معنى اللبس ـ أفاده أبو السعود ـ وسيأتي زيادة لذلك .

« أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ » يوم القيامة « وَهُمْ مُهْتَدُونَ » أي : إلى الحق ، ومن عداهم في ضلال .

روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عبدالله قال: لما نزلت (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(٢) ـ هذا لفظ رواية البخاريّ ـ .

ولفظ رواية الإمام أحمد عن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شقّ ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ! فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ؟ إنما هو الشرك .

أقول : هذه الرواية توضح رواية البخاريّ السابقة ـ أعني : قول ابن مسعود : فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ . . .) الخ ـ من جهة أن النزول أريد به تفسير الآية ، لا سبب نزولها ، وهو اصطلاح للصحابة والتابعين دقيق، ينبغي التنبه له . وقد أشرنا له في المقدمة . فجدد به عهدًا. ولابن أبي حاتم عن عبد الله مرفوعاً (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال : بشرك .

---

(١) [٣٩ / الزمر [٣] ونصها : أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

قال : وروى عن أبي بكر وعمر وأبيّ بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمرو ابن شرحبيل وأبي عبد الرحمن السلميّ ومجاهد وعكرمة والنخعيّ والضحاك وقتادة والسدّيّ، وغير واحد نحو ذلك. نقله ابن كثير . وبالجملة، فلا يعلم مخالف من الصحابة والتابعين في تفسير (الظلم) هنا بالشرك ، وقوفاً مع الحديث الصحيح في ذلك ، المبين للنظائر القرآنية الموضِّح بعضها لما أبهم في بعض . وتعرف تلك القاعدة من مثل هذا الحديث يكشف غمة أوهام كثيرة. ولو قيل : لا يلزم من قوله : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) أن غير الشرك لا يكون ظلماً ، يجاب : بأن التنوين في (بظلم) للتعظيم ، فكأنه قيل : لم يلبسوا إيمانهم بظلم عظيم . ولما تبين أن الشرك ظلم عظيم علم أن المراد : لم يلبسوا إيمانهم بشرك ، أو أن المتبادر من المطلق أكمل أفراده ـ كذا في العناية ـ .

قال الرازيّ : والدليل على أن هذا هو المراد ، أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت في نفي الشركاء والأضداد والأنداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات ، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك .

تنبيه :

حيث علم أن الصادق المصدوق ﷺ فسر الآية بما تقدم ، فليُعَضَّ عليه بالنواجذ . وأما ماهذى به الزمخشريّ من قوله في تفسير الآية : أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم ، وَأَبَى تفسيرَ الظلم بالكفر ، لفظُ (اللبس) أي : لأن لبس الإيمان بالشرك أي : خلطه به، مما لا يتصور ، لأنهما ضدان لا يجتمعان ـ على زعمه ـ فمدفوع بأنه يلابسه . لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق ، سواء كان باللسان أو غيره ، فظاهر أنه يجامع الشرك كالمنافق . وكذا إن أريد تصديق القلب ، لجواز أن يصدّق بوجود الصانع ، دون وحدانيته ، لما في قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)(١) وهو ما أشير إليه قبل.

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٦] .

ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر ، فلا يلزم من لبس الإيمان بالشرك الجمع بينهما ، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرك ، بل تغطيته بالكفر ، وجعله مغلوباً مضمحلًّا ، أو اتصافه بالإيمان ، ثم الكفر ، ثم الإيمان ثم الكفر مرارًا . وبعد تسليم ما ذكر ، فاختصاص الأمن بغير العصاة لا يوجب كون العصاة معذبين البتة ، بل خائفين ذلك ، متوقعين للاحتمال ، ورجحان جانب الوقوع ـ كذا في (شرح الكشاف) .

وفي (الانتصاف) : إنما يروم الزمخشريّ بذلك تنزيله على معتقده ، في وجوب وعيد العصاة ، وأنهم لا حظ لهم في الأمن كالكفار . ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمن بالجامعين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصي . ونحن نسلم ذلك ، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة ، هو الخوف اللاحق للكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت ، وهم آمنون من الخلود . وأما الكفار فغير آمنين بوجهٍ ما . انتهى .

وأما قول المعتزلة : حديث عبد الله المتقدم ـ إن صح ـ يكون خبرَ واحدٍ ، في مقابلة الدليل القطعيّ ، ومثله لا يعمل به ـ فالجواب : بأنه صح بلا ريب ، لتخريج الشيخين له .

* وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل[1] *

وقولهم : في مقابلة الدليل القطعيّ ، بهتان عظيم . ويالله العجب من هؤلاء ، قابلوا السنة الصحيحة بكناسة الرأي ، ولم يستحيوا من الله تعالى ورسوله في هذه المخالفة ، فأين تذهب

(١) قال ياقوت في معجم البلدان : نهر معقل منسوب إلى معقِل بن يسار بن عبد الله ابن معبّر . . . ، صحب النبيّ ﷺ .

وهو نهر معروف بالبصرة ، فمه عند فم نهر الإجّانة .

ذكر الواقديّ أن عمر أمر أبا موسى الأشعريّ أن يحفر نهرًا بالبصرة ، وأن يُجْرِي على يد معقل بن يسار المزنيّ ، فنسب إليه .

به عقولهم ؟ إلى الحق أم إلى الباطل ؟ ولـكن كما قال ابن سَهْلٍ[١] :

* فما أضيعَ البرهانَ عند المقلِّدِ *

هذا ، وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير ساره ، إذ عرض له أعرابىّ فقال : يا رسول الله ! والذى بعثك بالحق ! لقد خرجت من بلادى وتلادى ومالى ، لأهتدى بهداك ، وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى مالى طعام إلا من خضر الأرض ، فاعرض علىّ . فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل . فازدحمنا حوله ، فدخل خفّ بَـكْرِهِ فى بيت جرذان ، فتردّى الأعرابىّ ، فانـكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : صدق ! والذى بعثنى بالحق ! لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدى بهداى ، ويأخذ من قولى ، وما بلغنى حتى مَا لَهُ من طعام إلا من خضر الأرض . أسمعتم بالذى عمل قليلًا وأُجِر كثيرًا ؟ هذا منهم ! أسمعتم بـ (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) ؟ فإن هذا منهم .

وفى لفظٍ قال : هذا عمل قليلًا وأُجِر كثيرًا .

وروى نحوه الإمام أحمد[٢] عن جرير بن عبدالله مطولًا ، وفيه بيان قوله : فاعرض علىّ ، ولفظه : ما الإيمان ؟ قال : تشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : قد أقررت .

---

(١) عجز مطلع قصيدة له وصدره :

* أقلّد وجدى ، فليبرهن مفنّدى *

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥٩ من الجزء الرابع (طبعه الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

وقوله تعالى « وَتِلْكَ » أى : الدلائل المشار إليها فى قوله (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً) إلى ههنا « حُجَّتُنَا » أى : التى لا يمكن نقضها « ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ » أى : أرشدناه إليها، وعلمناه إياها ، بلا واسطة معلّم « عَلَىٰ قَوْمِهِ » متعلق بـ (حُجَّتُنَا) إن جعل خبر (تِلْكَ)، وبمحذوف إن جعل بدله ، أى : آتيناها حجة ودليلا على قومه الكثيرين ، ليغلب وحده .

« نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ » يعنى : فى العلم والحكمة ، وقرئ بالتنوين . « إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ » فى رفعه وخفضه ، « عَلِيمٌ » بحال من يرفعه واستعداده له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ)

[٨٥] (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[٨٦] (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُ » أى : لإبراهيم عوضاً عن قومه ، لما اعتزلهم وما يعبدون ، « إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » أى ولدا ، وولد ولد ، لتقر عينه ببقاء العقب « كُلًّا هَدَيْنَا » أى: كلامنهماهديناه الهداية الكبرى ، بلحوقهما بدرجة أبيهما فى النبوة ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا[1] .

(١) [١٩ / مريم / ٤٩] .

قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، وذلك بعد أن طعن في السن، وأيس وامرأته سارة ، من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك : قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ[١] * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ[٢] فبشروها فتعجبت، وبشروها مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعقبا ، كما قال تعالى : وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ[٣]. وهذا أكمل في البشارة ، وأعظم في النعمة . وقال : فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ[٤] . أي: ويولد لهذا المولود وَلَدٌ في حياتكما ، فتقرّ أعينكما به ، كما قرت بوالده ، وإن الفرح بولد الولد شديد ، لبقاء النسل والعقب . ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه ، وقعت البشارة به ، وبولد اسمه يعقوب ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكانت هذه المجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم ، وهاجر من بلادهم، ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين، من صلبه، على دينه ، لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ... الآية[٥] .

« وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ » أي : من قبله ، هديناه كما هديناه . وعدّ هداه نعمة على إبراهيم ، من حيث إنه أبوه ، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد .

---

(١) [١١ / هود / ٧٢] .

(٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٤) [١١ / هود / ٧١] ونصها : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ . . .

(٥) [١٩ / مريم / ٤٩] ونصها : . . . مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا .

قال ابن كثير : كل منهما له خصوصية عظيمة . أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض ، إلا من آمن به ، وهم الذين صحبوه فى السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته . وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته ، كما قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ[1] ... الآية . وقال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ[2] . وقال تعالى: أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِياً[3] .

وقوله تعالى : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ » الضمير لإبراهيم أو لنوح ، على ما يأتى ، « دَاوُدَ » عطف على « نُوحًا » أى : وهدينا داود ، وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ .

اعلم أن المقصود من هذه الآيات ، وما قبلها ، وما يلحقها ، تعديد أنواع نعم الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، جزاء اعتزاله قومه وما يعبدون ، وقيامه بنصرة التوحيد، ودحض الشرك . فذكر تعالى أولا رفع درجته ، بإيتائه الحجة على قومه ، وتخصيصه بها ، ثم جعله عزيزاً فى الدنيا ، حسبا ونسبا ، أصلا وفرعا ، لأنه تولد من نوح أول المرسلين

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٦] ... فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

(٣) [١٩ / مريم / ٥٨] .

رسالة عامة ، ووهبت له الذرية الطاهرة ، أنبياء البشر . ولذا ذهب الأكثرون إلى أن الضمير في (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) لإبراهيم ، لأن مساق النظم لبيان شؤونه العظيمة ، كأنه قيل : ولم نزل نرفع درجاته بعد ذلك إذ هدينا من ذريته داود . . . الخ ، فهو المقصود بالذكر في هذه الآيات . وذكر نوح عليه السلام، لأن كون إبراهيم من أولاده أحد موجبات رفعته كما تقدم. والغاية هي إلزام من ينتمي إليه من المشركين .

ولا يقال : إن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه، لأنه يقال : إن العرب تجعل العمّ أبا، كما أخبر تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا: نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ[1] ، مع أن إسماعيل عم يعقوب ، ودخل في آبائه تغليباً .

وقال محيي السنة رحمه الله تعالى: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) أي: ذرية نوح ﷺ ، ولم يرد من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنه ذكر في جملتهم يونس ﷺ ، وكان من الأسباط ، في زمن شعياء ، أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى من الموصل .

وقال: إن لوطاً عليه السلام كان ابن أخي إبراهيم عليه السلام، آمن بإبراهيم، وشخص معه مهاجرًا إلى الشام ، فأرسله الله إلى أهل سدوم .

ومن قال : الضمير لإبراهيم ﷺ ، يقدّر : ومن ذرية إبراهيم وداود وسليمان هدينا . لأن إبراهيم هو المقصود بالذكر . وذكر نوح لتعظيم إبراهيم . ولذلك ختم بيونس ولوط ، وجعلهما معطوفين على (نُوحًا هَدَيْنَا) من عطف الجملة على الجملة . وصاحب (الكشف) أخرج (إلياس) ﷺ . وليس كذلك . لما في (جامع الأصول) عن الكسائيّ ، أنهما من ذريته. فبقي لوط خارجاً . ولما كان ابن أخيه آمن به ، وهاجر معه ، أمكن أن يجعل من ذريته على سبيل التغليب ـ كما ذكره الطيبيّ ـ .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وبالجملة ، فالآية المذكورة من المنن على إبراهيم على كلا الوجهين ، لأن شرف الذرية ، وشرف الأقارب شرف ، لكنه على الأول أظهر ، ويكون تطرية فى مدح إبراهيم ﷺ بالعود إليه مرة بعد أخرى .

تنبيهات :

الأول ـ قال الحافظ ابن كثير : فى ذكر عيسى عليه السلام ، فى ذرية إبراهيم أو نوح (على القول الآخر) دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أمه مريم عليهما السلام . وقد روى ابن أبى حاتم أن الحجاج أرسل إلى يحيى بن يعمر فقال : بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبىّ ﷺ ، تجده فى كتاب الله وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟! قال : أليس تقرأ سورة الأنعام (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ . . . حتى بلغ : وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ) قال : بلى ! قال : أليس من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت ! فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم . فأما إذا أعطى الرجل بنيه ، أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه ، وبنو بنيه ، واحتجوا بقول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا . وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعدِ

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم، لما ثبت فى صحيح البخارىّ(١) أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٢ ـ كتاب الفتن، ٢٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ للحسن بن علىّ: إن ابنى هذا لَسَيّد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، حديث ١٣٠٧ ونصه : حدثنا الحسن قال : لما سار الحسن بن علىّ رضى الله عنهما إلى معاوية بالكتائب ، قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبة لاتولّى حتى تدبر أخراها. قال معاوية: من لذرارىّ المسلمين؟ قال الحسن: ولقد سمعت أبا هريرة قال: بينا النبىّ صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم «ابنى هذا سيد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» .

قال للحسن بن عليّ : إن ابنى هذا سيّد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. فسماه (ابناً) فدلعلى دخوله فى الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوّزٌ . انتهى .

وفى (العناية) : أورد على الاستدلال بتناول الذرية أولاد البنت من هـذه الآية ، بأن عيسى عليـه السلام ليس له أب ، يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه ، فلا يظهر قياس غيره عليه . والمسألة مختلف فيها ، والقائل بها استدل بهذه الآية ، وآية المباهلة ، حيث دعا ﷺ الحسن والحسين رضى الله عنهما بعدما نزل : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ[(١)] . إن لم نقل إنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم . انتهى .

الثانى ـ إنمـا لم يذكر إسماعيل عليـه السلام مع إسحاق ، بل أخّر ذكره عنه ، لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياءبنىإسرائيل ، وهمبأسرهم أولادإسحاق ويعقوب ، وأما إسماعيل فلم يخرج من صلبه من الأنبياء إلا خاتمهم وأفضلهم ﷺ . ولا يقتضى المقام ذكره ﷺ لأنه أمر أن يحتج على العرب فى نفى الشرك بأن إبراهيم لما ترك قومه وما يعبدون ، إلى عبادة الله وحده ، رزقه الله النعم العظيمة فى الدين والدنيا ، ومنها إيتاؤه أولادا أنبياء . فإذا كان المحتج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يُذكر فى هــذا المعرض . ولهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق ـ أفاده الرازىّ ـ .

الثالث ـ اعلمأنه تعالىذكر هنا ثمانية عشر نبيًّا من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب ، لا بحسب الزمان ؛ ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضى الترتيب . ولـكن هنا لطيفة فى هذا الترتيب ، وهى أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بنــوع من الـكرامة والفضل ، فذكر أولا نوحا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول

---

(١) [٣ / آل عمران / ٦١] ونصها : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

الأنبياء ، وإليهم ترجع أنسابهم جميعا . ثم من المراتب المعتبرة، بعد النبوة ، الملك والقدرة والسلطان . وقد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظًّا وافرا . ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد ، وقد خص الله بهذه أيوب عليه السلام . ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما ، وهو يوسف عليه السلام ، فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة . ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات ، وقوة البراهين ، وقد خص الله موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر . ثم من المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا ، والإعراض عنها ، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام ، ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين . ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء، مَن لم يبق له أتباع ولا شريعة ، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط . فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه ، كان هذا الترتيب من أحسن شىء يذكر ، والله أعلم بمراده ، وأسرار كتابه ـ أفاده الخازن وأصله للرازى ـ .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) من يرى أن الأنبياء أفضل من الملائكة . لأن العالَم اسم لكل موجود سوى الله تعالى ، فيدخل فيه الملَك .

الخامس ـ نكتة ذكر (الهداية) فى قوله تعالى (كُلًّا هَدَيْنَا) هو تعديد النعم على إبراهيم صلى الله عليه وسلم بشرف الأصول والفروع ـ كما أسلفنا ـ والولد لا يُعدّ نعمة ما لم يكن مهديًّا .

السادس ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا) من أنكر إفادةَ التقديم الحصرَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ » عطف على (كُلًّا) أو (نُوحًا) أى : كلا منهم فضلنا ، وفضلنا بعض آبائهم ، أو هدينا من آبائهم ومن معهم للدين الخالص جماعات كثيرة ، فالمفعول محذوف . « وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى : فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال ، فجعلت لهم هـذه الفضائل أيضاً ، ولحقت إبراهيم ، فازداد ارتفاع درجاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ » إشارة إلى ما دانوا به ، « يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا » أى : هؤلاء مع عظمتهم « لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » من الأعمال المرضية . فكيف بمن عداهم ؟

قال ابن كثير: فيه تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملابسته ، كقوله تعالى: وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . . الآية(١) وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع ، كقوله : قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ(٢) . وكقوله : لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ... وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٨١].

فَاعِلِينَ(١) . وكقوله : لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر ، والمعطوفين عليهم ، باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها . « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » أى: جنس الكتاب المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية . والمراد بـ (إيتائه) التفهيم التام بما فيه من الحقائق . والتمكينُ من الإحاطة بالجلائل والدقائق ، أعمّ من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداءً ، أو بالإيراث بقاءً . فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معيّن ـ أفاده أبو السعود ـ .

« وَالْحُكْمَ » أى : الحكمة ، أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق والصواب « وَالنُّبُوَّةَ » قال البيضاوىّ وأبو السعود : أى الرسالة . قال الخفاجىّ : النبوة وإن كانت أعم ، إلا أن المراد بها ما يشمل الرسالة ، لأن المذكورين رسل . انتهى .

« فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا » أى : بهذه الثلاثة ، « هَٰؤُلَاءِ » يعنى : قريشاً ، فإنهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن ، كافرون بما يصدقه جميعاً ، « فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا » أى : وفقنا للإيمان بها ، « قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ » وهم الأنبياء عليهم السلام، المذكورون وأتباعهم. أوأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأظهر ـ فى مقابلة

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤] .

كفار قريش . أى : فإن فى إيمانهم غنية عن إيمان الكفرة بها . وفى التكنية عن توفيقهم للإيمان بها ، بالتوكيل الذى أصله الحفظ للشيء ، ومراعاته ـ إيذان بفخامتها وعلوّها ، وأنه مما ينبغى أن يقدر قدرها قياماً بحق الوكالة ، وعهد الاستحفاظ .

قال الرازىّ : دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ، ويقوى دينه ، ويجعله مستعليا على كل من عاداه ، قاهرا لكل من نازعه . وقد وقع هذا الذى أخبر الله تعالى عنه فى هذا الموضع . فكان جاريا مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى الأنبياء المذكورين « الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ » أى : إلى الصراط المستقيم « فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » أى : بطريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده ، والأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والصفات الرفيعة ، اعمل .

تنبيهات

الأول ـ استدل بهذه الآية من قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ، مالم يرد ناسخ .

الثانى ـ استدل بها ابن عباس رضى الله عنه على استحباب السجدة فى (ص) ، لأن داود عليه السلام سجدها ، رواه البخارىّ وغيره ـ ولفظ البخارىّ[1] : عن العوّام ، قال : سألت مجاهدا عن سجدة (ص) ، فقال : سألت ابن عباس : من أين سجدت ؟ فقال : أو ماتقرأ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) فكان داود

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة صٓ ، ١ ـ حدثنا محمد ابن بشار .

ممن أُمِرَ نَبِيُّكُمْ صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ .

الثالث ـ قال الرازىّ : احتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وتقريره: أنا بيّنا أن خصال الكمال ، وصفة الشرف ، كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ، ويوسف كان مستجمعاً لهاتين الحالتين ، وموسى عليه السلام كان صاحب الشريعة القوية القاهرة ، والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس كان صاحب التضرع ، فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء ، لأن الغالب عليه خصلة معينة من خصال المدح والشرف . ثم إنه تعالى لما ذكر الكل ، أمر نبينا ﷺ بأن يقتدى بهم بأسرهم ، فكأنه أمر بأن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التى كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، وهو معصوم عن مخالفة ما أمر به ، فثبت أنه اجتمع فيه جميع ما تفرق فيهم من الكمال ، وثبت أنه أفضلهم . وهو استنباط حسن .

الرابع ـ « اقْتَدِهْ » يُقرأُ بسكون الهاء وإثباتها فى الوقف دون الوصل ، وهى على هذا هاء السكت . ومنهم من يثبتها فى الوصل أيضا لشبهها بهاء الإضمار . ومنهم من يكسرها وفيه وجهان : أحدهما هى هاء السكت أيضاً ، شبهت بهاء الضمير ، وليس بشىء . والثانى هى هاء الضمير والمضمر المصدر أى: اقتد الاقتداء. ومثله[1] :

هــــذا سُراقَةُ للقرآن يدرُسُهُ والمرءُ عندالرُّشا، إنْ يَلْقَهَا ذِيبُ

(١) قال صاحب الخزانة (ج ٢ ص ٢، طبعة السلفية) ما نصه :

هو من شواهد سيبويه .

على أن الضمير فى (يدرسه) راجع إلى مضمون يدرس . أى يدرس الدرس فيكون =

(فالهاء) ضمير (الدرس) لامفعول ، لأن (يدرس) قد تعدى إلى (القرآن) . وقيل: مَنْ سكن الهاء جعلها هاء الضمير ، وأجرى الوصل مجرى الوقف ـ أفاده أبو البقاء ـ .

وأما قول الواحدىّ : الذين أثبتوا الهـاء راموا موافقة المصحف ، فإن الهاء ثابتة فى الخط ، فكرهوا مخالفة الخط فى حالتى الوقف والوصل ، فأثبتوا ـ فقد قال الخفاجىّ : إنه مما لا ينبغى ذكره ، لأنه يقتضى أن القراءة بغير نقل تقليدا للخط ، فمن قاله فقد وهم .

« قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى : على القرآن أو التبليغ ، فإن مساق الكلام يدل عليهما ، وإن لم يجر ذكرهما ، « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة وتذكير لهم ليرشدوا من العمى إلى الهدى .

تنبيهان :

الأول ـ فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى جميع الخلق ، من الجن والإنس . وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .

الثانى ـ قال الخفاجىّ : قيل: الآية تدل على أنه يحلّ أخذ الأجر للتعليم وتبليغ الأحكام. قال : وللفقهاء فيه كلام . انتهى.

= راجعاً للمصدر المدلول عليه بالفعل . وإنما لم يَجُز عوده للقرآن ، لئلا يلزم تعدّى العامل إلى الضمير وظاهره معاً .

واستشهد به أبو حيّان فى (شرح التسهيل) على أن ضمير المصدر قد يجىء مرادًا به التأكيد ، وأن ذلك لا يختص بالمصدر الظاهر على الصحيح .

وأورده سيبويه على أن تقديره عنده : والمرء عند الرشا ذئبٌ إنْ يلقها .

وتقديره عند المبرّد : إن يلقها فهو ذئب .

وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يقف على قائلها أحدٌ .

قال الأعلم: هجا هذا الشاعر رجلا من القرّاء، نسب إليه الرياء وقبول الرشا والحرص عليها.

وعكس بعض مفسرى الزيدية حيث قال : فى هذا إشارة إلى أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم العلوم ، لأن ذلك جرى مجرى تبليغ الرسالة . انتهى .

أقول : إن الآية دلت على نفى سؤاله صلى الله عليه وسلم منهم أجرا ، كى لا يثقل عليهم الامتثال . وأما استفادة الحـل والتحريم منها ، ففيه خفاء . والقائل بالأول يقول : المعنى لاأسألـكم جعلا تعففاً . أى : وإن حلّ لى أخذه . وبالثانى : لا أسألـكم عليه أجرا لأنى حظرت من ذلك .

قال ابن القيّم : أما الهدية للمفتى ، ففيها تفصيل : فإن كانت بغير سبب الفتوى ، كمن عادته يهاديه أو من لا يعرف أنه مُفْتٍ ، فلا بأس بقبولها ، والأولى أن يكافأ عليها . وإن كانت بسبب الفتوى ، فإن كانت سبباً إلى أن يفتيه بما لا يفتى به غيره ممن لا يهدى له ، لم يجز له قبول هديته . لأنها تشبه المعاوضة على الإفتاء . وأما أخذ الرزق من بيت المال، فإن كان محتاجاً إليه ، جاز له ذلك. وإن كان غنيًّا عنه ، ففيه وجهان : وهـذا فرع متردد بين عامل الزكاة ، وعامل اليتيم. فمن ألحقه بعامل الزكاة قال: النفع فيه عام، فله الأخذ . ومن ألحقه بعامل اليتيم منعه من الأخذ . وحكم القاضى فى ذلك حكم المفتى ، بل القاضى أولى بالمنع . وأما أخذ الأجرة فلا يجوز ، لأن الفتيا منصب تبليغ عن الله ورسوله ، فلا يجوز المعاوضة عليه ، كما لو قال : لا أعلمك الإسلام والوضوء والصلاة إلا بأجرة . أو سئل عن حلال أو حرام ؟ فقال للسائل : لا أجيبك عنه إلا بأجرة ، فهـذا حرام قطعا ، ويلزمه ردّ العوض ، ولا يملـكه . انتهى .

وفى حديث عبد الرحمن بن شبل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اقرؤوا القرآن ، ولا تَغلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به ـ أخرجه الإمام أحمد[1] برجال الصحيح . وأخرجه أيضاً البزار وله شواهد ـ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وأخرج أحمد[1] والترمذيّ ـ وحسّنه ـ عن عمران بن حصين أن النبيّ ﷺ قال : من قرأ القرآن فليسأل الله تبارك وتعالى به ، فإنه سيجيء قوم يقرؤون القرآن يسألون الناس به .

وأخرج ابن ماجة[2] والبيهقيّ عن أبيّ بن كعب قال : علّمت رجلًا القرآن ، فأهدى لى قوساً ، فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ فقال : إن أخذتها أخذت قوساً من نار .

وهناك أحاديث أخر ، ومنها استدل على حظر أخذ الأجرة على التعليم .

وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففى الصحيحين[3] عن عبدالله بن مسعود فى قصةاللديغ من قوله ﷺ : إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا لى معكم سهماً .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى: ١٢ ـ كتاب التجارات ، ٨ ـ باب الأجر على تعليم القرآن، حديث رقم ٢١٥٨ (طبعتنا) .

(٣) هذا الحديث ليس عن عبد الله بن مسعود وإنما هو عن عبد الله بن عباس . وليس فى الصحيحين بل هو من الأحاديث التى انفرد بها البخارىّ عن مسلم .

أخرجه البخارىّ فى: ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٤ ـ باب الشرط فى الرقية بقطيع من الغنم، حديث رقم ٢٢٦٠ ونصه :

عن ابن عباس أن نفرًا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّوا بماء فيهم لديغ (أو سليم) فعرض لهم رجل من أهل الماء . فقال : هل لديكم من راقٍ ؟ إن فى الماء رجلا لديغا (أو سليما) .

فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء . فبرأ .

فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك ، وقالوا : أخذتَ على كتاب الله أجرًا ؟!

قال العلامة الشوكانىّ : حديث (أحق ما أخذتم عليه أجرًا) عامّ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة لمن طلب من القارىء ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ ما يدفع إلى القارىء من العطاء ، لأجل كونه قارئًا ، ونحو ذلك . فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلًا تحت العموم . وبعض أفراد العامّ فيه ، أدلة خاصة تدل على جوازه ، كما دل العامّ على ذلك . فمن تلك الأفراد أخذ الأجرة على الرقية ، وتعليم المرأة فى مقابلة مهرها . قال : هكذا ينبغى تحرير الكلام فى المقام ، والمصير إلى الترجيح من ضيق العطن . أى : لأنه يصار إليه عند تعذر الجمع ، وقد أمكن ، فكان الأحق ـ والله الموفق ـ .

ولما بين تعالى شأن القرآن العظيم ، وأنه نعمة كبرى على العالمين ، تأثّره ببيان كفرهم بذلك ، على وجه سرى إلى الكفر بجميع الكتب المنزلة ، فقال سبحانه :

= حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله ! أخذ على كتاب الله أجرًا !!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله » .

أما الحديث الذى فيه (اضربوا لى بسهم) فهو حقيقة فى الصحيحين من رواية أبى سعيد الخدرىّ فى قصة مثل قصة الحديث السابق .

فقد أخرجه البخارىّ فى :

٣٧ ـ كتاب الإجارة ، ١٦ ـ باب ما يعطى فى الرقية .

وفى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٩ ـ باب فاتحة الكتاب .

وفى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٣ ـ باب الرقى بفاتحة الكتاب .

وفى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٩ ـ باب النفث فى الرقية

والحديث رقم ١١٣٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ٦٥و٦٦ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللَّهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أي : ما عظموه حق تعظيمه . و (حَقَّ) نصب على المصدرية ، وهو في الأصل صفة للمصدر . أي : قَدْرَهُ الحقَّ، فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه . « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » أي : حين اجترؤوا على التفوه بهذه الجملة الشنعاء ، وذلك منهم مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ ، فألزموا بما لا سبيل لهم إلى إنكاره أصلاً، حيث قيل في جواب سلبهم العام ، بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم :

« قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا » حال من الضمير في (بِهِ)أو من (الْكِتَابِ) ، « وَهُدًى لِلنَّاسِ » أي : ضياء من ظلمة الجهالة ، وبياناً يفرق بين الحق والباطل ، « تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا » : يجزئونه أوراقاً يبدونها للناس مما ينتخبونه . أي : فكيف ينكر إنزال شيء ، وهذا المنزل المذكور ظاهر للعيان . والعدول عن التوراة إلى ذكر الكتاب وصفته ، والحال بعده ـ لزيادة التقريع ، وتشديد التبكيت ، وإلقام الحجر. « وَتُخْفُونَ كَثِيرًا » معطوف على (تُبْدُونَهَا) ، والعائد محذوف . أي : كثيراً منها . أو كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب . أي : وهم يخفون كثيراً . أي : ومع ذلك فالإلزام يكفي بما يبدونه ، المعترف لديهم بحقيته . وفيه نعي على أهل الكتاب بسوء صنيعهم المذكور، إذ ما يريدون بإخفاء كثير منها إلا تبديل الدين .

« وَعُلِّمْتُمْ » أي : على لسان محمد ﷺ « مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ » من المعارف

التي لا يرتاب في أنها تنزيل رباني ، « قُلِ اللهُ » أي: أنزله الله ، أو الله أنزله . أَمَرَهُ بأن يجيب عنهم ، إشعارًا بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيهاً على أنهم بُهِتُوا ، بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب .

«ثُمَّ» بعد التبليغ وإلزام الحجة « ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ » أي : في باطلهم «يَلْعَبُونَ » أي : يفعلون فعل اللاعب ، وهو ما لا يجرّ لهم نفعاً ، ولا يدفع عنهم ضررًا ، مع تضييع الزمان .

تنبيه :

في هذه الآية قولان :

الأول ـ أنها مكية النزول تبعاً للسورة ، وأن القائل ذلك هم المشركون ، وإلزامهم إنزال التوراة ، لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ، وهذا هو الظاهر .

قال ابن كثير : قال ابن عباس[١] ومجاهد[٢] وعبد بن كثير : هذه الآية نزلت في قريش ، واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأصح ، لأن اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وأما كفار قريش فكانوا ينكرون رسالة النبي ﷺ ، لأنه من البشر ، كما قال تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ[٣] وكقوله تعالى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا[٤] . وكذا قالوا هنا : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ . فألزموا بإنزال

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٢ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٣٥٤١ من التفسير . وصوابه : عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا .

(٣) [١٠ / يونس / ٢] . . . وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ .

(٤) [١٧ / الإسراء / ٩٤] .

الكتاب الذى جاء به موسى ، وهوالتوراة التى علموا هم وكل أحد أن الله أنزلها على موسى تكذيباً لقولهم ، وإيقافاً على عنادهم . ومعلوم ما كان بين قريش ويهود المدينة من التعارف ، وتسليم قريش أنهم أهل كتاب، وأنهم أعلم منهم لأجله ، مما يوجب اعترافهم بحقية التوراة، وأنها منزلة من لدنه تعالى . وعلى هـذا القول ، فالقراءة بالياء التحتية ظاهرة . وعلى قراءة الخطاب ، فهو التفات من خطاب قوم إلى خطاب قوم آخرين . وهو التفات عند الأدباء ـ حكاه الخفاجىّ ـ وإنما جعل من الانتقال عن خطابهم إلى خطاب اليهودية ، تعريضاً لهم بأن إنكارهم إنزال الله تعالى من جنس فعل هؤلاء بالتوراة فى البطلان ، وعدم الإسناد إلى برهان . ثم القول بأن الخطاب فى (عُلِّمْتُمْ) لمؤمنى قريش . لايقتضيه السياق ولا السباق ، وفيه تفكيك للنظم الجليل، كالقول بأنه اعتراض للامتنان على النبىّ ﷺ وأتباعه ، لهدايتهم للمجادلة بالتى هى أحسن . بل الخطاب فيه كسابقه ، والمراد بتعليمهم ، وهم مشركون ، ما يسمعونه ويتلقفونه من النبىّ ﷺ وصحابته ، من فرائد الوحى وفوائده ، مما لا يرتاب فى تنزيلها ، كما أوضحناه قبل .

القول الثانى ـ إن هذه الآية مدنية النزول . ولا يرد أن هذه السورة مكية ، ومناظرات اليهود كانت فى المدينة ، لأن كثيرًا من السور المكية ألحقت بهـا آيات مدنية ، وحينئذ فقولهم (هـذه السورة مكية) أى : إلا ما استثنى مما ألحق بها ، كما أوضحه السيوطىّ فى (الإتقان) وساق له شواهد . وقد أشرنا إلى ذلك أول هذه السورة ، فتذكر !

ثم القائلون بأنها مدنية ، منهم من قال : نزلت فى طائفة من اليهود ، أو فى فنحاص ، أو فى مالك بن الصيف . أخرج ابن جرير[1] من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قالت اليهود : والله ما أنزل الله من السماء كتابا ، فأنزلت .

---

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٠ من التفسير ونصه :

عن ابن عباس قوله : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ =

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ـ مرسلا ـ قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك ابن الصيف ، نخاصم النبيّ ﷺ ، فقال له النبيّ ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ـ وكان حبرا سمينا ـ ؟ فغضب وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ! فقال له أصحابه : ويحك ! ولا على موسى ؟ فأنزل الله : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...) الآية .

قال البغوىّ : وفى القصة أن مالك بن الصيف ، لما سمعت اليهود منه تلك المقالة ، عتبوا عليه ، وقالوا : أليس الله أنزل التوراة على موسى ، فلم قلت : ما أنزل الله من شيء ؟ فقال مالك بن الصيف : أغضبنى محمد ، فقلت ذلك ! فقالوا له : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق ! فنزعوه عن الحبرية . وبعد الوقوف على ذلك ، فلا معنى لاعتراض بعضهم بأن مالك بن الصيف كان مفتخرا بكونه يهوديا متظاهرا بذلك ، ومع هذا المذهب لا يمكنه البتة أن يقول : ما أنزل الله على بشر من شيء ، لأنه تبين أنه قال ذلك متغيظاً ، وقد أخذ الغضب منه مأخذه عنادا ومكابرة ، توصلا لدفع ما يريده. وقد يبلغ الحمق بصاحبه إلى حدٍّ يتبرأ فيه من مذهبه ومعتقده ، إغاظة لخصمه على زعمه . وبوادر اللسان فى حق المولى تعالى وتقدس ، مما لا تغتفر ، ولذا بين تعالى جهل ذلك القائل بقوله : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .

قال العلامة البقاعىّ : لأن من نسب ملكا تام الملك إلى أنه لم يبث أوامره فى رعيته بما يرضيه ليفعلوه ، وما يسخطه ليجتنبوه ، فقد نسبه إلى نقص عظيم . فكيف إذا كانت تلك النسبة كذباً ؟ وإنما أسند إلى الكل ـ والقائل بعضهم ـ لأنهم لم يردّوا على قائله ، ولم

= مِنْ شَيْءٍ . يعنى بنى إسرائيل . قالت اليهود : يا محمد ! أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم! قالوا : والله ! ما أنزل الله من السماء كتاباً .

قال : فأنزل الله : « قُلْ » يا محمد ! « مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ » إلى قوله « وَلَا ءَابَاؤُكُمْ » قال : الله أنزله .

يعاجلوه بالأخذ على يده ، تهويلا للأمر ، وبياناً لأنه يجب على كل من سمع بآية من آيات الله أن يسعى إليها ، ويتعرف أمورها . فمن طعن فيها أخذ على يده بما تصل إليه قدرته ، فقال مشيرًا إلى أن اليهود قائلوا ذلك ، ملزماً لهم بالاعتراف بالكذب ، أو المساواة للأمّيّين فى التمسك بالهوى دون كتاب ، موبخاً لهم ، ناعياً عليهم سوء جهلهم ، وعظيم بهتهم ، وشدة وقاحتهم ، وعدم حيائهم (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ) ؟ أى : قل لهؤلاء السفهاء الذين تجرأوا على هذه المقالة ، غير ناظرين فى عاقبتها ، وما يلزم منها ، توبيخاً لهم ، وتوقيفاً على شنيع جهلهم (مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ) الذى أنتم تزعمون التمسك بشرعه (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أى : أوراقاً مفرقة ، لتتمكنوا بها من إخفاء ما أردتم ، (تُبْدُونَهَا) لِلنَّاسِ أى : تظهرونها للناس ، (وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) أى : منها مما تريدون به تبديل الدين . هذا على قراءة الفوقانية . وعلى قراءة التحتانية التفات مؤذن بشدة الغضب ، مشير إلى أن ما قالوه حقيق بأن يستحيي من ذكره ، فكيف بفعله . وقوله (وَعُلِّمْتُمْ) أى : أيها اليهود بالكتاب الذى أنزل على موسى (مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ) أى : أيها اليهود من أهل هذا الزمان (وَلَا ءَابَاؤُكُمْ) أى : الأقدمون . انتهى كلام البقاعىّ رحمه الله تعالى . وفى قوله (وإنما أسند إلى الكل ...) إلى آخره ، نظر . لأن إسناده ليس إليهم ، لأنهم رضوا به ، لأن القصة السالفة تدل على خلافه .

وللبقاعىّ رحمه الله وجه آخر فى الآية . قال : ويمكن أن تكون مكية ، ويكون قولهم هذا حين أرسلت إليهم قريش تسألهم عنه ﷺ فى أمر رسالته ، فاحتج عليهم بإرسال موسى عليه السلام ، وإنزال التوراة عليه . انتهى . وهو قريب وجيه جدًّا .

وبالجملة، فالآية الكريمة متصادقة مع الأوجه المذكورة ، وتتنزل فى التأويل ، على ما بينا فى كلٍّ تنزيلًا لا شائبة معه لإشكال مّا . وقد استصعب الرازىّ تأويلها ، وأخذ يحاول أسئلة هى على طرف الثُّمام ، بعد النظر فيما بينّا ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا .

لطائف

الأولى ـ قال أبو السعود رحمه الله : ليس المراد بالآية مجرد إلزامهم بالاعتراف بإنزال التوراة فقط ، بل بإنزال القرآن أيضاً ، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم للاعتراف بإنزاله قطعاً ، لما فيها من الشواهد الناطقة به .

الثانية ـ قال أيضاً في قوله تعالى (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أي : تضعونه في قراطيس مقطعة ، وورقات مفرقة ، بحذف الجار ، بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم ، أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة . وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم ، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ، ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة .

الثالثة ـ في قوله تعالى (يبدونها ويخفون كثيرًا) دلالة على أنه لا يجوز كتم العلم الدينيّ عمن يهتدي به . قاله بعض الزيدية .

ولما أبطل تعالى كلمتهم الشنعاء السالفة بتقرير إنزال التوراة ، بين تنزيل ما يصدقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

« وَهَٰذَا » يعني : القرآن ، « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أي : كثير المنافع والفوائد ، لاشتماله على منافع الدارين ، وعلوم الأولين والآخرين ، وما لا يتناهى من الفوائد .

قال الرازيّ : العلوم إما نظرية ، وإما عملية . فالأولى أشرفها. وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه . ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب . وأما الثانية : فالمطلوب إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلوب ، وهو المسمى

بطهارة الأخلاق ، وتزكية النفس . ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده فى هذا الكتاب . ثم جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه ، والمتمسك به ، يحصل له عز الدنيا ، وسعادة الآخرة . انتهى . قال الخفاجى : وقد شوهد ذلك فى كل عصر .

« مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » ، أى: من التوراة أو من الكتب التى أنزلت قبله ، فى إثبات التوحيد ، والأمر به ، ونفى الشرك ، والنهى عنه . وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ .

« وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ » يعنى : مكة . سميت بذلك لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأناً ، وغيرها كالتبع لها ، كما يتبع الفرع الأصل . وفى ذكرها بهذا الاسم ، المنبئ عما ذكر ، إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأض كافة . « وَمَنْ حَوْلَهَا » من أطراف الأرض ، شرقاً وغرباً . كما قال فى الآية الأخرى : لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ(١) . وقوله : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا(٢) . وقال : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا(٣) . وقال تعالى : وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنْ

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ، آلِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . . . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[1] .

وثبت فى الصحيحين[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، وذكر منهن : وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة .

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر ، حتى يؤمن بالنبىّ والكتاب (والضمير يحتملهما) ويحافظ على الصلاة. والمراد بها إما الطاعة مجازاً ، أو حقيقتها. وتخصيصها لكونها أشرف العبادات بعد الإيمان ، وأعظمها خطرا .

قال الرازىّ : ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شىء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة ، كما قال تعالى: وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ[3]

(١) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ...

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم، ١ ـ باب قول الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣١ ونصه :

عن جابر أن النبىّ ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يُعْطَهُن أحدٌ قبلى : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا . فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ . وأحلت لى الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصّة ، وبُعِثتُ للناس عامة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ =

أى: صلاتكم. ولم يقع اسم الكفر على شىء من المعاصى إلا على ترك الصلاة. قال عليه الصلاة والسلام: من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر. فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف ، لا جرم خصها الله بالذكر فى هذا المقام . انتهى

أقول : الحديث المذكور رواه الطبرانىّ فى أوسط معاجمه عن أنس وصحح . وتمامه: فقد كفر جهارا ـ كما فى الجامع الصغير ـ .

أخرج ابن أبى حاتم عن مسروق ، قال فى هذه الآية : أى يحافظون على مواقيتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا » أى : اختلق إفكا ، فجعل له شركاء أو ولدا ، أو أحكاما فى الحل والحرمة ، كعمرو بن لحىّ وأشباهه ، ممن جمل قوله قول الله. «أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» ممن ادعى النبوة كذباً . وهذا يزيد على الافتراء فى دعوى النبوة .

قال البقاعىّ : هذا تهديد على سبيل الإجمال ، كعادة القرآن الجميل ، يدخل فيه كل من اتصف بشىء من ذلك ، كمسيلمة والأسود العنسىّ وغيرهما . ثم قال : رأيت فى كتاب (غاية المقصود فى الرد على النصارى واليهود) لابن يحيى المغربىّ الذى كان من علمائهم فى حدود

= عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، . . .

سنة ٥٦٠ ثم هداه الله للإسلام فبين فضائحهم : إن الربانيين منهم زعموا أن الله يوحى إلى جميعهم فى كل يوم مرات . ثم قال: إن الربانيين أكثرهم عددا، يزعمون أن الله يخاطبهم فى كل مسألة بالصواب . وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم فى الأمم . انتهى.

« وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحى مما يفتريه من القول ، كالنضر بن الحارث . وهذا كقوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا »(١) الآية .

قال المهايمىّ : أى ومن أنكر إعجاز القرآن حتى قال : سأنزل مثل ما أنزل الله، مع أنه قد عرف إعجازه ، فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله ، فكأنه ادعى الإلهية لنفسه . ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة ، فيعلم ما للظالمين فيها ، المبيَّن بقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ » . أى : شدائده وسكراته وكرباته ، « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ » أى : بالضرب والعذاب ، كقوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ(٢) .

« أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ » أى : قائلين لهم : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم، تغليظاً وتوبيخاً وتعنيفاً عليهم . وقد جنح بعضهم إلى أن ما ذكر من مجاز التمثيل . أى : فشبه فعل الملائكة فى قبض أرواحهم ، بفعل الغريم الذى يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف فى استيفاء حقه من غير إمهال . وفى (الكشف) أنه كناية عن ذلك ، ولا بسط ولا قول حقيقة . قال الناصر فى (الانتصاف) : ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة ، على الصور المحكية . وإذا أمكن البقاء على الحقيقة ، فلا معدل عنها . انتهى .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣١] . . . إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٥٠] . . . وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

وقال الحافظ ابن كثير : إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه فى جسده ، وتعصى ، وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم : أخرجوا أنفسكم . انتهى .

أقول : مما يؤيد الحقيقة آية (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى) المتقدمة ، فإنها صريحة . ومراعاة النظائر القرآنية أعظم مايفيد فى باب التأويل .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية حال الكافر عند القبض ، وعذاب القبر . واستدل بها محمد بن قيس على أن لملك الموت أعواناً من الملائكة ـ أخرجه ابن أبى حاتم ـ .

« الْيَوْمَ » أى: وقت الإماتة ، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له . « تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى ، الهوان الشديد ، « بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ » كالتحريف ودعوى النبوة الكاذبة . وهو جراءة على الله متضمنة للاستهانة به ـ قاله المهايمىّ ـ . « وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » حتى قال بعضكم : سأنزل مثل ما أنزل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا » أى : للحساب والجزاء « فُرَادَىٰ » أى : منفردين عن الأموال والأولاد ، وما آثرتموه من الدنيا . أو عن الأعوان والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم . و (فرادى) جمع فريد ، كأسير وأسارى .

« كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : مشبهين ابتداء خلقكم ، حفاة عراة غرلا (يعنى (قلفاً) .

روى الشيخان[١] عن ابن عباس قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس ! إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرْلا ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

ورويا[٢] أيضاً عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : تحشرون حفاة عراة غرْلا . قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ ! قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك .

وروى الطبرى[٣] بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فقالت : يارسول! واسوأتاه ! إن الرجال والنساء يحشرون

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٥ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ قال «إنكم محشورن حفاة عراة غُرْلا» ثم قرأ : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

« وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم . وإن أناساً من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى ! أصحابى ! فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . فأقول ، كما قال العبد الصالح : وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ـ إلى قوله : الْحَكِيمُ » .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٥ ـ باب كيف الحشر ، حديث ٢٤٥١ .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٦ (طبعتنا) .

(٣) الأثر رقم ١٣٥٧٠ من التفسير .

جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟ فقال رسول الله ﷺ : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . لا ينظر الرجال إلى النساء ، ولا النساء إلى الرجال ، شُغِل بعضهم عن بعض .

« وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ » ما تفضلنا به عليكم فى الدنيا ، فشغلتم به عن الآخرة من الأموال والأولاد والخدم والخول « وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » يعنى : فى الدنيا ، ولم تحملوا منه نقيرًا . كناية عن كونهم لم يصرفوه إلى ما يفيد فى الآخرة .

وقد ثبت فى الصحيح[١] أن رسول الله ﷺ قال : يقول ابن آدم : مالى ! مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أولبست فأبليت ، أوتصدقت فأمضيت ؟ وزاد فى رواية: وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس .

« وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ » أى : لله فى الربوبية ، واستحقاق العبادة ، « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ » قرئ بالرفع . أى : شملكم . فإن البين من الأضداد ، يستعمل للوصل والفصل . وبالنصب على إضمار الفاعل ، لدلالة ماقبله عليه . أى : تقطع الأمر ، أو الاشتراك ، أو وصلكم بينكم . أو على إقامته مقام موصوفه . والأصل : لقد تقطع مابينكم ، وقد قرئ به . أى: تقطع مابينكم من الأسباب والوصلات.

« وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : ذهب عنكم ما زعمتم من رجاء الأنداد والأصنام ، كقوله تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ[٢] . وقال تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ[٣] .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٣و٤ (طبعتنا) عن عبد الله بن الشخِّير .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦٦و١٦٧] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا[١] . والآيات فى هذا كثيرة جدًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ، ذَٰلِكُمُ اللهُ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

« إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ » شروع فى بعض مبدعاته الدالة على كمال قدرته ، وعلمه وحكمته ، إثر تقرير شأن توحيده تعالى ، وذلك للتنبيه على أن المقصود الأعظم هو معرفته سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله ، وأنه مبدع الأشياء وخالقها . ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة ، لا هذه الأصنام التى كانوا يعبدونها ، ولتعريف خطئهم فى الإشراك الذى كانوا عليه . والمعنى : أن الذى يستحق العبادة دون غيره ، هو الله الذى فلق الحب عن النبات ، والنواة عن النخلة .

وفى معنى (فالق) قولان :

أحدهما ـ أنه بمعنى خالق . وهو قول ابن عباس فى رواية العوفىّ عنه . وبه قال الضحاك ومقاتل . قال الواحدىّ : ذهبوا بـ (فالق) مذهب (فاطر) . وأنكر الطبرىّ[٢] هذا ، وقال: لا يعرف فى كلام العرب (فلق الله الشىء) ، بمعنى خلق . ونقل الأزهرىّ عن الزجاج جوازه . وكذا المجد فى القاموس .

قال الرازىّ : (الفطر) هو الشق ، وكذلك (الفلق) . فالشىء قبل أن دخل فى الوجود كان معدوماً محضاً ، ونفياً صرفاً . والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ،

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] ... وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .
(٢) انظر الصفحة ٥٥٢ من الجزء الحادى عشر (طبعة المعارف)

ولا انفلاق ، ولا انشقاق . فإذا أخرجه المبدع الموجد من العدم إلى الوجود ، فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وفلقه ، وأخرج ذلك المحدَث من ذلك الشق . فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمبدع .

والقول الثانى ـ وهو قول الأكثرين : أن الفلق هو الشق . وفى معناه وجهان :

أحدهما ـ مروىّ عن ابن عباس قال : فلق الحبة عن السنبلة ، والنواة عن النخلة . وهو قول الحسن والسدّى وابن زيد . قال الزجاج : يشق الحبة اليابسة ، والنواة اليابسه ، فيخرج منها ورقاً أخضر .

الوجه الثانى ـ وهو قول مجاهد : أنه الشقان اللذان فى الحب والنوى .

وضعف بأنه لا دلالة فيه على كمال القدرة .

و (الحب) : ماليس له نوى ، كالحنطة والشعير والأرز .

و (النوى) : جمع نواة ، وهو الموجود فى داخل الثمرة ، مثل نوى التمر والخوخ وغيرهما .

قال الإمام الرازىّ : إذا عرفت ذلك ، فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ، ثم مرّ به قدر من المدة ، أظهر الله تعالى فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقاً ، ومن أسفلها شقاً آخر ، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض ، المسماة بعروق الشجرة . وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الشجرة الصاعدة فى الهواء بالشجرة الهابطة فى الأرض .

ثم إن ههنا .

عجائب :

فإحداها ـ أن طبيعة تلك الشجرة ، إن كانت تقتضى الهوىّ فى عمق الأرض ، فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء ؟ وإن كانت تقتضى الصعود فى الهواء ، فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الأرض ؟ فلما تولد منها الشجرتان، مع أن الحس والعقل

يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى ـ علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين والاختراع .

وثانيها ـ أن باطن الأرض جرم كثيف صلب، لاتنفذ المسلّة القوية فيه ، ولا يغوص السكين الحادّ القويّ فيه. ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق فى غاية الدقة واللطافة ، بحيث لو دلكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة ، لصارت كالماء ، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ فى تلك الأرض الصلبة ، والغوص فى بواطن تلك الأجرام الكثيفة . فحصول هذه القوى الشديدة ، لهذه الأجرام الضعيفة التى هى فى غاية اللطافة ، لابد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .

وثالثها ـ أنه يتولد من تلك النواة شجرة ، ويحصل فى تلك الشجرة طبائع مختلفة ، فإنّ قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة ، وفى داخل ذلك القشر جرم الخشبة ، وفى وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف، يشبه العهن المنفوش . ثم إنه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ، ويتولد على الأغصان الأوراق أولًا ، ثم الأزهار والأنوار ثانياً ، ثم الفاكهة ثالثاً . ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر : مثل الجوز ، فإن قشره الأعلى هو ذلك الأخضر، وتحته ذلك القشر الذى يشبه الخشب ، وتحته ذلك القشر الذى هو كالغشاء الرقيق المحيط باللب ، وتحته ذلك اللب . وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف ، وهو أيضاً كالقشر ، وعلى جرم لطيف ، وهو الدهن . وهو المقصود الأصلىّ . فتولدُ هذه الأجسام المختلفة فى طبائعها وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها ، مع تساوى تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربعة ، والطبائع الأربع ـ يدل على أنها إنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر ، لا بتدبير الطبائع والعناصر .

ورابعها ـ أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة فى الفاكهة الواحدة ، فالأترج : قشره حارّ يابس ، ولحمه بارد رطب، وحماضه بارد يابس ، وبزره حار يابس . وكذلك العنب : قشره

وعَجَمُهُ بارد يابس ، وماؤه ولحمه حارّ رطب . فتولدُ هذه الطبائع المتضادة ، والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة ـ لابد وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار .

وخامسها ـ أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة ، فبعضها يكون اللب فى الداخل ، والقشر فى الخارج ، كما فى الجوز واللوز . وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة فى الخارج ، وتكون الخشبة فى الداخل ، كالخوخ والمشمش . وبعضها يكون النواة لها لبّ ، كما فى نوى المشمش والخوخ . وبعضها لا لب له ، كما فى نوى التمر . وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر ، بل يكون كله مطلوباً ، كالتين . فهذه أحوال مختلفة فى هذه الفواكه . وأيضاً هذه الحبوب مختلفة فى الأشكال والصور ، فشكل الحنطة كأنه نصف دائرة ، وشكل الشعير كأنه مخروطان انصلا بقاعدتيهما ، وشكل العدس كأنه دائرة ، وشكل الحمص على وجه آخر . فهذه الأشكال المختلفة لابد وأن تكون لأسرار وحِكَمٍ ، عَلِمَ الخالق أن تركيبها لا يكمل إلا على ذلك الشكل . وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى فى كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ، ومنفعة أخرى . وأيضاً فقد تكون الثمرة الواحدة غذاءً لحيوانٍ ، وسمًّا لحيوان آخر . فاختلاف هذه الصفات والأشكال والأحوال ، مع اتحاد الطبائع ، وتأثيرات الكواكب ، يدل على أن كلها إنما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم .

وسادسها ـ أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة ، وجدت خطًّا واحدًا مستقيماً فى وسطها ، كأنه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان . وكما أنه ينفصل من النخاع أعصاب كثيرة ، يمنة ويسرة ، فى بدن الإنسان ، ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب أُخر ، ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والأبصار ، بسبب الصغر . فكذلك فى تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسطانىّ خطوط منفصلة ، وعن كل واحد منها خطوط مختلفة أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال يبقى على هذا المنهج ، حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر . والخالق تعالى إنما فعل ذلك ، حتى إن القوى الجاذبة

المركوزة فى جرم تلك الورقة ، تقوى على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية فى تلك المجارى الضيقة . فلما وقفت على عناية الخالق فى إيجاد تلك الورقة الواحدة ، علمت أن عنايته فى تخليق جملة تلك الشجرة أكمل ، وعرفت أن عنايته فى تكوين جملة النبات أكمل . ثم إذا عرفت أنه تعالى إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان ، علمت أن عنايته بتخليق الحيوان أكمل . ولما عرفت أن المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الإنسان ، علمت أن عنايته فى تخليق الإنسان أكمل . ثم إنه تعالى إنما خلق النبات والحيوان فى هذا العالم ليكون غذاءً ودواءً للإنسان بحسب جسده ، والمقصود من تخليق الإنسان هو المعرفة والمحبة والخدمة ، كما قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[1] . فانظر أيها المسكين بعين رأسك فى تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقة تلك العروق والأوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها ، حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة فى الأرواح البشرية ، فحينئذ ينفتح لك باب من المكاشفات لا آخر له ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله فى حقك غير متناهية ، كما قال: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا[2] . وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقة تلك الورقة من الحبة والنواة . فهذا كلام مختصر فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ . ومتى وقف الإنسان عليه أمكنه تفريقها وتشعيبها إلى ما لا آخر له . ونسأل الله التوفيق والهداية . انتهى كلام الرازىّ رحمه الله تعالى .

« يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ » كالحيوان من النطفة ، والنبات الغض الطرىّ من الحب اليابس ، « وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ » كالنطفة والحب « مِنَ الْحَىِّ » كالحيوان والنبات .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] ونصها : وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

و [١٦ / النحل / ١٨] ونصها : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« ذَٰلِكُمُ اللهُ » أي : الفالق للحَب والنوى ، والمخرج الحىّ من الميت وعكسه ، هو الله ، القادر العظيم الشأن ، المستحق للعبادة وحده .

« فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ » أى : تصرفون عنه إلى غيره .

قال الرازىّ : والمقصود منه أن الحىّ والميت متضادان متنافيان ، فحصول المثل عن المثل، يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . أما حصول الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . بل لابد وأن يكون بتقدير المقدر الحكيم ، والمدبر العليم .

تنبيه :

ذهب الزمخشرىّ ومن تبعه إلى أن قوله تعالى : (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ) عطف على (فَالِقُ) لا على (يُخْرِجُ الْحَىَّ) ، لأنه بيان لفالق الحب والنوى ، وهذا لا يصلح للبيان . وإن صح عطف الاسم المشتق على الفعل وعكسه ، كقوله (صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ)[1] . والصحيح أنه معطوف على (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) واشتماله على زيادة فيه ، لا يضر ذلك بكونه بياناً . كما أن (مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ) بيان مع شموله للحيوان والنبات . وفيه من البديع التبديل ، كقوله تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ)[2] .

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٩] ونصها : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٦١] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

و [٣١ / لقمان / ٢٩] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

قال فى (الانتصاف) : وقد وردا جميعاً بصيغة الفعل كثيراً فى قوله : (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)(١) وقوله (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ)(٢) فعطفُ أحد القسمين على الآخر، كثيراً دليلٌ على أنهما توأمان مقترنان ، وذلك يبعد قطعه عنه فى آية الأنعام هذه وردّه إلى (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ). فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة فى هذه الآية من قوله (فَالِقُ الْحَبِّ) و (فَالِقُ الإِصْبَاحِ) و (جَاعِلُ اللَّيْلِ) و (مُخْرِجُ الْحَىِّ مِنَ الْمَيِّتِ) إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فى هذا الوصف وحده ، وهو قوله (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) إرادة لتصوير إخراج الحىّ من الميت ، واستحضاره فى ذهن السامع . وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أدائهما الفعلُ المضارع دون اسم الفاعل

= و [٣٥ / فاطر / ١٣] ونصها : يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

و [٥٧ / الحديد / ٦] ونصها : يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٤] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٣١] ونصها : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

والماضى . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) فعدل عن الماضى المطابق لقوله (أَنْزَلَ) لهذا المعنى ، ومنه ما فى قوله(٢):

بأنى قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحَانِ
فأضربُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صريعاً لليدينِ وللجِرانِ

(١) [٢٢ / الحج / ٦٣] . . . إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

(٢) من شواهد الكشاف . قال الشارح :

فى سورة الملائكة عند قوله تعالى : وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ . حيث قال (فَتُثِيرُ) بلفظ المضارع دون ما قبله وما بعده ، ليحكى الحال التى يقع فيها إثارة الرياح السحابَ ، ويستحضر الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك ، كما فى قول تأبط شرا: بأنى قد لقيت الغول تهوى . . . الخ .

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيها ، بزعمه ، على ضرب الغول . كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة .

وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها ، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة ، قيل فسقناه فأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدلّ عليه .

والغول السعالى . والعرب تسمّى كل داهية غولا . واختلف فى وجوده . فمهم من ينكر وجوده أصلا ، والقائل يثبت وجوده ويقول : لقيت الغول تهوى ، أى: تهبط . بسهب أى فضاء بعيد عن الأرض والصحيفة الكتاب . وقاع صحصحان وصعصعان أى مستوٍ . والجِران مقدّم العنق من مذبحه إلى منحره .

فعدل إلى المضارع إرادةً لتصوير شجاعته ، واستحضارها لذهن السامع . ومنه (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً)[٢] فعدل عن (مُسَبِّحَاتٍ) وإن كان مطابقاً لـ (مَحْشُورَةً) لهذا السبب ـ والله أعلم ـ . ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما يكون العناية به أقوى . ولا شك أن إخراج الحيّ من الميت أشهر في القدرة من عكسه . وهو أيضاً أول الحالين ، والنظر أول مايبدأ فيه . ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحيّ بَانَ عنه ، فكان الأول جديرًا بالتصدير والتأكيد في النفس ، ولذلك هو مقدم أبدًا على القسم الآخر في الذكر ؛ حسب ترتيبهما في الواقع . وسهل عطف الاسم على الفعل وحسّنه . أن اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع ، فكل واحد منهما يقدّر بالآخر ، فلا جناح في عطفه عليه ـ والله أعلم ـ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وقوله تعالى « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ » خبر آخر لـ(إنّ) ، أو لمبتدأ محذوف . و(الْإِصْبَاحِ) مصدر سمي به الصبح . قال امرؤ القيس[٢] :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألَا انْجَلِي ... بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَلِ

---

(١) [٣٨ / ص / ١٨و١٩] ... كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ .

(٢) من معلقته التي أولها :

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ ... بسِقْط اللوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرح البيت :

هذا البيت متعلق بما قبله . لأن تقديره : فقلت له : ألا أيها الليل الطويل ألا انجل. =

أي : شاقُّه عن ظلمة الليل « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً » أي : صيّر الظلام يسكن إليه ، ويطمئن به، استرواحاً من تعب النهار . أو يسكن فيه الخلق ، أي : يقرّوا ويهدؤا (من السكون) ـ وهو الأظهر لقوله (لِتَسْكُنُوا فِيهِ) ـ وقرىء (وَجَاعِلُ اللَّيْلِ) .

« وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً » أي : على أدوار مختلفة ، لتحسب بهما الأوقات التي نيط بهاالعبادات والمعاملات. كما ذكره فيسورة يونس فيقوله[٢] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) .

« ذَٰلِكَ » أي التسيير بالحساب المعلوم « تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ » أي : الغالب على أمره ، « الْعَلِيمِ » بتدبيرهما ، ومراعاة الحكمة في شأنهما .

= أي انكشف بإقبال الصبح . ثم رجع فقال : وما الإصباح فيك بأمثل . أي إذا جاء الصبح فأنا مغموم كما كنت في الليل . فليس الصبح بأمثل من الليل .

وقال الأصبهانيّ : معنى قوله (بأمثل) أن الصبح قد يجيء والليل مظلم . يقول : ليس الصباح بأمثل وهو فيك . أي أريد أن يجيء مجيئاً منكشفاً متجلياً ، لا سواد فيه . كما قال البحتريّ ، وإلى هذا أشار فقال :

فأزرق الفجر يأتي قبل أبيضه وأولُ الغيث طَلٌّ ثم ينسكب

قال الأصبهانيّ : ولو أراد أن الصباح ليس بأمثل من الليل ، لقال : منك بأمثل . اهـ .

(١) [١٠ / يونس / ٦٧] ونصها : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

و [٢٨ / القصص / ٧٣] ونصها : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٥] ونصها : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازى : قوله تعالى (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ...) الآية ، نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته . فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان . والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية . وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية. ثم قرر الحجة من وجوه عديدة ، وأجاد رحمه الله .

الثانى ـ قرىء (الْأَصْبَاحِ) بفتح الهمزة، على أنه جمع صُبْح ، كقُفْل وأقفال .

الثالث ـ فى (البحر الكبير) : أن السنة الشرعية قمرية لا شمسية ، والشمسية مما حدث فى دواوين الخراج ، وإنما أضيف الحساب فى الآية إليهما ، لأن بطلوع الشمس ومغيبها يعرف عدد الأيام التى تتركب منها الشهور والسنون ، فمن هنا دخلت ـ انتهى .

الرابع ـ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم ، كما ذكر فى هذه الآية ، وكما فى قوله : (وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(١) ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة (حم السجدة) قال : (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(٢). انتهى .

وفى (العزة) معنى القهر ، أى : الذى قهرهما بجعلهما مسخرين ، لا يتيسر لهما إلا ما أريد

---

(١) [٣٦ / يس / ٣٧و٣٨] .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

بهما ، كما قال : (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ)[١] ، ومعنى القدرة الكاملة أيضاً .

قال الرازى : (الْعَزِيزِ) إشارة إلى كمال قدرته ، و (الْعَلِيمِ) إشارة إلى كمال علمه . ومعناه : أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيآتها المحدودة ، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة فى البطء والسرعة ، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات ، وعلم نافذ فى جميع المعلومات من الكليات والجزئيات . وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة . وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار ـ والله أعلم ـ .

الخامس ـ أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : (حُسْبَانًا) قال : يعنى عدد الأيام والشهور والسنين . وقال قتادة : يدوران فى حساب . قال السيوطى : فالآية أصل فى الحساب والميقات . انتهى .

ثم بيّن تعالى نعمته فى الكواكب ، إثر بيان نعمته فى النيّرين إعلاماً بكمال قدرته وحكمته ورحمته بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى :

---

(١) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

فى ظلمات الليل فى طرق البر والبحر « قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ » أى : بينا الآيات على قدرته تعالى وحكمته واليوم الآخر « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : وجه الاستدلال بها. وإنما خلقت للاستدلال المتأثر بالعمل بموجبها ، ألا وهو الاستدلال بها على معرفة الصانع الحكيم ، وكمال قدرته وعلمه واستحقاقه العبادةَ وحده .

تنبيهـــان

الأول ـ ذكر تعالى فى غير هـذه السورة كون هذه الـكواكب زينة للسماء ، وكونها رجوماً للشياطين. قال بعض السلف : من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ـ نقله ابن كثير ـ .

أقول : مراده اعتقادٌ منافٍ للعقد الصحيح لا اعتقاد حِكَمٍ وإسرار غير الثلاث فيها ، إذ فوائد المـكونات غير محصورة . وذكر حكمةٍ فى مكوّن لا ينفى ما عداها ـ فافهم !

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى الميقات ، وأدلة العقليات .

ثم بين تعالى نوعاً آخر من نعمه ، وأدلة قدرته الباهرة بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)

«وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» يعنى : آدم عليه السلام «فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ» قرىء (مُسْتَقِرٌّ) بفتح القاف وكسرها ، وأما (مُسْتَوْدَعٌ) فبفتح الدال لا غير . وهما، على الأول، إما مصدران ، أى : فلكم استقرار واستيداع ؛ أو اسما مكان ، أى : موضع استقرار واستيداع . والاستقرار إما فى الأصلاب ، أو فوق الأرض ، لقوله تعـالى : (وَلَكُمْ

فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ)(١) أو فى الأرحام ، لقوله تعالى : (وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ)(٢) أو الاستيداع فى الأرحام ، فجعل الصلب مستقرّ النطفة ، والرحم مستودعها، لأنها تحصل فى الصلب ، لا من قبل شخص آخر ، وفى الرحم من قبل الأب ، فأشبهت الوديعة ، كأنّ الرجل أودعها ما كان عنده ، أو فى الأصلاب ، أو تحت الأرض ، أو فوقها ، فإنها عليها ، أو وضعت فيها لتخرج منها مرة أخرى كقوله(٣) :

وما المال والأهلون إلا ودائعُ ولابدّ يوماً أن تردّ الودائعُ

ونقل الرازىّ عن الأصمّ أن المستقر مَنْ خُلِقَ من النفس الأولى ، ودخل الدنيا واستقر فيها. والمستودع الذى لم يخلق بعد وسيخلق. وجعل أبو مسلم الأصفهانىّ (المستقر) كناية عن الذكر ، و (المستودع) كناية عن الأنثى . قال : إنما عبر عن الذكر بـ (المستقر) لأن النطفة إنما تتولد فى صلبه ، وإنما تستقر هناك . وعبر عن الأنثى بـ (المستودع) لأن رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة ـ والله أعلم ـ .

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٦] ونصها : فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . .

(٢) [٢٢ / الحج / ٥] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .

(٣) قائله لبيد من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبْلَى النُّجُومُ الطوالعُ وتبقى الجبالُ بَعْدَنَا والمَصَانِعُ

وعلى قراءة (مستقِر) بكسر القاف اسم فاعل ، أى : فمنكم قارّ ، ومنكم مستودع . ووجه كون الأول معلوماً ، والثانى مجهولا ، كون الاستقرار صادرا منّا دون الاستيداع .

قال الرازىّ : مقصود الآية أن الناس إنما تولدوا من شخص واحد وهو آدم عليه السلام. ثم اختلفوا فى المستقر والمستودع بحسب الوجوه المذكورة فنقول : الأشخاص الإنسانية متساوية فى الجسمية، ومختلفة فى الصفات التى باعتبارها حصل التفاوت فى المستقر والمستودع. والاختلاف فى تلك الصفات لابدّ له من سبب ومؤثّر ، وليس السبب هو الجسمية ولوازمها ، وإلا لامتنع حصول التفاوت فى الصفات ، فوجب أن يكون السبب هو الفاعل المختار الحكيم . ونظير هذه الآية فى الدلالة قوله تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾(١) .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ » قال الزمخشرىّ : فإن قلت ، لِمَ قيل (يعلمون) مع ذكر النجوم ، و(يفقهون) مع ذكر إنشاء بنى آدم؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا . فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنة وتدقيق نظر ، مطابقاً له . انتهى ـ وهذا بناء على أن الفقه شدة الفهم والفطنة ، ومن قال : إنه الفهم مطلقاً ، وليس بأبلغ من العلم ـ قال : إنه تفنن ، حذرا من صورة التكرير .

قال الناصر فى (الانتصاف): جواب الزمخشرىّ صناعىّ ، وإلا فلا يتحقق هذا التفاوت، ولا سبيل إلى الحقيقة . قال : والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين فى اللفظ ، لما فى ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة ، تحسيناً للنظم ، واتساقا فى البلاغة . ويحتمل

(١) [٣٠/ الروم/ ٢٢] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ .

وجها آخر فى تخصيص الأولى بالعلم ، والثانية بالفقه . وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لايتدبر آيات الله،ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المذكورة أولًا خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها ، وعلم الحكمة الإلهية فى تدبيره لها ، أمر خارج عن نفس الناظر . ولا كذلك النظر فى إنشائهم من نفس واحدة ، وتقلباتهم فى أطوار مختلفة ، وأحوال متغايرة ، فإنه نظرٌ لا يعدو نفس الناظر ، ولا يتجاوزها . فإذا تمهد ذلك ، فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله ، وعدم النظر فيها والتفكر، أبشعُ من جهله بالأمور الخارجة عنه ، كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها . فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم ، نُفِيَ من أبشع القبيلين جهلا ، وهم الذين لايتبصرون فى أنفسهم ، ونفيُ الأدنى أبشع من نفي الأعلى درجة ، فخص به أسوأ الفريقين حالا .و(يفقهون)ههنا مضارع فقِهَ الشيء ـ بكسر القاف ـ إذا فهمه، ولو أدنى فهم. وليس من(فقُه) بضم القاف، لأن تلك درجة عالية ، ومعناه صار فقيها ـ قاله الهروىّ فى معرض الاستدلال على أن (فقه) أنزل من (علم)ـ . وفى حديث سلمان(١) أنه قال ، وقد سألته امرأة جاءته : فقِهتْ أى : فَهِمَتْ ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه . وإذا قيل : فلان لا يفقه شيئاً كان أذمّ فى العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئاً. وكأن معنى قولك : (لا يفقه شيئاً) ليست له أهلية الفهم وإن فهِّم . وأما قولك (لا يعلم شيئاً) فغايته نفي حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم ، لو يعلّم . والذى يدل على أن التارك للفكرة فى نفسه أجهل وأسوأ حالا من التارك للفكرة فى غيره قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) فخص التبصر

(١) هذا نصه كما جاء فى اللسان :

أنه نزل على نَبَطِيَّة بالعراق ، فقال لها : هل هنا مكان نظيف أصلّى فيه ؟

فقالتْ : طهِّرْ قلبك وصلّ حيث شئتَ .

فقال سلمان : فَقِهَتْ . أى فهمتْ وفطنتْ للحق والمعنى الذى أرادتْ .

فى النفس بعد اندراجها فيما فى الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر فى نفسه إنكارا مستأنفاً . وقولنا ، فى أدراج الكلام : (إنه نفى العلم عن أحد الفريقين، ونفى الفقه عن الآخر) يعنى : بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة ، والتفقه فيها بقوم. فأشعر أن قوما غيرهم لاعلم عندهم ، ولا فقه ـ والله الموفق ـ فتأمل هذا الفصل، وإن طال بعض الطول . فالنظر فى الحسن غير مملول . انتهى . وهذا من دقة النظر فى الكتاب العزيز ، وإبراز محاسنه ولطائفه .

ثم بين تعالى حجة كبرى على كمال قدرته ، ومنة أخرى من جسيم نعمته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٩] (وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » أى : من السحاب ، لقوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)[١] وسمى السحاب سماء، لأن العرب تسمى كل ماعلا سماء.

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ » التفت إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أى : فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء، مع وحدته « نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ » أى : صنف من أصناف

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٨و٦٩] .

النبات والثمار المختلفة الطعوم والألوان ، كقوله تعالى :(يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)[1] .

« فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ » أي : من النبات ، يعني أصوله «خَضِرًا» أي : شيئاً غضًّا أخضر. يقال : أخضر وخضِر ، كأعور وعوِر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ، « نُخْرِجُ مِنْهُ » صفة لـ (خضرا) وصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة ، لما فيها من الغرابة ، أي: نخرج من ذلك الخضر « حَبًّا مُتَرَاكِبًا » أي : متراً كما بعضه على بعض، مثل سنابل البر والشعير والأرز .

قال الرازيّ: ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الإبر ، والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة .

ثم بين تعالى ماينشأ عن النوى من الشجر، إثر بيان ما ينشأ عن الحب من النبات بقوله سبحانه : « وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ » الطلع : أول ما يبدو من ثمر النخيل كالكيزان يكون فيه العذق ، فإذا شق عنه كيزانه سمي عذقا (بكسر العين وسكون الذال المعجمة بعدها) ـ وهو القنو ، أي : العرجون، بما فيه من الشماريخ ، وجمعه قنوان ـ (مثلث القاف) وهو ومثناه سواء ، لا يفرق بينهما إلا الإعراب.

قال الزمخشريّ : قنوان ، رفع بالابتداء ، و(من النخل) خبره ، و (من طلعها) بدل منه ، كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان . انتهى . وجوّز أن يكون (من النخل) عطفاً على (منه) ، وما بعده مبتدأ وخبر . أي : وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان دانية ، أي : ملتفة ، يقرب بعضها من بعض ، أو قريبة من المتناول ، وإنما اقتصر على

---

(١) [١٣ / الرعد/ ٤] ونصها : وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ذكرها لدلالتها على مقابلها ، أعنى البعيدة ، كقوله تعالى : (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) ولزيادة النعمة فيها « وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ » عطف على (نبات كل شيء) أى : وأخرجنا بهجنات ، أو على (خضرا) . وقال الطيبيّ : الأظهر أن يكون عطفاً على (حبّا) لأن قوله: (نبات كل شيء) مفصل لاشتماله على كل صنف من أصناف النامى ، كأنه قال : فأخرجنا بالنامى نبات كل شيء ينبت كل صنف من أصناف النامى . والنامى : الحب والنوى وشبههما .

وقوله : (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ...) الخ تفصيل لذلك النبات . أى : أخرجنا منه خضرا بسبب الماء ، فيكون بدلا من (فأخرجنا) الأول، بدل اشتمال . ومن ههنا يقع التفصيل ، فبعض يخرج منه السنابل ذات حبوب متكاثرة ، وبعض يخرج منه ذات قنوان دانية ، وبعض آخر جنات معروشات ... الخ .

« وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ » العطف فيه كما تقدم « مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » حال من (الزيتون) ، اكتفى به عن حال ما بعده . أو من (الرمان) لقربه . والمحذوف حال الأول .

قال الزمخشريّ : يقال اشتبه الشيآن وتشابها ، كقولك : استويا وتساويا . والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا . وقرئ : متشابها وغير متشابه . والمعنى : بعضه متشابها، وبعضه غير متشابه فى الهيأة والمقدار واللون والطعم، وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها ، وحكمة منشئها ومبدعها .

« انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : ثمر كل واحد من ذلك إذا أخرج ثمره ، كيف يكون ضئيلا ضعيفاً ، لا يكاد ينتفع به ، « وَيَنْعِهِ » أى : وإلى حال ينعه ونضجه ، كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ . أى : انظروا إلى ذلك نظر اعتبار واستبصار واستدلال ، على قدرة مقدره ومدبره وناقله ، على وفق الرحمة والحكمة ، من حال إلى حال ، فإن فيه آيات عظيمة دالة على ذلك ، كما قال :

«إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى : يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار هو المستحق للعبادة دون ما سواه ، أو هو القادر على أن يحيي الموتى ويبعثهم . قال بعضهم : القوم كانوا ينكرون البعث ، فاحتج عليهم بتصريف ما خلق ، ونقله من حال إلى حال ، وهو ما يعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج أنواع النبات والثمار منها ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى . فبيّن أنه تعالى كذلك قادر على إنشائهم من نفوسهم وأبدانهم ، وعلى البعث بإنزال المطر من السماء ، ثم إنبات الأجساد كالنبات ، ثم جعلها خضرة بالحياة ، ثم تصوير الأعمال بصور كثيرة ، وإفادة أمور زائدة ، وتفريعها ، وإعطاء أطعمة مشتبهة فى الصورة ، غير متشابهة فى اللذة ، جزاء عليها. والله أعلم ـ .

لطيفة :

قال الرازىّ : اعلم أنه تعالى ذكر ههنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان . وإنما قدم الزرع على الشجر ، لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة . وإنما قدم النخل على سائر الفواكه ، لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ، ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة فى خواص كثيرة ، بحيث لا توجد تلك المشابهة فى سائر أنواع النبات . ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : فإنها خلقت من بقية طينة آدم . وإنما ذكر العنب عقيب النخل ، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعاً به إلى آخر الحال . فأول ما يظهر على الشجر ، يظهر خيوط خضر دقيقة حامضة الطعم ، لذيذة المطعم ، وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه . ثم بعده يظهر الحصرم ، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى ، وقد يتخذ الحصرم أشربة لطيفة المذاق ، نافعة لأصحاب الصفراء ، وقد يتخذ الطبيخ منه ، فكأنه ألذ الطبائخ الحامضة . ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه وأشهاها ، ويمكن ادخار العنب المعلق سنة أو أقل أو أكثر ،

وهو فى الحقيقة ألذ الفواكه المدخرة ، ثم يبقى منه أنواع من المتناولات وهى الزبيب والدبس والخل ، ومنافع هذه لا يمكن ذكرها إلا فى المجلدات . وأحسن ما فى العنب عَجَمُهُ ، والأطباء يتخذون منه (جوارشنات) عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة . فثبت أن العنب كأنه سلطان الفواكه .

وأما الزيتون فهو أيضاً كثير النفع ، لأنه يمكن تناوله كما هو ، وينفصل أيضاً عنه دهن كثير ، عظيم النفع فى الأكل ، وفى سائر وجوه الاستعمال .

وأما الرمان فحاله عجيب جدًّا ، وذلك لأنه جسم مركب من أربعة أقسام : قشره وشحمه وعَجَمُهُ وماؤه . أما الأقسام الثلاثة الأول وهى القشر والشحم والعَجَم فكلها باردة يابسة قابضة عفصة قوية فى هذه الصفات . وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات ، فإنه ألذ الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال ، وأشدها مناسبة للطباع المعتدلة ، وفيه تقوية للمزاج الضعيف ، وهو غذاء من وجه ، ودواء من وجه ، فكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين . فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم .

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفى بشرحها مجلدات ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة ، التى هى أشرف أنواع النبات ، واكتفى بذكرها تنبيهاً على البواقى . انتهى .

أقول : حديث (أكرموا عمتكم النخلة) المذكور ، رواه أبو يعلى وابن أبى حاتم والعقيلىّ وابن عدىّ وابن السنىّ وأبو نعيم وابن مردويه عن علىّ رضى الله عنه ، كما فى الجامع الصغير ، ورمز عليه بالضعف .

ولما ذكر تعالى هذه البراهين ، من دلائل العالم العلوىّ والسفلىّ ، على عظيم قدرته ، وباهر حكمته ، ووافر نعمته ، واستحقاقه للألوهية وحده ـ عقبها بتوبيخ من أشرك به والرد عليه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ » أى : جعلوهم شركاءه فى العبادة . فإن قيل : فكيف عُبِدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن ، وأمرهم بذلك . كقوله : (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ . وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)[١] . وكقوله تعالى : (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ...)[٢] الآية . وقال إبراهيم لأبيه : (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا)[٣] . وكقوله : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)[٤] وتقول الملائكة يوم القيامة (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)[٥] .

(١) [٤ / النساء / ١١٧ـ١١٩] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

(٣) [١٩ / مريم / ٤٤] .

(٤) [٣٦ / يس / ٦٠و٦١] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٤١] وَقَالُوا ...

« وَخَلَقَهُمْ » حال من فاعل (جَعَلُوا) ، مؤكدة لما فى جَعْلِهِمْ ، ذلك من كمال القباحة والبطلان ، باعتبار علمهم بمضمونها . أى : وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن (وليس من يخلق كمن لا يخلق) ! وقيل : الضمير للشركاء . أى : والحال أنه تعالى خلق الجن ، فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له ؟ كقول إبراهيم : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)(١) . أى : وإذا كان هو المستقل بالخالقية ، وجب أن يفرد بالعبادة ، وحده لا شريك له .

تنبيه :

ما ذكرناه من معنى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) أنهم أطاعوا الجن فى عبادة الأوثان ، هو ماقرره ابن كثير ، وأيده بالنظائر المتقدمة ، ونقل عن الحسن ، فتكون الكناية لمشركى العرب .

وقيل : المراد بالجن الملائكة ، فإنهم عبدوهم وقالوا عنهم بنات الله . وكلا الأمرين موجب للشريك . أما الأول فظاهر . وأما الثانى فلأن الولد كفء الوالد ، فيشاركه فى صفات الألوهية . وتسمية الملائكة (جنًّا) حقيقة ، لشمول لفظ الجن لهم . وقيل : استعارة . أى : عبدوا ما هو كالجن ، فى كونه مخلوقاً مستترًا عن الأعين .

وذهب بعض السلف ـ منهم الكلبى ـ إلى أنها نزلت فى الثنوية القائلين بأن للعالم إلٰهين : أحدهما خالق الخير وكل نافع . وثانيهما خالق الشر وكل ضار . ونقله ابن الجوزى عن ابن السائب . وحكاه الفخر عن ابن عباس رضى الله عنه ، وأنه قال : نزلت فى الزنادقة الذين قالوا : إن الله وإبليس أَخَوَانِ . فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات ؛ وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور .

قال الرازى : وقول ابن عباس المذكور أحسن الوجوه المذكورة فى هذه الآية ، وذلك ،

(١) [٣٧ / الصافات / ٩٥و٩٦] قالَ...

لأن بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره فى الآيات المتقدمة .

وقوّى ابن عباس قوله المذكور بقوله تعالى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا)(١) . وإنما وصف بكونه من الجن، لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكةُ والروحانيون مستترة من العيون ، فلذلك أطلق لفظ الجن عليها .

قال الفخر : هذا مذهب المجوس . وإنما قال ابن عباس : هذا قول الزنادقة ، لأن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله مسمى بـ (الزند) ، والمنسوب إليه يسمى (زندى) ، ثم عُرّب فقيل : (زنديق) ، ثم جمع فقيل : (زنادقة) . واعلم أن المجوس قالوا : كل ما فى هـذا العالم من الخيرات فهو من (يزدان) ، وجميع ما فيه من الشرور فهو من (اهرمن) (وهو المسمى بإبليس فى شرعنا) ثم اختلفوا ، فالأكثرون منهم على أن (اهرمن) محدث ، ولهم فى كيفية حدوثه أقوال عجيبة . والأقلون منهم قالوا : إنه قديم أزلىّ . وعلى القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله فى تدبير هذا العالم ، فخيرات هذا العالم من الله تعالى ، وشروره من إبليس . فهذا شرح ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما . وإنما جمع حينئذ فى الآية ، لكونه مع أتباعه كأنهم معبودون .

ثم قال الرازىّ : وقوله تعالى (وَخَلَقَهُمْ) إشارة إلى الدليل القاطع على فساد كون إبليس شريكاً ، وتقريره أنا نقلنا عن المجوس أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس ليس بقديم ، بل هو محدث . إذا ثبت هـذا فنقول : إن كل محدث فله خالق وموجد ، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى. فهؤلاء المجوس يلزمهم القطع بأن خالق إبليس هو الله تعالى . ولما كان إبليس أصلًا لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح ، والمجوس سلّموا أن خالقه هو الله تعالى ، فحينئذ قد سلموا أن إله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد . وإذا كان كذلك امتنع عليهم أن يقولوا : لابد من إلٰهين ، فسقط قولهم . انتهى ملخصاً .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] . . . وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

وقوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ » أى : اختلقوا وافتروْا له « بَنِينَ » كقول أهل الكتابين فى المسيح وعزير « وَبَنَاتٍ » كقول بعض العرب فى الملائكة .

قال الزمخشرىّ : يقال خلق الإفك وخرقه واختلقه بمعنى . وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها . كان الرجل إذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم: قد خرقها والله ! ويجوز أن يكون من (خَرَقَ الثَّوْبَ) إذا شقه : أى اشتقوا له بنين وبنات . وقرىء (وَخَرَّقُوا) بالتشديد للتكثير لقوله (بنين وبنات) .

« بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمياً بقولٍ عن عمى وجهالة ، من غير فكر وروية ، أو بغير علم بمرتبة ما قالوا ، وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادَرُ قدره . وفيه ذم لهم بأنهم يقولون بمجرد الرأى والهوى . وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه تعالى إلا ماجزم به ، وقام عليه الدليل .

ثم نزه ذاته العلية عما نسبوه إليه بقوله : « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ » من أوصاف الحوادث الحسيسة من المشاركة والتوليد .

ثم استدل تعالى على بطلان ما اجترؤوا عليه بوجوه أربعة. بدأ منها بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : مبدعهما بلا مثال سبق . وقيل : بمعنى عديم النظير فيهما . قال أبو السعود : والأول هو الوجه . والمعنى : أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوىّ والسفلىّ ، بلا مادة ، فاعل على الإطلاق ، منزه عن الانفعال بالمرة . والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه ، فكيف يمكن أن يكون له ولد ؟

« أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ » أى : من أين و كيف يكون له ولد ـ كما زعموا ـ والحال أنه ليس له على زعمهم أيضاً صاحبة يكون الولد منها ؟ ويستحيل ضرورة وجودالولد بلاوالدة ، وإن أمكن وجوده بلاوالد . وأيضاً، الولد لايحصل إلا بين متجانسين، ولا مجانس له تعالى .

وقوله تعالى : (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ)جملة مستأنفة ، لتقرير تنزههعنه ، والحاليةبعدها مؤكدة للاستحالة المذكورة .

وقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » جملة أخرى مستأنفة ، لتحقيق ما ذكر من الاستحالة . أو حال ثانية مقررةلها. أى : أنى يكون له ولد والحال أنهخلق كل شيء انتظمه التكوين والإيجاد من الموجودات التي من جملتها ما سموه ولداً له تعالى. فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟ ـ أفاده أبو السعود ـ

« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى : مبالغ في العلم أزلًا وأبدًا . جملة مستأنفة أيضاً ، مقررة لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ، ببطلان مقالتهم الشنعاء . أى : أنه سبحانه لذاته عالم بكل المعلومات ، فلو كان لهولد ، فلابد أن يتصف بصفاته ، ومنها عموم العلم ، وهو لغيره تعالى منفيّ بالإجماع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢](ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

«ذَٰلِكُمْ» أى: الموصوف بما سبق ، البعيد رتبته عن مراتب من يشارك أو ينسب إليه الولادة ، إذ هو « اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ » أى : بالإيمان به وحده ، فإن من جَمَعَ تلك الصفات استحق العبادة وحده . « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى : رقيب وحفيظ ، يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

وقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » جملة مستأنفة ، إما مؤكدة لقوله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فليحذر ، وإماهى مؤكدة لما تقرر قبلُ من تنزهه وتعاليه عن إفكهم أعظم تأكيد ، ببيان أنه لا تراه الأبصارالمعهودة وهى أبصار أهل الدنيا ، لجلاله وكبريائه وعظمته ، فأنى يصح أن ينسب إلى عليائه تلك العظيمة ؟ وذلك لأنه تعالى لم يخلق لأرباب هذه النشأة الدنيوية استعداداً لرؤيته المقدسة .

قال العارف الجليل الشيخ الأكبر قدس سره فى (فتوحاته) : سبب عجز الناس عن رؤية ربهم فى الدنيا ضعف نشأة هذه الدار ، إلا لمن أمده الله بالقوة ، بخلاف نشأة الآخرة لقوتها . وسبب رؤيته تعالى فى المنام كون النوم أخا الموت . وفى الحديث إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا . فما نفى الشارع إلارؤية الله فى الدنيا يقظة . انتهى.

وقال بعضهم : إن الأبصار المعهودة فى الدنيا لا تدركه تعالى، لأن هذه الأحداق مادامت تبقى على هذه الصفات التى هى موصوفة بها فى الدنيا لا تدرك الله تعالى ، وإنما تدركه إذا تبدلت صفاتها ، وتغيرت أحوالها .

وفى الصحيحين[١] من حديث أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ

(١) ليس فى الصحيحين . بل هو مما انفرد به مسلم عن البخارىّ . أخرجه فى :

١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٩٣ (طبعتنا) وهذا نصه :

عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال « إن الله عز وجل لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

قال ابن كثير: وفى الكتب المتقدمة؛ أن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : ياموسى ! إنه لا يرانى حىّ إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده . وقال تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)(١) .

أقول : كون المنفىّ من الإدراك فى هذه الآية هو الإدراك الدنيوىّ خاصة ، لا يحتاج إلى حجة ولا برهان. ومن فهم من بعض الفرق ، كالمعتزلة ، من هذه الآية أن المنفىّ هو الإدراك فى النشأتين ، فقد نادى على نفسه بالجهل بما دل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المتواترة . أما الكتاب فمثل قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)(٢) . وأما السنة فما روى عن جرير بن عبد الله البجلىّ(٣) قال : كنا جلوسا عند النبىّ ﷺ ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامّون فى

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢و٢٣] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث رقم ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعتنا) .

رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها ، فافعلوا. ثم قرأ: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ.

قال ابن كثير : تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجرير وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبيّ ﷺ : أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنات . انتهى

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وأدلة السمع طافحة بوقوع ذلك فى الآخرة لأهل الإيمان دون غيرهم ، ومنع ذلك فى الدنيا . إلا أنه اختلف فى نبينا ﷺ . انتهى.

قال ابن كثير : كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تثبت الرؤيا فى الدار الآخرة ، وتنفيها فى الدنيا ، وتحتج بهذه الآية . انتهى.

فعن مسروق(١) قال : قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أمتاه ! هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت: لقد قفّ شعرى مما قلت! أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ . وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ(٢) ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة والنجم ، ١ ـ باب حدثنا يحي حدثنا وكيع ، حديث ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

وأخرجه الترمذيّ بأطول من هذا السياق فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ـ سورة الأنعام ، ٥ ـ حدثنا أحمد بن منيع .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . . . أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ .

فقد كذب، ثم قرأت[١] : وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً . ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت[٢] : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... الآية . ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين ـ أخرجه الشيخان والترمذى ـ .

وخالفها ابن عباس . فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده. والمسألة تذكر مبسوطة فى أول سورة النجم إن شاء الله تعالى .

ومن الناس من ذهب إلى أن الإدراك ليس هو مطلق الرؤية ، بل هو معرفة الكنه أو الإحاطة .

قال ابن كثير : قال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك . فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفى ما هو ؟ فقيل: معرفة الحقيقة ، فإن هـذا لا يعلمه إلا هو ، وإن رآه المؤمنين ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالعظيم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى .

وقال آخرون: الإدراك أخص من الرؤية، وهو الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم . قال تعالى: وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً[٣] .

---

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] ونصها : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٧] . . . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(٣) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً .

وفى صحيح مسلم[١] : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا . انتهى.

وقال النسفىّ: تشبثُ المعتزلة بهذه الآية لا يستتب ، لأن المنفىّ هو الإدراك لاالرؤية، والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئىّ وحدوده ، وما يستحيل عليه الحدود والجهات ، يستحيل إدراكه ، لارؤيته ، فنزّل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم ، ونفى الإحاطة التى تقتضى الوقوف على الجوانب والحدود ، لا يقتضى نفى العلم به ، فكذا هذا . على أن مورد الآية ، وهو التمدح ، يوجب ثبوت الرؤية ، إذ نفى إدراك ماتستحيل رؤيته . لاتمدح فيه ، لأن كل ما لا يرى لا يدرك ، وإنما التمدح بنفى الإدراك مع تحقق الرؤية ، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية ، دليل ارتفاع نقيصة التناهى والحدود عن الذات ، فكانت الآية حجة لنا عليهم. انتهى.

وقد جود العلامة العضد فى (المواقف) البحث فى هذه الآية ، ونقل شبه المنكرين فيها ، وأجاب عنها . ونحن، لنفاسته ، ننقل كلامه مع شرحه للسيد الشريف قدس سره ، وبعض حواشيه ، ونصه :

الأولى ـ من شبه المنكرين للرؤية السمعية قوله تعالى : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ :

١ ـ والإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية . فمعنى قولك : أدركته ببصرى ، معنى رأيته. لافرق إلا فى اللفظ . أو هما أمران متلازمان لايصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) ونصه : عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش . فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان، وهو يقول « اللهم! أعوذ برضاك من سَخَطك. وبمعافاتك من عقوبتك . وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » .

فـلا يجوز : رأيته وما أدركته ببصرى ولا عكسه . فالآية نفت أن تراه الأبصار وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية فى مقام المبالغة ، فى جميع الأوقات ، لأن قولك : فلان تدركه الأبصار ، لا يفيد عموم الأوقات ، فلابد أن يفيده ما يقابله ، فلا يراه شىء من الأبصار ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، لما ذكرنا .

٢ ـ ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى ، فإنه ذكره فى أثناء المدائح. وما كان من الصفات عدمه مدحاً ، كان وجوده نقصاً ، يجب تنزيه الله عنه ، فظهر أنه يمتنع رؤيته ، وإنمـا قلنا : (من الصفات) احترازا عن (الأفعال) ، كالعفو والانتقام ، فإن الأول فضل ، والثانى عدل ، وكلاهما كمال . والجواب :

أما عن الوجه الأول فى الاستدلال بالآية فمن وجوه :

الأول ـ أن الإدراك هو الرؤية ، على نعت الإحاطة بجوانب المرئى ، إذ حقيقته النيل والوصول ، و(إنا لمدركون) أى ملحقون ، و(أدركت الثمرة) أى : وصلت إلى حد النضج و(أدرك الغلام) أى بلغ . ثم نقـل إلى الرؤية المحيطة ، لـكونها أقرب إلى تلك الحقيقة . والرؤية المـكيفة بكيفية الإحاطة ،أخص مطلقاً من الرؤية المطلقة . فلا يلزم من نفى المحيطة عن البارى سبحانه ، لامتناع الإحاطة ، نفى المطلقة عنه . وقوله (لا يصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر) ممنوع ، بل يصح أن يقال : رأيته وما أدركه بصرى . أى : لم يحط به من جوانبه ، وإن لم يصح عكسه .

الثانى ـ أن (تدركه الأبصار) موجبة كلية ، لأن موضوعها جمع محلًّى باللام الاستغرافية . وقد دخل عليها النفى فرفعها . ورفع الموجبة الـكلية سالبة جزئية . وبالجمـلة فيحتمل قوله : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) إسنادُ النفى إلى الـكل ، بأن يلاحظ أولًا دخول النفى ، ثم ورود العموم عليه ، فيكون سالبة كلية . ونفيُ الإسناد إلى الـكل بأن يعتبر العموم أولًا ، ثم ورود النفى عليه ، فيكون سالبة جزئية. ومع احتمال المعنى الثانى، لم يبق فيه حجة لـكم علينا.

لأن أبصار الكفار لا تدركه، إجماعاً . هذا ما نقوله : لو ثبت أن اللام فى الجمع للعموم والاستغراق، وإلا عكسنا القضية ، فادَّعَيْنا أن الآية حجة لنا وقلنا : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) سالبة مهملة فى قوة الجزئية، فالمعنى: لا تدركه بعض الأبصار، وتخصيص البعض بالنفى يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض ، فالآية حجة لنا لا علينا . انتهى ـ لكن هذا إنما يستقيم إذا كانت المهملة مرادفة للجزئية . وكونها فى قوتها لا يفيد المرادفة . ولهذا اعترض عليه بأن الجنس فى حيّز النفى يفيد العموم اتفاقاً ، نحو : ما جاءنى الرجل . وإنما الاحتمال لعموم السلب ، وسلب العموم عند قصد الاستغراق ، فكيف تعكس القضية على تقدير حمل اللام على الجنس؟ ولو ثبت المرادفة لاندفع الاعتراض ، إذ تصير الآية حينئذ حجة لنا إلزامية ، حيث يرجع قيد البعضية إلى النفى، كما أرجع المستدل قيد العموم، على تقدير الاستغراق، إليه. فتأمل !ـ كذا فى حواشى الجلبى والشروانىّ ـ .

الثالث ـ من تلك الوجوه أنها ـ أى الآية ـ وإن عمت فى الأشخاص باستغراق اللام ، فإنها لا تعم فى الأزمان ، فإنها سالبة مطلقة لا دائمة ، ونحن نقول بموجبه ، حيث لا يرى فى الدنيا .

قال العلامة حسن جلبى : وما استدل به الخصم سابقاً على أنها دائمة، من أن إيجابها لا يفيد عموم الأوقات ، فلابد أن يفيده ما يقابله ـ فجوابُه : أنه إنما يتم إذا كان التقابل بينهما تقابل التناقض ، وهو ممنوع . فإن القضية الموجبة والسالبة ، الغير الموجهتين ، لم توضعا فى العربية لمعنيين متناقضين ، بل لها محامل يحملهما المستعمل حسب ما يريده .

الرابع ـ منها أن الآية تدل على أن الأبصار لا تراه ، ولا يلزم منه أن المبصرين لا يرونه، لجواز أن يكون ذلك النفى المذكور فى الآية ، نفياً للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعاً، كما هو العادة ، فلا يلزم نفى الرؤية بالجارحة مطلقاً . وأما الجواب عن الوجه الثانى وهو قوله : تمدح البارى بأنه لا يرى ، فنقول : هذا مدعاكم ، فأين الدليل عليه ؟ إن قلت : أشير فيما

تقدم إلى دليله بأنه ذكر فى أثناء المدائح ، والمذكور بينهما يجب أن يكون مدحاً ـ قلت : ذلك الدليل إنما يدل على التمدح بنفى المبصرية ، لابنفى الرؤية ، والفرق قدسبق فى الجواب الأول . انتهى .

وإذا ثبت أن سياق الكلام يقتضى أنه تمدح، لم يكن لكم فيه دليل على امتناع رؤيته ، بل لنافيه الحجة على صحة الرؤية ، لأنه لو امتنعت رؤيته لماحصل المدح بنفيها عنه ، إذلامدح للمعدوم بأنه لايرى، حيث لم يكن له ذلك ، وإنما المدح فى عدم الرؤية للمتمنع المتعزز بحجاب الكبرياء ، كما فى الشاهد . انتهى .

وناقش الخيالى قولهم : (لا مدح للمعدوم) بأن عدم مدح المعدوم لاشتماله على معدن كل نقص أعنى : العدم ، فإن أصل المادح والكمالات هو الوجود ، وقد عرا عنه . كما أن الأصوات والروائح لا تمدح بمنع إمكان رؤيتها ، لكونها مقرونة بسمات النقص .

قال : والحق أن امتناع الشىء لا يمتنع التمدح بنفيه ، إذ قد ورد التمدح بنفى الشريك، ونفى اتخاذ الولد فى القرآن ، مع امتناعهما فى حقه تعالى . انتهى .

ووافقه حسن چلبى فى (حواشى شرح المواقف) ، لكنه أجاب بأن المدح بجهة لا يقتضى الكمال من جهات أخر ، وكذا النقصان من جهة لا ينافى المدح بغيرها . انتهى .

وأجاب قره خليل بوجوه :

الأول ـ أن مراد ذلك المستدل هو الإلزام على المعتزلة ، لا تحقيق الاستدلال على جواز الرؤية .

الثانى ـ أن مبنى كلامه على العرف واللغة، فإن أهلهما إذا أرادوا مدح شىء يقولون هذا الشىء مما لا تدركه الأبصار ، أو مما لا تراه العيون ، مع أنها مما تدركه عادة . فهذا القول منهم يدل على إمكان رؤية ذلك الشىء عادة ، بل على وقوعها أيضاً . بخلاف الأصوات والروائح ونحوها ، فإنها ليست مما تدركه الأبصار عادة ، فلا يحسن مدحها بعدم إدراك

الأبصار ، أو بعدم رؤيتها . نعم ! إذا أرادوا مدح الأصوات يقولون : لم تسمعها أذن ، وإذا أرادوا مدح الروائح ، يقولون : لم يشمها أنف .

الثالث ـ إنا قلنا : إن نفى الرؤية فى مقام المدح يدل على إمكان الرؤية ، ولم نقل إن نفى كل شىء فى مقام المدح يدل على إمكان ذلك الشىء ، حتى يرد علينا النقض بنفى الشريك ، أو بنفى اتخاذ الولد فى مقام المدح ، مع أن إمكان المنفى فى صورة النقض نقص ينافى الألوهية ، وإمكان المنفى فيما نحن بصدده ليس نقصاً ، بل هو كمال . انتهى .

قال حسن چلبى : إن قيـــل : يلزم على ثبوت التمدح بنفى الرؤية ، تعززاً وتمنعاً ، أن لا يزول ، لأن زوال ما به التمدح نقص ، فيلزم أن لا يرى فى الآخرة . والجواب : أن ذلك فيما يرجع إلى الصفات . والتمدحُ بنفى الرؤية يرجع إلى التمدح بخلق ضدها ، وهو من قبيل الأفعال ، كما أن خلق الرؤية أيضاً منها . انتهى .

وقد بيناه أولًا ، وسيأتى لذلك تتمة شافية إن شاء الله تعالى عند قوله سبحانه (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ، مما هو أعظم حجة ، وأوضح برهاناً ، والله الموفق.

وقوله تعالى « وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » أى: يرى جميع المرئيات، ويبصر جميع المبصرات، لا يخفى عليـــه شىء منها . « وَهُوَ اللَّطِيفُ » أى : الذى يعامل عباده باللطف والرأفة ، « الْخَبِيرُ » أى : العليم بدقائق الأمور وجلياتها . وجوز أن تـكون الجملة تعليلًا لما قبلها ، على طريقة اللف ، أى : لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير . قيل : فيكون (اللَّطِيفُ) مستعارًا من مقابل الـكثيف ، فشبه به الخفىّ عن الإدراك . وهذا بناء على أنه فى ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم . والتحقيق أن اللطافة المطلقة لا توجد فى الجسم ، لأن الجسمية يلزمها الـكثافة ، وإنما لطافتها بالإضافة ، فاللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق ، الذى يجلّ عن إدراك البصائر ، فضلًا عن الأبصار ، ويعز عن شعور الأسرار ، فضلًا عن الأفـكار ، ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال ،

وينزه عن حلول الألوان والأشكال . فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا شأنه ، ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق ، بل بالقياس إلى ما هو دونه فى اللطافة ، ويوصف بالنسبة إليه بالكثافة ـ كذا حققه البهائىّ فى (شرح الأسماء الحسنى) . وقول الخفاجىّ : (اللطيف المشتق من اللطف بمعنى الرأفة) ، لا يظهر له مناسبة هنا ـ مدفوعٌ بملاحظة أن قوله تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) ذكر للتخويف ، كما أسلفنا ، وحينئذ يناسب أن يشفع ببيان رأفته ورحمته ، جرياً على سنن الترغيب والترهيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

وقوله تعالى « قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : الآيات والدلائل التى تبصرون بها الهدى من الضلالة . جمع (بصيرة) ، وهى الدلالة التى توجب البصر بالشىء ، والعلم به . وجوّز أن يكون المعنى : قد جاءكم من الوحى ما هو كالبصائر للقلوب ، جمع (بصيرة) وهو النور الذى يستبصر به القلب ، كما أن البصر نور تستبصر به العين .

« فَمَنْ أَبْصَرَ » أى : الحقّ بتلك البصائر وآمن به « فَلِنَفْسِهِ » أى : فلنفسه أبصر ، لأن نفعه لها ، « وَمَنْ عَمِيَ » أى : ضل عن الحق . والتعبير عنه بـ (العمى) للتقبيح له ، والتنفير عنه ، « فَعَلَيْهَا » أى : فعلى نفسه عمى ، وإياها ضر بالعمى . « وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » أى : برقيب يرقبكم ، ويحفظكم عن الضلال ، بل أنا منذر ، والله يحفظ أعمالكم ، ويجازيكم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى: نوردها على وجوه كثيرة فى سائر المواضع ، لتكمل الحجة على المخالفين ، « وَلِيَقُولُوا » فى ردها : « دَرَسْتَ » أى : قرأت على غيرك، وتعلمت منه . وحفظت بالدرس أخبار من مضى . كقولهم (فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)(١) .

يقال: درس الكتاب يدرسه دراسة، إذا أكثر قراءته وذلّله للحفظ . قال ابن عباس: (وليقولوا) يعنى : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن (درست) يعنى : تعلمت من يسار وخير ، وكانا عبدين من سبى الروم ، ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله ! وقال الفرّاء : معناه تعلمت من اليهود ـ كذا فى (اللباب) ـ .

وقرىء (دَارَسْتَ) بالألف وفتح التاء . أى: دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية. كقولهم(٢) (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ...) الآية .

ويقرأ « دَرَسَتْ » بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء . أى : مضت وقدمت وتكررت على الأسماع ، كما قالوا : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)(٣) . وهذه القراآت الثلاث

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا . . .

(٢) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٢٥] ونصها : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨ / الأنفال / ٣١] ونصها : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [١٦/النحل/٢٤] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . =

متواترة . وقرىء فى الشواذ (دُرِسَتْ) ماضياً مجهولا . أى : تليت وعفيت تلك الآيات . وقرىء (دَرَّسْتَ) مشددا معلوما ، وتشديده للتكثير أو للتعدية . أى : درّست غيرك الكتب. وقرئ مشددا مجهولا . وقرئ (دورست) بالواو مجهول دارس. ودارست بالتأنيث، والضمير للآيات أو للجماعة : وقرىء « درُست » بضم الراء ، والإسناد للآيات مبالغة فى محوه أو تلاوته ، لأن (فعل) المضموم للطبائع والغرائز . وقرأ أبيّ رضى الله عنه (درس) وفاعله ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو الكتاب ، إن كان بمعنى امحى . و (درسن) بنون الإناث مخففاً ومشددا . وقرىء (دارسات) بمعنى قديمات ، أو بمعنى ذات درس أو دروس ، كـ (عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)[1] . وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : هى دارسات .

« وَلِنُبَيِّنَهُ » أى : القرآن ، وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوماً . أو الآيات ، لأنها فى معنى القرآن .

« لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه .

= و [٢٣ / المؤمنون / ٨٣] ونصها : لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَـٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٢٥ / الفرقان / ٥] ونصها : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

و [٢٧ / النمل / ٦٨] ونصها : لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٦٨ / القلم / ١٥] ونصها : إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨٣ / المطففين / ١٣] ونصها : إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(١) [٦٩ / الحاقة / ٢١] ونصها : فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .

تنبيهان :

الأول ـ قيل : اللام الثانية حقيقة ، والأولى لام العاقبة والصيرورة . أى : لتصير عاقبة أمرهم ، إلى أن يقولوا: درست ، كما فى قوله تعالى:(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)(١) وهم لم يلتقطوه للعداوة ، وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة . فكذلك الآيات صرّفت للتبيين،ولم تصرّف ليقولوا: درست، ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات ، كما حصل التبيين ، فشبه به .

قال الخفاجىّ : وجوّز أن يكون على الحقيقة أبو البقاء وغيره، لأن نزول الآيات لإضلال الأشقياء ، وهداية السعداء. قال تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً)(٢) وقال : الرازىّ : حمل اللام على العاقبة بعيد . لأنه مجاز . وحمله على لام الغرض حقيقة ، والحقيقة أقوى من المجاز. وإن المراد منه عين المذكور فى قوله تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرا. قال ومما يؤكد هذا التأويل قوله (وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ، يعنى : إنا ما بيناه إلا لهؤلاء . فأما الذين لا يعلمون ، فما بينا هذه الآيات لهم ، وإذ لم يكن بيانا لهم ثبت جعله ضلالا لهم . انتهى .

وقيل : هذه اللام لام الأمر ، ويؤيده أنه قرىء بسكونها ، كأنه قيل : وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا هم ما يقولون ، فإنه لا احتفال بهم ، ولا اعتداء بقولهم . وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٨] . . . إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

وفيه نظر ، لأن ما بعده يأباه ، إذ اللام فى (لنبينه) نص فى أنها لام كى . وأما تسكين اللام فى القراءة الشاذة ، فلا دليل فيه ، لاحتمال أنها خففت لإجرائها مجرى كبد ، وكونها معترضة . و (لنبينه) متعلق بمقدر معطوف على ما قبله ، وإن صححه لا يخرجه عن كونه خلاف الظاهر ـ كذا فى (العناية) ـ .

الثانى ـ قال الشريف قدس سره : أفعاله تعالى يتفرع عليها حكم ومصالح متقنة هى ثمراتها ، وإن لم تكن عللا غائية لها ، حيث لولاها لم يقدم الفاعل عليها . ومن أهل السنة من وافق المعتزلة فى التعليل والغرض الراجع منفعته إلى العباد ، وادعى أنه مذهب الفقهاء والمحدثين .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن حقيقة التعليل عند أهل السنة بيان ما يدل على المصلحة المترتبة على الفعل . وأما تفسيره بالباعث الذى لولاه لم يقدم الفاعل على الفعل ، أو عدم اشتراط ذلك ، فهو من تحقيقات المتكلمين ، لاتعلق له باللغة . وأما عند أهل اللغة فهو حقيقة فى ذلك مطلقاً ، والفرق بينها وبين لام العاقبة ، أن لام العاقبة ماتدخل على مايترتب على الفعل وليس مصلحة . وهل يشترط فيها أن يظنه المتكلم غير مترتب أم لا ، حتى يكون فى كلامه تعالى من غير حكاية أم لا ، فيه خلاف ـ كذا فى (العناية) ـ .

ولما حكى تعالى عن المشركين قدحهم فى تصريف الآيات ، أتبعه بالأمر بالثبات على ماهو عليه ، تقوية لقلبه ، وإزالة لما يحزنه ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

« اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من تبليغ الرسالة ، التى هى الآيات المصرفة ، مبالغة فى إلزام الحجة . وقوله « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » اعتراض أكد به إيجاب

الاتباع ، أو حال مؤكدة من (ربك) ، بمعنى : منفردًا فى الألوهية . « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » قال أبو مسلم : أريد بالإعراض الهجران لهم دون الإنذار ، وترك الموعظة . وقال المهايمىّ : أى لا تحزن عليهم إذا أصروا على الشرك والعمى مع هذه البصائر . فإنه تعالى أراد بقاءهم على الشرك والعمى ، لاقتضاء استعدادهم ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » أى : مع استعدادهم ، ولكن جرت سنته برعاية الاستعدادات ، « وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً » أى : هم وإن كان لهم الاستعداد للإيمان فى فطرتهم ، وقد أبطلوه ، فأنت وإن كنت داعياً إلى إصلاح الاستعداد الفطرىّ ، وما جعلناك متولياً عليهم ، تحفظ مصالحهم ، حتى تكون مصلحاً لاستعدادهم الفطرىّ .

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » تدبر عليهم أمورهم ، أو تغيرهم من استعدادهم إلى آخر، بل هو مفوض إلى الله تعالى ، يفعل بهم بمقتضى استعدادهم الطبيعىّ لهم من غير تغيير له ، بل هو مفوّض إلى اختيارهم ـ أفاده المهايمىّ ـ .

تنبيهان :

الأول ـ فى قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر، لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه ، مع توجهه إليه ، بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه ، لعدم صرف اختياره الجزئىّ نحو الإيمان ، وإصراره على الكفر . والزمخشرىّ يفسره بمشيئة إكراه وقسر ، لأن عندهم مشيئة الاختيار حاصلة ألبتة . قال النحرير : وهذه عكازته فى دفع مذهب أهل السنة .

الثانى ـ قال القاشانىّ فى تفسير قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا) : أى كل مايقع ، فإنما يقع بمشيئة الله ، ولاشك أن استعداداتهم التى وقعوا بها فى الشرك ، وأسباب ذلك ، من تعليم الآباء والعادات وغيرها ، أيضاً واقعة بإرادة من الله ، وإلا لم تقع. فإن آمنوا بذلك فبهداية الله ، وإلا فهوّن على نفسك ، فما جعلناك تحفظهم عن الضلال ، وما أنت بموكل عليهم بالإيمان . ولاينافى هذا ما قال فى تعييرهم فيمابعدبقوله : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) لأنهم قالوا ذلك عنادًا ودفعاً للإيمان بذلك التعلل ، لا اعتقادًا . فقولهم ذلك ، وإن كان صدقاً فى نفس الأمر ، لكنهم كانوا به كاذبين ، مكذبين للرسول ، إذ لوصدقوا لعلموا أن توحيد المؤمنين أيضاً بإرادة الله ، وكذا كل دين ، فلم يعادوا أحد . ولوعلموا أن كل شىء لا يقع إلا بإرادة الله لما بقوا مشركين ، بل كانوا موحدين . لكنهم قالوه لغرض التكذيب والعناد ، وإثبات أنه لا يمكنهم الانتهاء عن شركهم ، فلذلك عيّرهم به ، لا لأنه ليس كذلك فى نفس الأمر . فإنهم لم يطلعوا على مشيئة الله ، وأنه كما أراد شركهم فى الزمان السابق ، لم يرد إيمانهم الآن ، إذ ليس كل منهم مطبوع القلب ، بدليل إيمان من آمن منهم. فلم لايجوز أن يكون بعضهم كانوا مستعدين للإيمان والتوحيد ، واحتجوا بالعادة ، وماوجدوا من آبائهم فأشركوا ، ثم إذا سمعوا الإنذار ، وشاهدوا آيات التوحيد ، اشتاقوا إلى الحق ، وارتفع حجابهم فوحّدوا . فلذلك وبخهم على قولهم ، وطلب منهم الحجة على أن الله أرادهم بذلك دائماً ، وأنذرهم بوعيد من كان قبلهم ، لعل من كان فيه أدنى استمداد ، إذا انقطع عن حجته ، وسمع وعيد من قبله من المنكرين ، ارتفع حجابه ، ولان قلبه فآمن ، ويكون ذلك توفيقا له ، ولطفاً فى شأنه ، فإن عالم الحكمة يبتنى على الأسباب . وأمامن كان من الأشقياء

---

(١) [٦/ الأنعام/ ١٤٨] ونصها: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ.

المردودين ، المختوم على قلوبهم ، فلا يرفع لذلك رأساً ، ولا يلقى إليه سمعاً . انتهى .

وليكن هذا على بال منك ، فالمقام دقيق جدًّا ، وسيأتى بيانه فى الآية الآتية إن شاء الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : لا تذكروا آلهتهم، التى يعبدونها، بما فيها من القبائح ، لئلا يتجاوزوا إلى الجناب الرفيع .

روى عبد الرزاق عن قتادة قال : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فنهوا عنه لذلك.

وقال الزجاج : نهوا أن يلعنوا الأصنام التى كانت تعبدها المشركون . انتهى .

فـ (الَّذِينَ يَدْعُونَ) عبارة عن الآلهة ، والعائد مقدر ، والتعبير بـ (الَّذِينَ) على زعمهم أنهم من أولى العلم ، أو بناء على أن سبّ آلهتهم سبّ لهم ، كما يقال : ضربُ الدابة صفعٌ لراكبها . فإن قيل : إنهم كانوا يقرّون بالله وعظمته ، وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء عنده ، فكيف يسبونه ؟ قلنا : لا يفعلون ذلك صريحاً ، بل يفضى كلامهم إلى ذلك ، كشتمهم له ولمن يأمره بذلك مثلًا . وقد فسر (بِغَيْرِ عِلْمٍ) بهذا ، وهو حسن جدًّا . أو أن الغيظ والغضب ربما حملهم على سب الله صريحاً . ألا ترى المسلم قد تحمله شدة غضبه على التكلم بالكفر ؟!

و (عَدْوًا) مصدر ، أى : ظلماً وعدواناً . يقال : عدا عليه عدوًا ، كـ (ضربًا) ، و (عدوّا) كـ (عتوّ) ، و (عداء) كـ (عزاء) ، و (عدوانًا) كـ (سبحان) إذا تعدى

وتجاوز ، وهو مفعول مطلق لـ (تسبوا) من معناه ، لأن السب عدوان . أو مفعول له ، أو حال مؤكدة مثل (بِغَيْرِ عِلْمٍ) ـ كذا فى العناية ـ .

تنبيه :

قال ابن الفرس فى الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم، أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن ، لم يجز أن يُسَبّوا ولا دينهم . قال : وهى أصل فى قاعدة سد الذرائع .

قال السيوطىّ: وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى . وكذا كل فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن الحَسَن يصير قبيحاً إذا كان يحصل بفعله مفسدة .

قال الحاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين :

أحدها : أنها جماد لا ذنب لها .

والثانى : أن ذلك يؤدى إلى المعصية بسبّ الله تعالى .

قال : والذى يجب علينا بيان بغضها ، وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنها لا تستحق العبادة ، وهـذا ليس بسبٍّ . ولهذا قال أمير المؤمنين (يوم صفين) : لا تسبوهم ، ولكن اذكروا قبيح أفعالهم . انتهى .

وقال الزمخشرىّ: فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صح النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصى؟ قلت : رب طاعة عُلِمَ أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة . كالنهى عن المنكر ، هو من أجلّ الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ، ووجب النهى عن ذلك ، كما يجب النهى عن المنكر . فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا

جنازة ، فرأى محمد نساءً ، فرجع. فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية ، لأسرع ذلك في ديننا . قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس بسببٍ لحضور النساء ، فإنهن يحضرنها ، حضر الرجال أو لم يحضروا . بخلاف سب الآلهة . وإنما خيل إلى ابن سيرين أنه مثله ، حتى نبه عليه الحسن . انتهى .

ومنه قال بعض مفسري الزيدية : واعلم أن المعصية إن كانت حاصلة لا محالة ، سواء فعل الحسن أم لا ، لم يسقط الواجب ، ولا يقبح الحسن . انتهى .

وكذا قال الخفاجيّ : إن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة ، وكانت سبباً لها ، وجب تركها . بخلاف الطاعة في موضع فيه معصية ، لا يمكن دفعها . وكثيرًا ما يشتبهان . ولذا لم يحضر ابن سيرين جنازة اجتمع فيها الرجال والنساء ، وخالفه الحسن للفرق بينهما . انتهى.

قال الرازيّ : وفي الآية تأديب لمن يدعو إلى الدين ، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، يكفي في القدح في إلهيتها ، فلا حاجة ، مع ذلك ، إلى شتمها .

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الماضية على الضلال ﴿ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أي : بالبعث بعد الموت ، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ أي : يخبرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا . وذلك بالمحاسبة والمجازاة عليه .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب أهل السنة إلى ظاهر الآية ، من أن المزيّن للكافر الكفر ، وللمؤمن الإيمان ، هو الله تعالى . وذلك لأن صدور الفعل من العبد يتوقف على حصول الداعي ، ولا بد أن يكون ذلك الداعي بخلق الله تعالى . وقد بسط الرازيّ ذلك ، وساق تأويلات المعتزلة الركيكة ، فانظره !

الثاني ـ في قوله تعالى : (فَيُنَبِّئُهُم) الخ وعيد بالجزاء والعذاب . كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلت.

الثالث ـ فيه نكتة سرية ، مبنية على حكمة أبيّة ، وهى أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة . فإن المعاصى سموم قاتلة ، قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة ، كما نطقت به هذه الآية الكريمة ، وكذا الطاعات ، فإنها مع كونها أحسن الأحاسن ، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام [1] : حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات . فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى هذه النشأة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة . وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة ، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها ، لما أن كلاًّ منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى . فليتدبر ! ـ أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » مصدر فى موقع الحال . أى : أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم ، باذلين فى توثيقها طاقتهم « لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ » أى : خارق كما اقترحوا ، « لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ » أى : أمرها فى حكمه وقضائه خاصة ، يتصرف بها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، لا تتعلق بها قدرة أحد ولا مشيئته ، حتى يمكنني أن أتصدى لاستنزالها بالاستدعاء . وهذا سدٌّ لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ، ببيان صعوبة منالها ، وعلو شأنها ـ أفاده أبو السعود ـ

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ١ (طبعتنا) رواه أنس بن مالك .

« وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ » قرىء (إِنَّهَا) بالكسر على الاستئناف ، والمفعول الثانى محذوف ، كأنه قيل : وما يدريكم إيمانهم ؟ ثم أخبرهم بما علم منهم إخباراً ابتدائياً . أو هو جواب سؤال ، كأنه قيل : لم وُبِّخوا ؟ فقيل : لأنها إذا جاءت لا يؤمنون! أو هو مبنى على قوله : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) فإنه أبرز فى معرض المحتمل ، كأنه سأل عنه سؤال شاكّ ، ثم علل بقوله لـ (أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) جزماً بالطرف المخالف ، وبياناً لكون الاستفهام غير جار على الحقيقة . وفيه إنكار لتصديق المؤمنين على وجه يتضمن إنكار صدق المشركين فى المقسم عليه. وهذا نوع من السحر البيانىّ ، لطيف المسلك . هذا على أن الخطاب للمؤمنين ، إذ كانوا يتمنون مجىء الآية طمعاً فى إيمانهم . وقيل : هو للمشركين ، لقراءة : (لَا تُؤْمِنُونَ) ، فيكون فيه التفات . وقرىء (أَنَّهَا) بالفتح ، وعليه فقيل : مقتضى حسن ظن المؤمنين بهؤلاء المعاندين ، حذف (لا) . وتوضيح ذلك بالمثال أنه إذا قيل لك : أكرم زيداً يكافئك ، قلت فى إنكاره : ما أدراك أنى إذا أكرمته يكافئنى ؟! فإن قيل : لا تكرمه فإنه لا يكافئك ، قلت فى إنكاره : ماأدراك أنه لا يكافئنى ؟! تريد : وأنا أعلم منه المكافأة . فمقتضى حسن ظن المؤمنين بالمشركين أن يقال : ومايدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون ، فإثبات (لا) يعكس المعنى ، إلى أن المعلوم لك الثبوت ، وأنت تنكر على من نفى .

وقد وجه الفتح بستة وجوه :

منها ـ جعل (لا) صلة ، كقوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ)[1] ، وقوله تعالى : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)[2] أى: يرجعون . وضعّف الزجاج هذا الوجه ، بأن ما كان لغواً يكون كذلك على جميع التقديرات ، وليس كذلك هنا ، فإن (لا)

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

على قراءة الكسر ليست بصلة . وأجاب الفارسيّ بأنه لم لا يجوز أن يكون لغوًا على أحد التقديرين ، ومفيدًا على التقدير الثانى ؟ انتهى .

ومنها ـ جعل (أنّ) بمعنى (لعل) . قال الخليل : تقول العرب : ائت السوق أنك تشترى لناشيئًا ، أى لعلك . فكأنه تعالى قال : لعلها إذا جاءت لايؤمنون . قال الواحدىّ: « أن » بمعنى « لعل » كثير فى كلامهم ، قال[1] الشاعر :

أَرِينى جَوَادًا مات هَزْلًا لَأننى أَرَى مَا تَرَيْنَ أو بخيلًا مخلَّدًا

وقال عدىّ بن[2] حاتم :

أعاذلَ ما يُدْرِيكِ أنْ منيتى إلى ساعةٍ فى اليومِ أو فى ضُحَى الْغَدِ

ويؤيده أن (يشعركم) و (يدريكم) بمعنى . وكثيرًا ما تأتى (لعل) بعد فعل الدراية، نحو (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزَّكَّىٰ)[3] . وفى مصحف أبىّ (وَمَا أَدْرَاكَ لَعَلَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

ومنها ـ جعل (أن) بمعنى هل .

ومنها ـ جعل الكلام جواب قسم محذوف بناء على أن (إن) فى جواب القسم يجوز فتحها . والذى ارتضاه الزمخشرىّ وتبعه المحققون حمل الكلام على ظاهره ، وأن الاستفهام

---

(١) استشهد به الطبرىّ فى التفسير ، (ج ٣ ص ٧٨ طبعة المعارف) .

قال : يعنى بقوله « أرينى » دلينى عليه وعرفينى مكانه ، ولم يعن به رؤية العين .

واستشهد به مرة أخرى (ج ١٢ ص ٤٢ طبعة المعارف) قال : (لَأَننى) بمعنى لعلنى .

كما استشهد به المؤلف هنا .

(٢) استشهد به الطبرىّ فى التفسير (ج ١٢ ص ٤١ طبعة المعارف) قال : بمعنى (لعلّ منيتى) .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣] .

فى معنى النفى ، والإخبار عنهم بعدم العلم لا إنكار عليهم . والمعنى : وما يدريكم أن الآية التى يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها . يعنى : أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، وأنتم لا تدرون ذلك .

قال فى (الانتصاف) : لما جاءت الآية تفهم، ببادىء الرأى، أن الله تعالى علم الإيمان منهم، وأنكر على المؤمنين نفيهم له ، والواقع على خلاف ذلك. اختلف العلماء (وساق نحو ماقدمنا فى الوجوه) ثم قال : وأما الزمخشرى فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها فى نصابها ، من غير حذف ولا تأويل . فقال قوله السالف . ونحن نوضح اطراده فى المثال المتقدم ، ليتضح بوجهيه فى الآية ، فنقول : إذا حرمت زيدا لعلمك بعدم مكافأته ، فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة ، فلك معه حالتان: حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة تعذره فى عدم العلم بما أحطت به علما . فإن أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه يكافىء ؟ وإن عذرته فى عدم علمه بأنه لا يكافىء قلت : وما يدريك أنه لا يكافىء ؟ يعنى : ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته ، وأنت لا تخبر أمره خبرى . فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين فى عدم علمهم بالمغيب فى علم الله تعالى ، وهو عدم إيمان هؤلاء . فاستقام دخول (لا) وتعين ، وتبين أن سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعذار . انتهى

وفى نفى السبب ، وهو الإشعار ، مبالغة فى نفى المسبب ، وهو الشعور .

قال الخفاجى : وفى نفى المسبب بهذا الطريق مبالغة ليست فى نفيها بدونها ، لأن فى الكناية إثبات الشىء ببينة . وفيه تعريض بأن الله عالم بعدم إيمانهم ، على تقدير مجىء الآية المقترحة لهم ، وتنبيه على أنه تعالى لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون . فعدم الإنزال لعدم الإيمان . و (يشعركم وينصركم) ونحوه ، قرىء بضم خالص وسكون واختلاس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ » عطف على (لا يؤمنون) ، داخل فى حكم (مايشعركم) ، مقيد بما قيد به . أى : ومايشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه . وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكن لا مع توجهها إليه ، واستعدادها لقبوله ، بل لكمال نبوّها عنه ، وإعراضها بالكلية . ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم ، إشعارا بأصالتهم فى الكفر ، وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشىء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار ـ أفاده أبو السعود ـ .

« كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ » أى : بما جاء من الآيات « أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : قبل سؤالهم الآيات التى اقترحوها ، « وَنَذَرُهُمْ » أى : ندعهم « فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى : يترددون متحيرين ، لا نهديهم هداية المؤمنين .

قال أبو السعود (ونذرهم) عطف على (لا يؤمنون) ، داخل فى حكم الاستفهام الإنكارىّ ، مقيد بما قيد به ، مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار ، ومعرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره ، بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق ، مع توجههم إليه ، واستعدادهم له بطريق الإجبار ، بل بأن يخليهم وشأنهم ، بعد ماعلم فساد استعدادهم ، وفرط نفورهم عن الحق ، وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ، ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم ، كما أشرنا إليه . انتهى

وفى (اللباب): فى الآية دليل على أن الله تعالى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وأن

القلوب والأبصار بيده وفى تصريفه ، فيقيم ما شاء منها ، ويزيغ ما أراد منها . ومنه قوله ﷺ (١) : يامقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك . انتهى .

ثم بين تعالى كذبهم فى أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » أى: ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه هنا من آية واحدة ، بل نزلنا إليهم الملائكة ، كما قالوا (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ)(٢) . «وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ» كما قالوا (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٣) ، «وَحَشَرْنَا» أى : جمعنا « عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ » من الحيوانات والنباتات والجمادات ، « قُبُلًا » أى : كفلاء بصحة ما بشروا به وأنذروا « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » لغلوهم فى التمرد والطغيان ، « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » أى : إيمانهم فيؤمنوا ، « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » أى :

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القدر ، ٧ ـ باب ما جاء أن القلوب بين إصبعى الرحمن ، ونصه :

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك » فقلت : يا رسول الله ! آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال « نعم . إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، يقلبها كيف يشاء » .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٤٤ / الدخان / ٣٦] .

إنهم لو أوتوا كل آية لم يؤمنوا ، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكون . أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات .

قال القاشانيّ : وفى الحقيقة لا اعتبار بالإيمان المرتب على مشاهدة خوارق العادات ، فإنه ربما كان مجرد إذعان لأمر محسوس ، وإقرار باللسان ، وليس فى القلب من معناه شيء ، كإيمان أصحاب السامريّ . والإيمان لا يكون إلا بالجنان ، كما قال تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(١) .

تنبيهان :

الأول ـ يقرأ (قُبُلًا) بضم القاف والباء ، وفيه وجهان : أحدهما : هو جمع قبيل بمعنى الكفيل ، مثل قليب وقُلُب ؛ والآخر : أنه مفرد ، كقُبُل الإنسان ودُبُره . وعلى كلا الوجهين هوحال من كلّ . ويقرأ بالضم وسكون الباء على تخفيف الضمة. ويقرأ بكسر القاف وفتح الباء ، وانتصابه على الظرفية . كقولهم : لى قبل فلان حق . أو على الحالية ، وهو مصدر ، أى عياناً ومشاهدة .

الثانى ـ فى قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) حجة واضحة على المعتزلة ، لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى ، حتى الإيمان والكفر . وقد اتفق سلف هذه الأمة ، وحملة شريعتها على أنه ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وللمعتزلة تحيل فى المدافعة بحمل المشيئة المنفية ، على مشيئة القسر والاضطرار . وإنما يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء . وأما وهو القدوة والمتبوع ، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه ، فإلى النار ، وما بعد الحق إلا الضلال.

ثم سلّى تعالى نبيه عما كان يقاسيه من قومه ، بتأسيه بمن سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٤] . . . وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ » أى : مثل ذلك الجعل الذى جعلناه فى حقك ، حيث جعلنا لك عدوّا يضادونك ولا يؤمنون ، جعلنا لكل نبيّ تقدمك عدوّا من مَرَدَة الإنس والجن ، فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك ، كما قال تعالى : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)(١) . وقال ورقة بن نوفل للنبيّ ﷺ(٢) : لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عودى .

« يُوحِي » أى : يلقى ويوسوس « بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ » أى : المموه منه ، المزين ظاهره ، الباطل باطنه ، « غُرُورًا » أى : للضعفاء ، لأن الله تعالى جعلهم أهل الحجاب ، وكذا الغارّين، ليقهرهم بمقتضى استعدادهم . وفى الآية دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بفعل الله سبحانه وتعالى، وخلقه .

قال المهايميّ : لتظهر الحجج بمجادلتهم ، وترتفع شبهاتهم ، ولئلا يقال إنه شخص ساعده الكلّ ليأكلوا أموال الناس ، أو يتواسوا عليهم .

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ» أى : مافعلوا ذلك ، يعنى: معاداة الأنبياء ، وإيحاء الزخارف. وهو أيضاً دليل على المعتزلة . « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : من الكفر، فسوف يعلمون .

ثم عطف على قوله (غُرُورًا) علة ثانية للإيحاء بقوله تعالى :

---

(١) [٤١ / فصلت / ٤٣] . . . إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) هذه قطعة من الحديث الطويل الذى أخرجه البخاريّ فى: ١ ـ كتاب بدء الوحى، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف . روته سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

« وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ » أى : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، ليغرّهم به ، ولتميل إليه « أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » لمساعدته لهم على أهوائهم ، « وَلِيَرْضَوْهُ » أى : لأنفسهم بعد ما مالت إليه قلوبهم ، « وَلِيَقْتَرِفُوا » أى : وليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ، « مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ » أى : من الآثام .

قال القاشانىّ : فتقوى غوايتهم ، ويتظاهرون ، ويخرج ما فيهم من الشرور إلى الفعل ، ويزدادوا طغياناً وتعدياً على النبىّ ، فتزداد قوة كماله ، وتهيج أيضاً بسببه دواعى المؤمنين ، والذين فى استعدادهم مناسبة للنبىّ ، فتنبعث حميتهم ، وتزداد محبتهم للنبىّ ، ونصرهم إياه ، فتظهر عليهم كمالاتهم .

لطيفة :

إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة ، دون ما عداها من الأمور التى يجب الإيمان بها ، وهم بها كافرون ، إشعارًا بما هو المدار فى صَغْوِ أفئدتهم إلى مايلقى إليهم ، فإن لذّات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره ، وآلامها مزينة بالشهوات ، فالذين لايؤمنون بها ، وبأحوال ما فيها ، لايدرون أن وراء تلك المكاره لذات ، ودون هذه الشهوات آلاماً ، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم فى الدنيا بادىء الرأى ، فهم مضطرون إلى حب الشهوات ، التى من جملتها مزخرفات الأقاويل ، ومموّهات الأباطيل . وأما المؤمنون بها ، فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ، ناظرين إلى عواقب الأمور ، لم يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات ، لعلمهم ببطلانها ، ووخامة عاقبتها ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

وقوله تعالى « أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً » على تقدير القول ، كما فى نظائره ، أى : قل لهم : أفغير الله أطلب من يحكم بينى وبينكم ، ويفصل المحق منّا من المبطل . والمعنى : أطلب معبودًا ، لأنهم كانوا يتحاكمون إلى طواغيتهم ـ وهذا عندى أظهر ـ ثم رأيت فى (تنوير المقباس) الاقتصار عليه ، حيث قال (أَبْتَغِى حَكَماً) أعبد ربًّا . وأما كون الآية واردة على قولهم (اجعل بيننا وبينك حكماً) فلا يصح ، لأنهم بمعزل عن الانصياع لذلك .

« وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ » أى : القرآن المعجز ، « مُفَصَّلًا » أى : مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأنتم أمة أمية ، لا تدرون ما تأتون وما تذرون .

وفى الآية .

مسائل :

الأولى ـ قال فى (الإكليل) : استدل الخوارج بقوله تعالى (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً) على إنكارهم التحكيم . قال : وهو مردود ، فإن التحكيم المنكر أن يريد حكماً يحكم بغير ما حكم الله تعالى . انتهى .

قلت : هذا مبنىّ على الوجه الأول ، وقد عرفت أن الأظهر الوجه الثانى ، فلا استدلال، ولا ردَّ .

الثانية ـ قالوا : الحكم أبلغ من الحاكم ، وأدل على الرسوخ ، لما أنه لا يطلق إلا على العادل ، وعلى من تكرر منه الحُكْم ، بخلاف الحاكم .

الثالثة ـ فى الآية تنبيه على أن القرآن الكريم كافٍ فى أمر الدين، مغنٍ عن غيره، ببيانه وتفصيله .

« وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » لما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، ولتصديقه ما عندهم ، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ، ولم يخالط علماءهم . وهذا تقرير لكونه منزلًا من عند الله ببيان أن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى .

« فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » أى : فى أنه منزل من ربك بالحق ، بسبب جحود أكثرهم وكفرهم به ، فيكون من باب التهييج والإلهاب ، كقوله تعالى (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(١) .

قال ابن كثير : هذا كقوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)(٢). قال: وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى وقوعه . ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا أشك ولا أسأل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » وقرئ (كلمات ربك) أى : بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده « صِدْقًا » فى الأخبار والمواعيد « وَعَدْلًا » فى الأقضية والأحكام .

(١) [٦/ الأنعام/ ١٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ . . .

(٢) [١٠ / يونس / ٩٤] .

وقال القاشانيّ : أي تم قضاؤه تعالى في الأزل بما قضى وقدر من إسلام من أسلم ، وكفر من كفر ، ومحبة من أحب ، وعداوة من عادى ، قضاءً مبرماً ، وحكماً صادقاً ، مطابقاً لما يقع ، عادلًا بمناسبة كل قول وكل كمال وحال ، لاستعداد من يصدر عنه واقتضائه له . انتهى .

« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أي: لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل. أوْ لا أحد يقدر أن يحرّفها شائعاً ذائعاً ، كما فعل بالتوراة . على أن المراد بها القرآن ، فيكون ضماناً لها منه تعالى بالحفظ ، كقوله (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[1] .

وقال القاشانيّ : أي لا مبدل لأحكامه الأزلية . انتهى .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : يستدل به من قال إن اليهود والنصارى لم يبدلوا لفظ التوراة والإنجيل ، وإنما بدلوا المعنى ، لأن كلمات الله لا تبدل . انتهى ـ وهو رواية[2] عن ابن عباس ـ أخرجها البخاريّ في آخر صحيحه . وبسط المقام في ذلك الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) . وتقدم لنا في سورة البقرة شذرة من هذا البحث ، فجدد به عهداً .

« وَهُوَ السَّمِيعُ » لما يظهرون من الأقوال « الْعَلِيمُ » أي بما يخفون .

ثم حذر تعالى من الركون إليهم والعمل بآرائهم بقوله :

---

(١) [١٥ / الحجر / ٩] ونصها : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قوله الله تعالى: بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

وانظر في ذلك، وفي مثله ، كتابنا (معجم غريب القرآن، مستخرجاً من صحيح البخاريّ) ففيه كل ما صح عن ابن عباس. ونصه : يحرّفون ، يزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرّفونه يتأولونه على غير تأويله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ » أى : من النـــاس ، وهم الـكفار « يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » أى : عن الطريق الموصل إليه ، بتزيينهم زخارفهم عليك ، ودعوتهم إياك إلى ما هم فيه من اتباع الهوى ، كما قال « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، فهم يقلدونهم ، « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » يكذبون على الله تعالى فيما ينسبون إليه ، كاتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه ، وتحليل الميتة ، وتحريم البحائر . و (إِنْ) فيه وفيما قبله نافية . والخرص : الحَزْرُ والتخمين ، وقد يعبر به عن الـكذب والافتراء ، وأصله القول بالظن ، وقول ما لا يستيقن ويتحقق ـ قاله الأزهرى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » تقرير لمضمون الشرطية ، وما بعدها . وتأكيد لما يفيده من التحذير . أى : هو أعلم بالفريقين ، فاحذر أن تـكون من الأولين . ـ أفاده أبو السعود ـ

تنبيه :

قال الرازىّ : تمسك نفـاة القياس بهذه الآية فقالوا : رأينا أن الله تعالى بالغ فى ذم الـكفار فى كثير من آيات القرآن ، بسبب كونهم متبعين للظن . والشىء الذى يجعـله الله تعالى موجباً لذم الـكفار ، لابد وأن يكون فى المعنى فى أقصى مراتب الذم . والعمل بالقياس يوجب اتباع الظن ، فوجب كونه مذموماً محرّماً . لا يقال : لما ورد الدليل القاطع بكونه حجة ، كان العمل به عملًا بدليل مقطوع ، لا بدليل مظنون . لأنا نقول : هذا مدفوع من وجوه :

الأول ـ أن ذلك الدليـل القاطع إما أن يكون عقلياً ، وإما أن يكون سمعياً ، والأول باطل ، لأن العقل لا مجال له فى أن العمل بالقياس جائز أو غير جائز ، لا سيما عند من ينـكر تحسين العقل وتقبيحه . والثانى أيضاً باطل ، لأن الدليل السمعىّ إنما يكون قاطعاً لو كان متواترًا ، أو كانت ألفاظه غير محتملة لوجه آخر ، سوى هذا المعنى الواحد. ولو حصل مثل هذا الدليل لعلم الناس بالضرورة كون القياس حجة ، ولارتفع الخلاف فيـه بين الأمة . فحيث لم يوجد ذلك ، علمنا أن الدليل القاطع على صحة القياس مفقود .

الثانى ـ هب أنه وجد الدليل القاطع على أن القياس حجة ، إلا أن مع ذلك لا يتم العمل بالقياس إلا مع اتباع الظن . وبيانه أن التمسك بالقياس مبنىّ على مقامين : الأول : أن الحـكم فى محل الوفاق معلل بكذا . والثانى : أن ذلك المعنى حاصل فى محل الخلاف . فهذان المقامان، إن كانا معلومين على سبيل القطع واليقين ، فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء فى صحته . وإن كان مجموعهما ، أو كان أحدهما ظنياً ، فحينئذ لا يتم العمل بهـذا القياس إلا بمتابعة الظن ، وحينئذ يندرج تحت النص الدالّ على أن متابعة الظن مذمومة . والجواب لِمَ لا يجوز أن يقال: الظن عبارة عن الاعتقاد الراجح إذا لم يستند إلى أمارة ، وهو مثل اعتقاد الـكفار. أما إذا كان الاعتقاد الراجح مستندًا إلى أمارة ، فهذا الاعتقاد لا يسمى ظنًّا ، وبهذا الطريق سقط هذا الاستدلال . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

وقوله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » أمر مترتب على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحليل الحرام وتحريم الحلال . وذلك أنهم خاصموا المسلمين فقالوا: ماذبح الله لاتأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ـ أخرجه النسائى[١] عن ابن عباس ـ

(١) أخرجه النسائىّ فى: ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٤٠ ـ باب تأويل قول الله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ .

فنزلت الآية . والمعنى : كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه ، لرفعه تنجيس الموت إياه المانع من الأكل ، لا مما ذكر عليه اسم غيره ، أو مات حتف أنفه .

« إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ » فإن الإيمان بها يقتضى استباحة ما أحله سبحانه ، واجتناب ماحرمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)

وقوله تعالى : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » إنكار لأن يكون لهم شىء يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ماذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب. أى : وأىّ غرض لكم فى أن تتحرجوا من أكله ، وما يمنعكم عنه ؟ « وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ » أى : بيّنه ووضحه .

قال بعض المفسرين : يعنى فى آية المائدة فى قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)... الآية[١] . وردّ بأن المائدة من آخر مانزل بالمدينة ، والأنعام مكية . فالصواب أن التفصيل إمّا

---

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فى قوله تعالى بعد هذه الآية (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...)[١] الآية ، فإنه ذكر بعدُ بيسير ، وهذا القدر من التأخر لا يمنع أن يكون هو المراد ؛ وإما على لسان الرسول، ثم أنزل بعد ذلك فى القرآن . و (فصل) و (حرم) قرىء كل منهما معلوماً ومجهولاً .
ومعنى الآية : لا مانع لكم من أكل ما ذكر ، وقد بين لكم المحرم أكله ، وهذا ليس منه .

« إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ » أى : مما حرم عليكم . أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة ، فيباح لكم .

« وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ » قرئ بفتح الياء وضمها « بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : يضلون فيحرّمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم ، من غير تعلق بشريعة .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ » أى المتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام .

تنبيه :

قال الرازىّ : دلت هذه الآية على أن القول فى الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام . انتهى .

وقال بعض الزيدية : فى الآية دلالة على تحريم الفتوى والحكم بغير دلالة ، ولكن اتباع الهوى .

ولما بين تعالى أنه فصل المحرمات ، أتبعه بما يوجب تركها بالكلية ، فقال سبحانه :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

« وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ » أى : سيئات الأعمال والأقوال الظاهرة على الجوارح « وَبَاطِنَهُ » أى : ما يسرّ منه بالقلب كالعقائد الفاسدة ، والعزائم الباطلة . أو ما يعلن من الذنوب وما يسر منها ، ويستتر فيه .

قال السدىّ : ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه مع الخليلة والصدائق والأخدان . ولا يخفى أن اللفظ عامّ فى كل محرم ، ولذا قال قتادة : أى سره وعلانيته ، قليله وكثيره ، وصغيره وكبيره . كقوله تعالى[١] : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ » أى : يكتسبون . قال الشهاب : الاقتراف فى اللغة الاكتساب ، وأكثر ما يقال فى الشر والذنب . ولذا قيل : الاعتراف يزيل الاقتراف . وقد يرد فى الخير كقوله تعالى[٢] : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) انتهى .

وقد روى[٣] مسلم وغيره عن نوّاس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣٣] . . . وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] ونصها : ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا) .

البرّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .

قال الحاكم : فى الآية دلالة على أن العبد يؤاخذ بأفعال القلب ، كما يؤاخذ بأفعال الجوارح .اهـ. أى : على التفسير الأول فيهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

« وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » أى : عند ذبحه . أى : بأن ذكر عليه اسم غيره ، يعنى : ذبح لغيره تعالى . « وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » والفسق ما أُهِلَّ لغير الله به ، كما فى الآية الآتية آخر السورة . قال المهايمىّ . (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) أى : خروج عن الحسن إلى القبح ، بتناول ما تنجس بالموت بلا مانع عن تأثيره . « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ » أى . يوسوسون « إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ » أى : من الكفار ، « لِيُجَادِلُوكُمْ » أى : فى تحليل الميتة ، « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ » أى : فى تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل ، «إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» أى : لهم مع الله ، فيما يختص به من التحليل والتحريم .

تنبيهات

الأول ـ روى فى سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى ناس إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ! إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله تعالى ، فأنزل الله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) إلى قوله : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » . أخرجه أصحاب السنن[٢] .

وفى رواية لأبى داود فى قوله تعالى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٨ـ١٢١] .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ١٢ ـ باب فى ذبائح أهل الكتاب، حديث ٢٨١٩

لِيُجَادِلُوكُمْ) قال : يقولون ما ذبح اللهُ ـ فلا تأكلوا ، وما ذبحتم أنتم فكلوا ؟ فأنزل الله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ) وفى أخرى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ) ، فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ)[1] .

وعند النسائىّ[2] قال : خاصمهم المشركون ، فقالوا : ماذَبَحَ اللهُ لاتأكلونه ، وماذبحتم أنتم أكلتموه ؟ ـ كذا فى تيسير الوصول .

الثانى ـ دلت الآية على مشروعية التسمية عند الذبح فقيل : باسم الله ، بهذا اللفظ الكريم . وقيل : بكل قول فيه تعظيم له كالرحمن ، وسائر أسمائه الحسنى ، لقوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ)[3] ولقوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا)[4] .

الثالث ـ ماقدمناه من حمل الآية على ما ذبح لغير الله تعالى هو الأظهر فى تأويلها، لقوله تعالى بعدُ : « أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ » ومراعاة النظائر فى القرآن أولى ما يلتمس به المراد .

وقد روى ابن أبى حاتم عن عطاء قال : نزلت فى ذبائح كانت تذبحها قريش على الأوثان ،

---

(١) فى الباب السابق ، حديث ٢٨١٨و٢٨١٧

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٤٠ ـ باب تأويل قوله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . . . أَيًّا مَّاتَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . . . وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وذبائح المجوس . وقد حاول بعضهم أن يقويه فجعل الواو فى قوله : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) حالية ، لقبح عطف الخبر على الإنشاء . قال : والمعنى: لا تأكلوه حال كونه فسقاً . والفسق مجمل يفسره قوله : (أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) ، فيكون النهى مخصوصاً بما أهل لغير الله به ، فيبقى ما عداه حلالاً ، إما بالمفهوم ، أو بعموم دليل الحل ، أو بحكم الأصل . واعترض على هذا الحمل بأنه يقتضى أن لا يتناول النهى أكل الميتة ، مع أنه سبب النزول ، وبأن التأكيد بـ (إن) و (اللام) ينفى كون الجملة حالية ، لأنه إنما يحسن فيما قصد الإعلام بتحققه ألبتة ، والرد على منكر تحقيقاً أو تقديرًا (على ما بين فى المعانى) ، والحال الواقع فى الأمر والنهى مبناه على التقدير ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إن كان فسقاً ، فلا يحسن (وإنه لفسق) بل (وهو فسق) وأجيب عن الأول بأنه دخل بقوله : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) (مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) وبقوله : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ . . .) إلخ الميتة ، فيتحقق أن هذا النهى مخصوص بما ذبح على النصب ، أو مات حتف أنفه . وعن الثانى بأنه لما كان المراد بالفسق ههنا الإهلال لغير الله، كان التأكيد مناسباً ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إذا كان هذا النوع من الفسق الذى الحكم به متحقق ، والمشركون ينكرونه ـ كذا فى العناية ـ .

ومما يقويه أيضاً قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) على أن المراد به الخروج عن طاعة الله تعالى ، وهو وجه ثان فيه ، وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) فإن من أكل الميتة ، أو ما ذبح على النصب فسق ، ومع الاستحلال يكفر ، بخلاف ما ذبحه المسلم ولم يسمّ عليه ، فإن آكله لا يفسق ولا يكفر إجماعاً ـ أشار له الرازىّ ـ وحينئذ فلا دلالة فى الآية على تحريم ذبيحة المسلم التى تركت التسمية عليها، عمداً أو سهوًا .

وقد روى أبو داود فى (مراسيله) عن الصلت السدوسىّ قال : قال رسول الله ﷺ : ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكره ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنىّ عن ابن عباس أنه قال : إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله ، فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله تعالى .

واحتج البيهقىّ أيضاً بحديث عائشة رضى الله عنها أن قوماً قالوا للنبىّ ﷺ : إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ، فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثى عهد بكفر ـ رواه البخارىّ[1] والنسائىّ ـ قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها . وكذا قال الخطابىّ : فيه دليل على أن التسمية غير شرط على الذبيحة ، لأنها لو كانت شرطاً لم تستبح الذبيحة بالأمر المشكوك فيه ، كما لو عرض الشك فى نفس الذبيحة ، فلم يعلم هل وقعت الذكاة المعتبرة أم لا ؟ وهذا هو المتبادر من سياق الحديث ، حيث وقع الجواب فيه : (سموا أنتم) ، كأنه قيل لهم : لا تهتموا بذلك ، بل الذى يهمكم أنتم أن تذكروا اسم الله وتأكلوا . وهذا من الأسلوب الحكيم . ومما يدل أيضاً قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ)[2] فأباح الأكل من ذبائحهم ، مع وجود الشك فى أنهم سمّوا أم لا . هذا، وقد تمسك بظاهر الآية قوم فذهبوا إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، عمداً تركت التسمية أو نسياناً . واحتجوا أيضاً بقوله تعالى فى آية الصيد : (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ)[3] ، وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ ـ باب ذبيحة الأعراب ونحوهم ، حديث ١٠٣٨ .

(٢) [٥ / المائدة / ٥] ونصها : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٤] ونصها : يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ =

كحديثى عدىّ[١] بن حاتم وأبى ثعلبة[٢] : إذا أرسلت كلبك المعلّم ، وذكرت اسم الله فكل ، وهما فى الصحيحين .

= الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ماجاء فى التصيد، حديث ١٤١ ونصه :

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلّمة ، وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليك ، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل ، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ماجاء فى التصيد، حديث رقم ٢١٩٨ ونصه :

عن أبى إدريس عائذ الله قال : سمعت أبا ثعلبة الخُشَنِىّ رضى الله عنه يقول : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ! إنا بأرض قومٍ أهلِ الكتاب ، نأكل فى آنيتهم . وأرض صيد أصيد بقوسى وأصيد بكلبى المعلّم والذى ليس معلّما . فأخبرْنى ما الذى يحل لنا من ذلك . فقال « أما ما ذكرت أنك بأرض قومٍ أهلِ الكتاب تأكل فى آنيتهم ، فإن وجدتم غير آنيتهم فلا تأكلوا فيها . وإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها . وأما ما ذكرت أنك بأرض صيد ، فما صدتَ بقوسك فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك المعلّم فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك الذى ليس معلّما ، فأدركتَ ذكاتهُ ، فكل » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعتنا) .

وحديث رافع بن خديج[١] : ما أنهر الدمَ وذُكر اسمُ الله فكلوه ـ في الصحيحين أيضاً ـ .

وحديث ابن مسعود[٢] أن رسول الله ﷺ قال للجنّ : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه ـ رواه مسلم ـ .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٥ ـ باب التسمية على الذبيحة ، ومن ترك متعمدًا ، حديث ١٢٣٠ .

عن عَبَايَةَ بن رِفاعَةَ بن رافع عن جده رافع بن خَدِيج قال : كنا مع النبيّ ﷺ بذي الحُلَيْفة . فأصاب الناسَ جوعٌ . فأصبنا إبلا وغنما . وكان النبيّ ﷺ في أخريات الناس، فعجلوا فنصبوا القدور ، فدُفع إليهم النبيّ ﷺ . فأمر بالقدور فأُكفئت . ثم قَسَم فعدل عشرة من الغنم ببعير . فندّ منها بعير . وكان في القوم خيل يسيرة فطلبوها فأعياهم . فأهوى إليه رجل بسهم فحبسه الله .

فقال النبيّ ﷺ «إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش. فما ندّ عليكم فاصنعوا به هكذا».

قال ، وقال جدّي : إنا لنرجو (أو نخاف) أن نلقى العدوّ غدًا . وليس معنا مُدًى ، أفنذبح بالقصب ؟ فقال « ما أنهر الدمَ وذُكر اسم الله عليه ، فكل . ليس السنَّ والظفرَ . وسأخبركم عنه . أما السنّ فعظم ، وأما الظفر فمُدَى الحبشة » .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ ـ كتاب الأضاحيّ ، حديث ٢٠ـ٢٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٥٠ (طبعتنا) ونصه :

عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا . ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة . ففقدناه . فالتمسناه في الأودية والشِّعاب . فقلنا : استُطِير أو اغْتِيل (معنى استطير : طارت به الجن . ومعنى اغتيل : قُتِل سرًّا . والغِيلة هي القتل خِفيةً) . =

وحديث جندب بن سفيان البجلي قال[1] : قال رسول الله ﷺ : من ذبح قبل أن يصلى ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا ، فليذبح باسم الله ـ أخرجاه ـ .

قالوا : ففى هذه الأحاديث إيقاف الإذن فى الأكل على التسمية ، والمعلق بالوصف ينتفى عند انتفائه ، عند من يقول بالمفهوم . والشرط أقوى من الوصف .

واحتجوا أيضاً بحديث عائشة المتقدم (سموا عليه أنتم وكلوا) . قالوا : إن القوم فهموا أن التسمية لا بد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك ، لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح ، إن لم تكن وجدت . أى : فتسميتكم الآن تستبيحون بها كل ما لم تعلموا أذكروا اسم الله عليه

= قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حراء . قال فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم .

فقال « أتانى داعى الجن فذهبت معه . فقرأت عليهم القرآن » .

قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم ، أوفرَ ما يكون لحما . وكل بعرة علفٌ لدوابّكم » .

فقال رسول الله ﷺ « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » .

(١) أخرجه البخارى فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٧ ـ باب قول النبى ﷺ : فليذبح على اسم الله ، حديث رقم ٥٦٢ ونصه :

عن جندب بن سفيان البجلىّ قال : ضحينا مع رسول الله ﷺ أضحيةً ذات يوم . فإذا أناس قد ذبحوا ضحاياهم قبل الصلاة . فلما انصرف رآهم النبىّ ﷺ أنهم قد ذبحوا قبل الصلاة فقال « من ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى . ومن كان لم يذبح حتى صلينا ، فليذبح على اسم الله » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث ١ـ٣ (طبعتنا) .

أم لا ، إذا كان الذابح ممن تصح ذبيحته إذا سمّى . قالوا : ويستفاد منه أن كل ما يوجد فى أسواق المسلمين محمول على الصحة ، وكذا ما ذبحه أعراب المسلمين ، لأن الغالب أنهم عرفوا التسمية . انتهى .

وأجاب من حمل الآية على الوجه الأول؛ بأن الأمر فى حديث عدىّ وأبى ثعلبة محمول على التنزيه، من أجل أنهما كانا يصيدان على مذهب الجاهلية ، فعلمهما النبىّ ﷺ أمر الصيد والذبح ، فرضه ومندوبه ، لئلا يوافقا شبهة فى ذلك ، وليأخذا بأكمل الأمور . وأما الذين سألوا عن تلك الذبائح ، فإنهم سألوا عن أمر قد وقع لغيرهم ، فعرّفهم بأصل الحل فيه .

وقال ابن التين : يحتمل أن يراد التسمية هنا عند الأكل ، وبذلك جزم النووىّ .

وأما التسمية على ذبحٍ تولاه غيرهم ، فلا تكلف عليهم فيه ، وإنما يحمل على غير الصحة إذا تبين خلافها .

وقال المهلب : هذا الحديث أصل فى أن التسمية ليست فرضاً . فلما نابت تسميتهم عن التسمية على الذبح ، دل على أنها سنة ، لأن السنة لا تنوب عن فرض . انتهى .

وذهب بعض من اشترط التسمية فى الحل إلى جواز أكل ما تُرِكَتْ عليه سهواً لا عمداً . واحتج بما رواه البيهقىّ عن ابن عباس مرفوعاً : المسلم يكفيه اسمه، إن نسى أن يسمى حين يذبح، فليذكر اسم الله وليأكله . قال الحافظ ابن كثير : وَرَفْعُهُ خطأ . والصواب وقفه على ابن عباس ، من قوله . نصّ عليه البيهقىّ . واحتج أيضاً بالحديث المروىّ من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس[1] وأبى هريرة[2] وأبى ذر[3] وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسى، حديث ٢٠٤٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسى، حديث ٢٠٤٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسى، حديث ٢٠٤٣ (طبعتنا) .

عن النبيّ ﷺ : إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

ورواه الطبرانيّ عن ثوبان مرفوعاً بلفظ : رفع عن أمتى الخطأ . . . الحديث .

وروى ابن عديّ عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله ! أرأيتَ الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ! فقال النبيّ ﷺ : اسم الله على كل مسلم .

قال ابن كثير : وإسناده ضعيف .

وقد علمت الأظهر فى تأويل الآية أولًا ـ والله أعلم ـ .

الرابع ـ قال ابن جرير[1] : اختلف أهل العلم فى هذه الآية : هل نُسِخ من حُكمها شئ أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء ، وهى محكمة فيما عُنِيَتْ به . وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم .

وروى عن الحسن البصريّ وعكرمة أنه تعالى نسخ من هذه الآية واستثنى قوله : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) . وروى ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً أنه تعالى نسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله صحيح . ومن أطلق من السلف النسخ ههنا، فإنما أراد التخصيص . انتهى.

وقد قدمنا فى المقدمة أنه علم من استقراء كلام الصحابة والتابعين أنهم كانوا يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغويّ ، الذى هو إزالة شيء بشيء ، لا بإزاء مصطلح الأصوليين . فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى. إما بانتهاء مدة العمل ، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غيره ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عامّ ، وغير ذلك مما أسلفنا ، فتذكر !

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثانى عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

الخامس ـ قال الزجاج : فى قوله تعالى : (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى ، أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى ، فهو مشرك. وإنما سمى مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى . وهذا هو الشرك . انتهى .

وقال ابن كثير : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك . كقوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ . . .)[1] الآية . وقد روى الترمذى[2] فى تفسيرها عن عدىّ بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ! ما عبدوهم. قال : إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم . فذاك عبادتهم إياهم . انتهى .

السادس ـ قال الكعبى : الآية حجة على أن (الإيمان) اسم لجميع الطاعات ، وإن كان معناه فى اللغة التصديق ، كما جعل تعالى (الشرك) اسماً لكل ما كان مخالفاً لله تعالى ، وإن كان فى اللغة مختصاً بمن يعتقد أن لله شريكاً ، بدليل أنه تعالى سمى طاعة المؤمنين للمشركين، فى إباحة الميتة، شركاً .

---

(١) [٩ / التوبة / ٣١] . . . وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد الكوفى . ونصه :

عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبىّ ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال « ياعدىّ! اطرح عنك هذا الوثن» .

وسمعته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه . وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه » .

وتعقبه الرازيّ ؛ بأنه لِمَ لا يجوز أن يكون المراد من الشرك ههنا اعتقاد أن لله شريكاً في الحكم والتكليف ؟ وبهذا التقدير يرجع معنى هذا الشرك إلى الاعتقاد فقط . انتهى .

ثم ضرب تعالى مثلًا للمؤمن والكافر ، لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين ، إثر تحذيرهم عنها ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

« أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » مثل به من هداه الله بعد الضلالة ، وبصّره بنور الحجج والآيات ، يتأمل بها في الأشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، والمهتدي والضالّ ، بمن كان ميتاً فأعطاه الحياة ، وما يتبعها من القوى المدركة والمحرّكة . ومن بقي على الضلالة ، بالخابط في الظلمات ، لا ينفك منها ، ولا يتخلص ، فهو متحيّر على الدوام . « كَذَٰلِكَ » أي : مثل ذلك التزيين البليغ « زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أي : من فنون الكفر والمعاصي ، ولذا جادلوا بها الحق ، وأصروا عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

وقوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا » تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . أي : كما جعلنا بمكة كبراء ليمكروا على أتباعهم في تزيين الباطل ، وستر الحق ـ جعلنا في كل قرية، أرسلنا إليها الرسل، أكابرها المجرمين ، متصفين بصفات

المذكورين ، مزيناً لهم أعمالهم ، مصرين على الباطل ، مجادلين به الحق ، ليفعلوا المكر فيها على أتباعهم بالتلبيس ، ليتركوا متابعة الرسل .

قال ابن كثير : المراد بـ (المكر) ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف المقال والفعال ، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح : (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)[١] ، وكقوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا...)[٢] الآية.

وقال الزمخشري : خص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال ، والماكرون بالناس ، كقوله : (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)[٣] .

«وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» أي : ما يضرون بمكرهم إلا أنفسهم، لأن وباله يحيق بهم ، كما قال تعالى : (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ)[٤] . وقال :

---

(١) [٧١ / نوح / ٢٢] .

(٢) [٣٤/ سبأ/ ٣١ـ٣٣] ونصها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، . . . . . . وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء [١٦] ونصها : وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا .

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] . . . وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)[1] . قال الزمخشرى : هذه تسلية لرسول الله ﷺ ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ. اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

« وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ » أى : برهان وحجة قاطعة « قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ » أى : من الوحى والمعجزات المصدقة له . كقوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...)[2] الآية. وقوله سبحانه : (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً)[3] .

« اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » كلام مستأنف للإنكار عليهم ، وأن لا يصطفى للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها ، فيليق للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيره انكشافه له ، لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه منهم .

وقد روى الإمام[4] أحمد عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم ، إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل ، بنى

---

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . . . لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٧٤ / المدثر / ٥٢] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

كنانة . واصطفى من بنى كنانة ، قريشاً ، واصطفى من قريش ، بنى هاشم . واصطفانى من بنى هاشم . وانفراد بإخراجه مسلم[١] أيضاً .

وروى الإمام أحمد[٢] عن المطّلب بن أبى وَدَاعَةَ عن العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً ، وخيركم نفساً .

« سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ » أى : ذلة وهوان بعد كبرهم وعظمتهم « عِنْدَ اللهِ » أى : يوم القيامة ، جزاء على منازعتهم له تعالى فى كبره بردّ آياته ورسالته ، واعتراضهم عليه فى تخصيصه بالرسالة غيرهم ، « وَعَذَابٌ شَدِيدٌ » يعنى : فى الآخرة . « بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ » فى الدنيا إضرارًا بالأنبياء .

قال ابن كثير : لما كان المكر غالباً ، إنما يكون خفيًّا ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة ، جزاء وفاقاً . ولا يظلم ربك أحدًا . وجاء فى الصحيحين[٣] عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان .

---

(١) وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٧٨٨ (طبعة المعارف) ونصه :

قال العباس : بلغه ﷺ بعضُ ما يقول الناس . قال فصعِد المنبر فقال « مَنْ أنا ؟ قالوا: أنت رسول الله . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة . وخلق القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة . وجعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتاً . فأنا خيركم بيتاً وخيركم نَفْسًا » .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخارىّ :

والحكمة فى هذا، أنه لما كان الغدر خفيًّا لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير عَلَماً منشورًا على صاحبه بما فعل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

« فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ » أى: للتوحيد « يَشْرَحْ » أى : يوسع «صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» بتصقيله بنور الهداية، فيقبل نور الحق ، كما قال تعالى : (وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)(١) .

= عن ابن مسعود وأنس فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ ـ باب إثم الغادر للبر والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٣و١٥٠٤ .

وأخرجه عن ابن عمر فى هذا الباب ، حديث رقم ١٥٠٥ .

وعن ابن عمر أيضاً فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٩ ـ باب ما يدعى الناس بآبائهم ، من طريقين .

وفى : ٩٠ ـ كتاب الحيل ، ٩ ـ باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت .

وفى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب إذا قال عند قوم شيئاً ، ثم خرج فقال بخلافه .

وأخرجها مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٩ـ١٤ (طبعتنا) .

وفى هذه الأحاديث كلهن لم ترد (عند استه) .

أما الحديث الذى وردت به، فهو ما انفرد به مسلم وأخرجه فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ١٥ (طبعتنا) عن أبى سعيد الخدرىّ .

(١) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ =

روى عبد الرزاق أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح . قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت . ورواه ابن جرير[1] وابن أبى حاتم . قال ابن كثير : وللحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً .

« وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » أى : شديد الضيق ، فلا يتسع للاعتقادات الصائبة فى الله ، والأمور الأخروية .

قال أبو البقاء : حرِجًا (بكسر الراء) صفة لـ(ضيّقا) ، أو مفعول ثالث ، كما جاز فى المبتدأ أن تخبر عنه بعدة أخبار . أو يكون الجميع فى موضع خبر واحد ، كـ(حلو حامض). وعلى كل تقدير ، هو مؤكد للمعنى . ويقرأ بفتح الراء على أنه مصدر . أى: ذا حرج . وقيل: هو جمع حَرَجَة ، مثل قصبة وقصب ، والهاء فيه للمبالغة . انتهى .

وقوله تعالى « كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ » أى : يتكلف الصعود فى جهة السماء ، وطبعه يهبط إلى الأرض ، فشبه ، للمبالغة فى ضيق صدره ، بمن يزاول أمرًا غير ممكن . لأن صعود السماء مثلٌ فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة . وقيل : معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبوًّا عن الحق ، وتباعدًا فى الهرب منه . وأصل (يصّعّد) يتصعد من(الصعود) .

« كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » فى الاعتقادات والأخلاق . والرجسُ ما استقذر من العمل ، وسمى بذلك مبالغة فى ذمه .

= يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

(١) الأثر رقم ١٣٨٥٣ من التفسير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَهَـٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَهَـٰذَا » أى: البيان الذى جاء به القرآن، أو طريق التوحيد ، وإسلام الوجه إلى الله « صِرَاطُ رَبِّكَ » أى : طريقه الذى ارتضاه « مُسْتَقِيماً » لا ميل فيه إلى إفراط وتفريط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال . أو لا اعوجاج فيه إلى النظر إلى الغير والشرك به .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » أى : المعارف والحقائق التى هى مركوزة فى استعدادهم ، فيهتدوا بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ » أى : السلامة من المكاره ، وهى الجنة ، لكونهم فى مقام القرب ، « عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ » يتولاهم بمحبته ، ويجعلهم فى أمانه ، « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : بسبب أعمالهم الصالحة فى سلوكهم صراطه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » أى : اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم ، وتنذرهم به ، يوم نحشرهم جميعاً ، يعنى : الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا .

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ » أى : نقول : يا معشر الجن ! يعنى : الشياطين . قال المهايمى : خصهم بالنداء لأنهم الأصل فى المكر . « قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ » أى : من إغوائهم وإضلالهم . أومنهم، بأن جعلتموهم أتباعكم ، وأهل طاعتكم ، وتسويلكم وتزيينكم الحطام الدنيوية ، واللذات الجسمانية عليهم ، ووسوستكم لهم بالمعاصى ، فحشروا معكم . وهذا بطريق التوبيخ والتقريع .

« وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ » أى : الذين أطاعوهم وتولوهم « مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ » قال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعملت الإنس. أى : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة، على اللذات الغائبة « وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا » أى : بالموت ، أو بالمعاد الجسمانى على أقبح صورة ، وأسوأ عيش .

قال أبو السعود : قالوه اعترافاً بما فعلوا من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى ، وتكذيب البعث ، وإظهارًا للندامة عليها ، وتحسرًا على حالهم ، واستسلامًا لربهم . ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين ، للإيذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلًا .

« قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ » أى : منزلكم ، كما أن دار السلام مثوى المؤمنين .

« خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » قال القاشانى : أى إلا وقت مشيئته أن تخفف ، أو ينجى منكم من لا يكون سبب تعذيبه شركاً راسخًا فى اعتقاده .

وقال المهايمى : أى إلّا وقت مشيئته أن ينقلكم منها إلى الزمهرير، انتقالكم من شهوة إلى أخرى .

وقال الزمخشرى : أى يخلدون فى عذاب النار ، الأبد كلّه ، إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار ، إلى عذاب الزمهرير . فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم . أو يكون من قول

الموتور الذى ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه : أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت . وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد . فيكون قوله (إلا إذا شئت) من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد ، لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطماع . انتهى .

قال الخفاجىّ : لما كان الخطاب للكفرة ، وهم لا يخرجون من النار ، لأن ما قبله بيان حالهم ، فيبعد جعله شاملاً للعصاة ، ليصح الاستثناء باعتباره ، مع أن استعمال (ما) للعقلاء قليل-وَجَّهُوهُ بأن المراد النقل من النار إلى الزمهرير ، أو المبالغة فى الخلود ، بمعنى أنه لا ينتفى إلا وقت مشيئة الله ، وهو مما لا يكون مع إبرازه فى صورة الخروج وإطماعهم فى ذلك تهكماً وتشديداً للأمر عليهم . و (ما) مصدرية وقتية . أو إن المستثنى زمان إمهالهم قبل الدخول .

وردّ الأول بأن فيه صرف النار من معناها العلمىّ ، وهو دار العذاب ، إلى اللغوىّ . وأجيب عنه بأنه لا بأس بالصرف إذا دعت إليه ضرورة . وقيل عليه : إن المعترض لا يسلم الضرورة ، لإمكان غير ذلك التأويل . مع أن قوله (مَثْوَاكُمْ) يقتضى ماذهب إليه المعترض بحسب الظاهر . وردّ الأخير أبوحيّان بأنه فى الاستثناء يشترط اتحاد زمان المخرج ، والمخرج منه ، فإذا قلت : قام القوم إلا زيداً ، فمعناه : إلا زيداً ما قام . ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زيداً ما يقوم فى المستقبل . وكذلك سأضرب القوم إلا زيداً ، معناه : إلا زيداً فإنى لا أضربه فى المستقبل ، ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زيداً فإنى ما ضربته قبلُ ، إلا إذا كان استثناء منقطعاً ، فإنه يسوغ ، كقوله : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ فإنهم ذاقوها . ولك أن تقول : إن القائل به يلتزم انقطاعه ، كما فى الآية التى ذكرها ، ولا محذور فيه ، مع ورود مثله فى القرآن ، وفيه نظر . وقيل : إنه غفلة عن تأويل الخلود بالأبد ، والأبد لا يقتضى الدخول . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : قد ثبت خلود الكفار فى العذاب ثبوتاً قطعياً ، فمن ثم

اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء فى هذه الآية ، وفى أختها فى سورة هود . فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين وللكفار ، والمستثنى العصاة ، لأنهم لا يخلدون ـ وقد علمت بُعْدَه ـ .

ثم قال : وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أى : مخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء . وفائدته إظهار القدرة ، والإعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شاءه ، وكان من الجائز العقلىّ فى مشيئته أن لا يعذبهم ، ولو عذبهم لا يخلدهم ، وإن ذلك ليس بأمر واجب عليه ، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل . وفيها على هذا الوجه دفع فى صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة ، وأنه لا يجوز فى العقل أن يشاء خلاف ذلك .

وذهب الزجاج إلى وجه لطيف ، إنما يظهر بالبسط فقال : المراد ـ والله أعلم ـ إلا ما يشاء من زيادة العذاب . ولم يبين وجه الاستثناء . والمستثنى على هذا التأويل لم يغاير المستثنى منه فى الحكم ، ونحن نبيّنه فنقول : العذاب ـ والعياذ بالله ـ على درجات متفاوتة ، كأن المراد أنهم مخلدون فى جنس العذاب إلا ماشاء ربك من زيادة تبلغ الغاية ، وتنتهى إلى أقصى النهاية ، حتى تكاد لبلوغها الغاية ، ومباينتها لأنواع العذاب فى الشدة، تعدّ ليس من جنس العذاب ، وخارجة عنه . والشىء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد ، كما تقدم فى التعبير عن كثرة الفعل بـ (رُبَّ) و (قَدْ) ، وهما موضوعان لضد الكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد فى لغة العرب . وقد حام أبو الطيب[1] حوله فقال :

لقد جدتَ حتى كاد يبخل حاتم ……… للمنتهى ومن السرور بكاء

---

(١) نص البيت فى ديوانه ، شرح اليازجىّ والبرقوقىّ هكذا :

وَلَجُدْتَ حتى كدتَ تبخلُ حائلًا ……… للمنتهى ، ومن السرورِ بكاءُ =

فكأنّ هؤلاء إذا نقلوا إلى غاية العذاب ، ونهاية الشدة ، فقد وصلوا إلى الحد الذى يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق ، حتى يسوغ معاملته فى التعبير بمعاملة المغاير . وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط .

وفى تفسير ابن عباس رضى الله عنه ما يؤيده . انتهى .

وفى الآية تأويلات أخر :

منها : ما نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه تعالى استثنى قوماً قد سبق علمه أنهم يُسلمون ويصدقون النبىّ صلى الله عليه وسلم . وهذا مبنى على أن الاستثناء ليس من المحكىّ ، وأن (ما) بمعنى (من) .

= وقال اليازجىّ فى شرحه :

حائلًا أى متغيرا . والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء واللام متعلقة بـ (كدت) وقوله : ومن السرور بكاءٌ ، مبتدأ وخبر .

يقول : قد جدت حتى لم تترك فى الجود غاية إلا انتهيت إليها . وحينئذ كدت تحول إلى البخل لأنك قد بلغت منتهى الجود ، كما يحول السرور عند اشتداده إلى البكاء .

وقال البرقوقىّ :

حائلا متحولا . وللمنتهى أى لأجل الانتهاء ، ومن السرور خبر ، وبكاء مبتدأ . والجملة استئنافية . يقول : ولقد بلغت من الجود أقصاه حتى كدت تتحول عن آخره حين تناهيت إليه . إذ ليس من شأنك أن تقف فى الكرم عند غاية . وليس هناك جود بعد أن بلغت نهايته . ومثل ذلك السرور ، إذا اشتد تحول إلى بكاء .

والبيت من قصيدة مطلعها :

أَمِنَ ازديارَكِ فى الدُّجى الرُّقباءُ ... إذ حيث أنتِ من الظَّلامِ ضياءُ

يمدح بها أبا علىّ ، هرون بن عبد العزيز الأوراجىّ الكاتب . وكان يذهب إلى التصوّف .

فأين هذا من نصه الذى ساقه الزجاج ، على ما فيه ؟!!

ومنها : أنهم يفتح لهم أبواب الجنة ، ويخرجون من النار ، فإذا توجهوا للدخول أغلقت فى وجوههم استهزاء بهم . وهو معنى قوله(١) : (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) . قال الشريف المرتضى فى (الدرر): فإن قيل: أى فائدة فى هذا الفعل، وما وجه الحكمة فيه؟ قلنا: وجه الحكمة فيه ظاهر ، لأن ذلك أغلظ على نفوسهم، وأعظم فى مكروههم، وهو ضرب من العقاب الذى يستحقونه بأفعالهم القبيحة . لأن من طمع فى النجاة والخلاص من المكروه ، واشتد حرصه على ذلك ، ثم حيل بينه وبين الفرج ، ورد إلى المكروه ، يكون عذابه أصعب وأغلظ من عذاب من لا طريق للطمع عليه ـ كذا فى العناية ـ .

ومنها : أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أى : إلا وقت مشيئته فناءها ، وزوال عذابها .

قال السيوطىّ فى (الدر المنثور) : أخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر رضى الله عنه : لو لبث أهل النار فى النار ، كقدر رمل عالج ، لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه . وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن أيضاً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ونقل هذا عن عمر وابن مسعود وأبى هريرة وأبى سعيد وغيرهم . انتهى .

وقد انتصر لهذا القول جماعة. قالوا : وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم ، كله حق مسلّم لا نزاع فيه . وذلك يقتضى الخلود فى دار العذاب مادامت باقية، وإنما يخرج منها فى حال بقائها أهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس ، وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه . وقد بسط البحث فى ذلك وجوّده الإمام ابن القيم فى كتابه (حادى الأرواح) ، ومع كونه انتصر لهذا القول انتصاراً عظيماً ، وذكر له خمسة وعشرين دليلا ، لم يصححه ، حيث قال : أما أبدية الجنة ، وأنها لا تفنى ولا

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٤] .

تبيد ، فما يعلم بالاضطرار ، ولم يقل بفنائها أحد . ومن قال به ـ كالجهمية ـ فهو ضال مبتدع منحرف عن الصواب ، وليس له فى ذلك سلف . وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف ، والأصح عدم فنائها أيضاً . انتهى.

وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط هذا المقام فى آية هود .

وقد روى ابن جرير(١) وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية أنه قال : لاينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه . لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

« إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ » فلا يعذب إلا على ما تقتضيه الحكمة ، « عَلِيمٌ » أى : بمن يعذب بكفره ، فيدوم عذابه . أو بسيآت أعماله ، فيعذب على حسبها ، ثم ينجو منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ » أى : من الإنس « بَعْضًا » أى : نجعلهم بحيث يتولونهم بالإغواء والإضلال ، كما فعل الشياطين وغواة الإنس ، « بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى : بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصى.

قال الرازىّ : لأن الجنسية علة الضم . فالأرواح الخبيثة تنضم إلى مايشا كلها فى الخبث. وكذا القول فى الأرواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من يشاكله فى النصرة والمعونة والتقوية .

---

(١) الأثر رقم ١٣٨٩٢ من التفسير ، ونصه :

عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) قال : إن هذه الآية آية لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه . لا ينزلهم جنة ولا نارا .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : الآية معنى حديث (كما تكونون يولَّى عليكم) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة من حديث أبي بكرة . انتهى .

وأسند في (الجامع الصغير) تخريجه إلى الديلميّ في (الفردوس) عن أبي بكرة ، وإلى البيهقيّ ، عن أبي إسحاق السبيعيّ مرسلا ـ ورمز له بالضعف ـ .

وأسند في (الدر المنثور) عن منصور بن الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا) ما سمعتَهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتُهم يقولون : إذا فَسَدَ الناسُ أُمِّرَ عليهم شرارهم .

وأخرج نحوه عن مالك بن دينار وكعب والحسن .

قال أبو الليث السمرقنديّ في (تفسيره) : ويقال في معنى الآية : نسلط على بعض الظالمين بعضاً فيهلكه أو يذله . قال : وهذا كلام لتهديد الظالم ، لكي يمتنع عن ظلمه . ويدخل في الآية جميع من يَظْلِمُ : من راع في رعيته ، وتاجر في تجارته ، وسارق ، وغيرهم .

قال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم ، فقف وانظر فيه متعجباً . انتهى .

وقال ابن كثير : معنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

ثم بين تعالى ما سيكون من توبيخ الكفار من الفريقين يوم القيامة ، إثر بيان توبيخ الجن بإغواء الإنس وإضلالهم ، وَأَعْلَمَ أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل ، فيشهدون على أنفسهم بالكفر ، وأنهم لم يعذبوا إلا بالحجة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

« يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى الدنيا « رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي » بالأمر والنهى « وَيُنْذِرُونَكُمْ » يخوفونكم « لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا » وهو يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه أفانين الأهوال . « قَالُوا » يعنى الجن والإنس . «شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا » أى : أقررنا بإتيان الرسل وإنذارهم ، وبتكذيب دعوتهم ، كما فصّل فى قوله تعالى[١] :(قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ) .

« وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى : مافيها من الزهرة والنعيم ، وهو بيان لما أدّاهم فى الدنيا إلى الكفر « وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » أى : فى الآخرة. قال المهايمىّ : بعدشهادة جوارحهم « أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » أى : فى الدنيا بما جاءتهم الرسل .

تنبيهات

الأول ـ استدل بقوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) من قال إن الله بعث إلى الجن رسلًا منهم . وحكاه ابن جرير[٢] عن الضحاك بن مزاحم ، والأكثرون على أنه لم يكن من الجن رسول ، وإنما كانت الرسل من الإنس فقط . نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة ، من السلف والخلف .

قال ابن عباس : الرسل من بنى آدم ، ومن الجن نُذُرٌ . وأجابوا عن ظاهر الآية بأن فيها

(١) [٦٧ / الملك / ٩] .

(٢) الأثر رقم ١٣٨٩٦ من التفسير .

مضافاً . أي : من أحدكم ، وهم الإنس . أو من إضافة ماللبعض للكل ، كقوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)(١) وإنما يخرجان من أحدهما ، وهو الملح دون العذب . وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع في قوله : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)(٢) وهو جائز في كل ما اتفق في أصله . فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز ، مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين ، وهم الإنس . وهذا قول الفرّاء والزجاج .

وقال أبو السعود : المعنى : ألم يأتكم رسل من جملتكم ، لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً ، بل من الإنس خاصة . وإنما جعلوا منهما، إمالتأكيد وجوب اتباعهم، والإيذان بتقاربهما ذاتاً ، واتحادهما تكليفاً وخطاباً ، كأنهما من جنس واحد . ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر . وإما لأن المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل . وقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن ، وأنذروا به قومهم ، حيث نطق به قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ...)(٣) إلى قوله تعالى : (وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)(٣) . انتهى .

وهكذا في عهد كل رسول لايبعد أنه تعالى كان يلقي الداعية في قلوب قوم من جنّ عصره فيسمعون كلامهم، ويأتون قومهم من الجن ، ويخبرونهم بما سمعوه من الرسل ، وينذرونهم به . وقد سمى تعالى رسل عيسى رسل نفسه فقال : (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ)(٤) وتحقيق القول فيه : أنه تعالى إنما بكّت الكفار بهذه الآية ، لأنه تعالى أزال العذر ، وأزاح العلة ، بسبب أنه أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين . فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ١٩] ونصها : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] ... فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ .

(٤) [٣٦/ يس/ ١٤] ... فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ .

الطريق ، فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر ، وإزالة العلة ، فكان المقصود حاصلًا ـ كذا قرره الرازى ـ .

قال الحافظ ابن كثير : والدليل على أن الرسل من الإنس قوله تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ...)[1] إلى قوله تعالى : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[2] . وقوله تعالى عن إبراهيم : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)[3] فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم فى ذريته . ولم يقل أحد: إن النبوة كانت فى الجن قبل إبراهيم ، ثم انقطعت عنهم ببعثته . وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)[4] . وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ)[5] . ومعلوم أن الجن تتبع للإنس فى هذا الباب . انتهى .

الثانى ـ إن قيل : ما السبب فى أنهم أقروا فى هذه الآية بالكفر ، وجحدوه فى قوله :

---

(١) [٤ / النساء/ ١٦٣] . . . وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . . . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] . . . وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

(٥) [١٢ / يوسف / ١٠٩] . . . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)(١)؟ قلنا: يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة ، فتارة يقرّون ، وأخرى يجحدون . وذلك يدل على شدة خوفهم ، واضطراب أحوالهم ، فإن مَن عظم خوفه ، كثر الاضطراب فى كلامه ـ أفاده الرازىّ ـ .

زاد الزمخشرىّ : أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم .

الثالث ـ إن قيل : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ أجيب : بأن الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ؛ والثانية ذم لهم ، وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ، واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم ، واستيجاب عذابه . وإنما قال ذلك تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم ـ كذا فى (الكشاف) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ » إعلام بأنه تعالى أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتبيين الآيات ، وإلزام الحجة بالإنذار والتهديد . وأنه تعالى لا يؤاخذ القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم لم تبلغهم دعوة رسول ينهاهم عنه ، وينبههم على بطلانه ، لأنه ينافى الحكمة . وجوز فى ذلك أن يكون خبرًا لمحذوف . أى : الأمر ذلك . أو مبتدأ وخبره محذوف . أى : كما ذكر . أو خبره (أَنْ لَمْ يَكُنْ . . .) الخ . والمشار إليه إتيان الرسل ، أو ما قص من أمرهم ، أو السؤال المفهوم من قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) . واستظهر أبو السعود أن الإشارة إلى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ، واستيجاب العذاب ، وأنه مبتدأ خبره ما بعده ، وأن (أَنْ) مصدرية ، و (اللام)

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] ونصها : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

مقدرة قبلها . أو مخففة ، واسمها ضمير الشأن ، و (بِظُلْمٍ) متعلق بـ (مُهْلِكَ) . أى : بسبب ظلم ، أو بمحذوف حالًا من (الْقُرَىٰ) ، أى متلبسة بظلم . والمعنى : ذلك ثابت لانتفاء كون ربك ، أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب ظلم فعلوه قبل أن ينبهوا على بطلانه برسول .

تنبيه :

فى الآية دليل على أنه لا تكليف قبل البعثة ، ولا حكم للعقل . كقوله[1] (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« وَلِكُلٍّ » أى : من المكلفين « دَرَجَاتٌ » أى : مراتب « مِمَّا عَمِلُوا » أى : من أعمالهم ، يبلغونها ويثابون بها ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . واستدل بها ، على هذا التأويل ، بأن الجن يدخلون الجنة ويثابون .

قال ابن كثير : ويحتمل أن يعود قوله (وَلِكُلٍّ) لكافرى الجن والإنس . أى : ولكلٍّ درجة فى النار بحسبه ، كقوله (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)[2] .

« وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)

« وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ » عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) [٦/ الأنعام/ ١٤]

« ذُو الرَّحْمَةِ » أي : يترحم عليهم بالتكليف ، تكميلًا لهم ، ويمهلهم على المعاصي . وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه سبحانه ، بل لترحمه على العباد ، وتمهيد لقوله « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ » أي : من الخلق يعملون بطاعته « كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ » ذهب بهم ثم بذريتهم ، لكنه أبقاكم ترحمًا عليكم . وهذا كقوله تعالى (وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« إِنَّ مَا تُوعَدُونَ » أي : من البعث وأحواله « لَآتٍ » أي : لكائن لا محالة « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أي : بفائتين يعجز عنكم . وهذا ردٌّ لقولهم : من مات فقد فات . أي : هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم رفاتًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أي : على غاية تمكنكم واستطاعتكم . يقال : مكن مكانة ، إذا تمكن أبلغ التمكن . أو على جهتكم وحالتكم ، من قولهم : مكان ومكانة ، كمقام ومقامة . والمعنى : اثبتوا على كفركم . « إِنِّي عَامِلٌ » أي : ما أمرت به من الثبات على الإسلام . « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أي : التي

---

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَ ...

بنيت لعبادته تعالى وحده ، دون غيرهم ، هل تكون للعدل الذى يضع العبادة فى موضعها ، أوللظالم بوضعها فىغير موضعها . والمرادبالدار ، الدنيا . وبالعاقبة، العاقبة الحسنى . أى: عاقبة الخير ، لأنها الأصل، فإنه تعالى جعل الدنيا مزرعة الآخرة، وقنطرة المجاز إليها .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى : الكافرون . ووضع الظلم موضع الكفر ، إيذاناً بأن امتناع الفلاح يترتب على أىّ فرد كان من أفراد الظلم ، فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده ؟

لطائف

فى إيراد التهديد بصيغة الأمر، أعنى : قوله (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)مبالغة فى الوعيد، كأن المهدِّدِ يريد تعذيبه ، مجمعاً عليه ، فيحمله بالأمر على ما يؤدى إليه . وتسجيل بأن المهدَّد لايتأتى منه إلا الشر ، كالمأمور به الذى لايقدر أن يتفصّى عنه .

وفى قوله تعالى : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) مع الإنذار ، إنصاف فى المقال ، وحسن الأدب ، حيث لم يقل (العاقبة لنا) وفوض الأمر إلى الله . وهذا من الكلام المنصف ، كقوله تعالى: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[1] .

وفيه تنبيه على وثوق المنذِر بأنه محق .

وفيه تبشير بأن العاقبة له .

قال ابن كثير : وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله عليه ، فمكن له فى البلاد، وحكّمه فى نواصى مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك فى حياته . ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته ، فى أيام خلفائه رضى الله عنهم أجمعين . كما

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٤] قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ اللَّهُ، ...

قال تعالى : (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)(١) . وقال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)(٢) وقال تعالى : (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)(٣) وقال تعالى: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)(٤). وقد فعل تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة .

ثم بين تعالى نوعاً من جهالات مشركى مكة وضلالاتهم ، وهو ترجيحهم جانب الأصنام على جانبه سبحانه ، بعد تشريكهم إياه فيما اختص بخلقه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ » أى : خلق « مِنَ الْحَرْثِ » أى : الزرع «وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً»

---

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٥١و٥٢] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ١٣و١٤] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...

(٤) [٢٤ / النور / ٥٥] ... وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

يصرفونه إلى الضيفان والمساكين . أي : ولأصنامهم نصيباً يصرفونه إلى التنسك والسدنة. وإنما لم يذكرا اكتفاء بما بعده .

« فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ » بالفتح والضم (وقال الشهاب : الزعم مثلث كالودّ) . أي : هذا مستقر له الآن ، من غير استقرار له في المستقبل لمارض . «وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا» وهو مستقر لهم ، بل يستقر لهم ماليس لهم أيضاً ، فكانوا إذا سقط في نصيب الله شيء من نصيبها التقطوه ، أوفى نصيبها شيء من نصيبه تركوه ، كماقال تعالى : « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ » أي: عند نمائه أو سقوطه فيماهو لله. أوهلاك ماهولله لايصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين . « وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ » أي : عند نمائه أوسقوطه فيماهوللأصنام ، أوهلاك مالها ، فينفقون عليها ، بذبح نسائك عندها ، والإجراء على سدنتها ، ونحو ذلك . وعللوا ذلك بأن الله غنيّ ، وهي محتاجة « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أي : ما يقسمون ، لأنهم أولًا عملوا مالم يشرع لهم ، وضلوا في القسم. لأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة ، لم يحفظوها ، بل جاروا فيها ، إذرجحوا جانب الأصنام في الحفظ والرعاية سفهاً .

وقال المهايميّ : « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أي : من ترجيح جانب الأصنام على جانب الله ، بعلة تقتضي ترجيح جانب الله لإلٰهيته ، وعدم صلاحيتها للإلٰهية مع الحاجة .

وما ذكرناه في الآية هو الذي قاله أئمة التفسير .

فقد روى عليّ بن أبي طلحة والعوفيّ عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءًا ، وللوثن جزءًا ، فما كان من حرث أو ثمرة أوشيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد، ردُّوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن ، فسقى شيئاً

جعلوه لله، جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله ، فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله ، فسقى ما سمِّي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى ، فقال تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ...) الآية.

قال ابن كثير : وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدّىّ وغير واحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَافَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ » أى : مثل ذلك التزيين ، وهو تزيين الشرك فى القسمة المتقدمة ، زين لهم أولياؤهم من الشياطين ما هو أشد منه قبحاً فى باب القربان ، وهو قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار، وإنما سميت الشياطين شركاء ، لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من قتل أولادهم ، فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم ، « لِيُرْدُوهُمْ » أى : يهلكوهم بالشرك وقتل الولد . من (الإرداء . وهو ، لغة ، الإهلاك) ، « وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ » أى: ليخلطوا عليهم ما هم عليه، بدين إبراهيم فى ذبح إسماعيل عليهما السلام. أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به ، لأنهم كانوا على دين إسماعيل . فهذا الذى أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق . « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ » أى : فلا تحزن على هلاكهم بما يفعلونه ، لأنه بمشيئة الله ، « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : لأن له فيما شاءه حكماً بالغة[1] (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

تنبيه :

(شُرَكَاؤُهُمْ) فاعل (زَيَّنَ) أُخِّر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدَّم ، واهتماماً به ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨]

لأنه موضع التعجب ، لأنهم يقدمون الأهمّ ، والذين هم بشأنه أَعْنَى . وقرأ ابن عامر (وَحْدَهُ) (زُيِّن) على البناء للمفعول الذى هو القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء بإضافة القتل إليه، مفصولًا بينهما بمفعوله . وقد زيّف الزمخشرىّ ، عفا الله عنه ، هذه القراءة ، وعد ذلك من كبائر كشافه حيث قال : «وأما قراءة ابن عامر ، فشىء لو كان فى مكان الضرورات ، وهو الشعر ، لكان سمجاً مردودًا ، كما سمج وردّ[1] :

* زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِى مَزَادَهْ *

---

(١) وصدر البيت :

* فَزَجَجْتُهَا بِمِزَجَّةٍ *

زججتها أى ضربتها بالزج . والزجّ كعب الرمح . والمِزَجَّة رمح قصير يسمى المزراق . والقلوص الشابّة من الإبل كالفتىّ من الرجال . وأبو مزادة كنية رجل .

زججتها فعل وفاعل ومفعول . و (بمزجة) متعلق به . وزجّ منصوب بنزع الخافض أى زججتها زجًّا كزج . والقلوص منصوب على أنه مفعول المصدر، فصل به بين المتضايفيْن . وأبى مزادة ، جُرَّ بإضافة (زج) إليه .

والشاهد فى الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار والمجرور ، وهو المفعول .

وهو جائز عند الكوفيين .

والبصريون منعوا هذا . وقالوا : إن المتضايفيْن فى قوة شىء واحد فلا يجوز الفصل بينهما . إلا أن العرب توسعت فى الظروف والجار والمجرور ، ما لم تتوسع فى غيرها .

وأجابوا عن الشواهد الشعرية بأنها لم يعرف لها قائل ، فلا يصح الاحتجاج بها .

وقال شارح شواهد المفصل : لم يسمّ أحد قائلَه ولا ذكر له سابقاً ولا لاحقاً .

وجاء فى خزانة الأدب : وهذا البيت لم يعتمد عليه متقنو كتاب سيبويه . حتى قال السيرافىّ : لم يثبته أحد من أهل الرواية ، وهو من زيادات أبى الحسن الأخفش فى حواشى كتاب سيبويه ، فأدخله بعض النسَّاخ فى بعض النسخ . =

فكيف به فى الكلام المنثور ؟ فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟

قال : والذى حمله على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف (شُرَكَائِهِمْ) مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ـ لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم ـ لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : لقد ركب الزمخشرىّ متن عمياء ، وتاه فى تيهاء ، وأنا أبرأ إلى الله ، وأبرئُ حملة كتابه ، وحفظة كلامه ، مما رماهم به ، فإنه تخيل أن القراء أئمةالوجوه السبعة ، اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهادًا ، لا نقلًا وسماعاً ، فلذلك غلّط ابن عامر فى قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة فى (شركائهم) ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب (أولادهم) بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً ، فقرأه منصوباً . قال : وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالإضافة ، وإبدال الشركاء منه ، وكان ذلك أولى مما ارتكبه . فهذا كله كما ترى ظنٌّ من الزمخشرىّ أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه ، وكان الصواب خلافه ، والفصيح سواه . ولم يعلم الزمخشرىّ أن هذه القراءة بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها ، يعلم ضرورة أن النبىّ ﷺ قرأها على جبريل، كما أنزلها عليه ، ثم تلاها النبىّ ﷺ على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر

= قال الزمخشرىّ فى (مفصّله) : وما يقع فى بعض نسخ (الكتاب) من قوله :

فزججتها بمزجّة زجّ القلوصَ أبى مزادهْ

فسيبويه برئٌ من عهدته .

وقال صاحب الخزانة معقباً على قول الزمخشرىّ :

أراد أن سيبويه لم يورد هذا البيت فى كتابه ، بل زاده غيره فى كتابه، وإنما برأ سيبويه من هذا ، لأن سيبويه لا يرى الفصل بغير الظرف . وإذا كان هذا مذهبه ، فكيف يورد بيتاً على خلاف مذهبه ؟

يتناقلونها، ويقرؤون بها، خلفاً عن سلف، إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها. فهذا معتقد أهل الحق فى جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلًا عن أفصح من نطق بالضاد ﷺ . فإذا علمت العقيدة الصحيحة ، فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشرىّ ، ولا بقول أمثاله ممن لحّن ابن عامر، فإن المنكِر عليه إنما أنكر ماثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة. ولولا عذر أن المنكِر ليس من أهل الشأنين : أعنى علم القراءة وعلم الأصول، ولايعدّ من ذوى الفنين المذكورين ، لخيف عليه الخروج من ربقة الدين . وإنه على هـذا العذر لفى عهدة خطرة ، وزلة منكرة ، تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة ، فيها ماليس متواتراً ، فإن هذا القائل لم يثبتها بغير النقل . وغايته أنه ادعى أن نقلها لايشترط فيه التواتر. وأما الزمخشرىّ فظن أنها تثبت بالرأى ، غير موقوفة على النقل ، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين . وماحمله على هذا الخيال إلا التغالى فى اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعية، حتى يردّ ماخالفها. ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذى ادعاه مطردا ، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه . وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، وإن كان عسراً ، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله ، فهو مقدر بالفعل ، وبهذا التقدير عمل . وهو وإن لم تكن إضافته غير محضة ، إلا أنه شبيه بما إضافته غير محضة . حتى قال بعض النحاة : إن إضافته ليست محضة ، لذلك . فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره ، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر، وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره، لما بيناه من انفكاكه فى التقدير ، وعدم توغله فى الاتصال ، بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه ، بما ليس أجنبياً عنه ، وكأنه بالتقدير : فكّه بالفعل ، ثم قدم المفعول على الفاعل ، وأضافه إلى الفاعل ، وبقى المفعول مكانه حين الفك . ويسهل ذلك أيضاً تغاير حال المصدر ، إذ تارة يضاف إلى الفاعل ، وتارة يضاف إلى المفعول . وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل ، لوقوعه فى غير مرتبته، إذ ينوى به التأخير ، فكأنه لم يفصل . كما جاز تقدم المضمر على الظاهر إذا حلّ فى غير رتبته ، لأن النية به التأخير، وأنشد أبو عبيدة :

فَدَاسَهُمْ دَوْسَ الْحَصَادَ الدَّائِسِ

وأنشد أيضاً[١] :

يَفْرُكْنَ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ بِالْقَاعِ فَرْكَ الْقُطُنَ الْمَحَالِجِ

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول . ومما يقوّى عدم توغله فى الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً . فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد ، منظرة بشواهد من أقيسة العربية ، تجمع شمل القوانين النحوية ، لهذه القراءة . وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا قدر كاف إن شاء الله فى الجمع بينهما ـ والله الموفق ـ وما أجريناه فى أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التى يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر فى إضافته، ولا مستبعد من القياس ، ولم نفرده فى الدلالة المذكورة . إذ المتفق على عدم تمحضها لا يسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة ـ والله الموفق ـ انتهى كلام الناصر رحمه الله تعالى[٢] .

ثم بيّن تعالى نوعاً آخر من مفترياتهم بقوله :

---

(١) فى اللسان : قال جَنْدَل بن المثنَّى :

* يَفْرُكُ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ *

وقال : الكنافج السمين الممتلئ . وسنبل كنافجٌ مكْتنز . وقال ابن سيده : وقيل هو الغليظ الناعم .

(٢) ويجدر بنا فى هذا المقام أن نطلع القارئ الحصيف على رأى كبير المفسرين، الإمام محمد بن جرير الطبرىّ ، قال رضى الله عنه :

وقرأ بعض قَرَأَةِ الشام (وكذلك زُيِّن) بضم الزاى (لكثير من المشركين قَتْلُ) بالرفع (أولادَهم) بالنصب (شركائِهم) بالخفض بمعنى : وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَقَالُوا هَـٰذِهِ » إشارة إلى ماجعلوه لآلهتهم، والتأنيث للخبر «أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ» أى : حرام (والجمهور على كسر الحاء وسكون الجيم) فِعْل بمعنى مفعول ، كالذِّبح والطِّحن ، يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات. أى : محرمة علينا ، أو محجرة علينا فى أموالنا للأوثان . ويقرأ بضم الحاء .

= قتلُ شركائهم أولادَهم ، ففرقوا بين الخافض والمخفوض بما عمل فيـــه من الاسم . وذلك فى كلام العرب قبيح غير فصيح .

وقد روى عن بعض أهل الحجاز بيت من الشعر يؤيد قراءة من قرأ بما ذكرتُ من قَرَأَةِ أهل الشام، رأيتُ رواة الشعر وأهل العلم بالعربية من أهـل العراق ينكرونه .

وذلك قول قائلهم :

فزججتـــه متمكِّنا زجَّ القَلُوصَ أبى مَزَادَهْ

قال أبو جعفر : والقراءة التى لا أستجيز غيرها (وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم) بفتح الزاى من (زين) ونصب (القتل) بوقوع (زين) عليه . وخفض (أولادهم) بإضافة (القتل) إليهم ، ورفع (الشركاء) بفعلهم . لأنهم هم الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم ، على ما ذكرتُ من التأويل .

وإنما قلتُ : (لا أستجيز القراءة بغيرها) لإجماع الحجة من القَرَأَةِ عليه . وأن تأويل أهل التأويل بذلك ورد . ففى ذلك أوضح بيان على فساد ما خالفها من القراءة .

obeikandi.com

« لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ » قال فى (المدارك) : كانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا : لايطعمها إلا من نشاء . يعنون: خدم الأوثان، والرجال دون النساء.

« بِزَعْمِهِمْ » حال من فاعل (قالوا) أى : متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة .

قال ابن كثير : وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ)(١) .

« وَأَنْعَامٌ » أى : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام « حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا » يعنون بها البحائر والسوائب والحوامى « وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا » أى : حالة الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام « افْتِرَاءً عَلَيْهِ » أى : على الله ، وكذباً منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ، ولا رضيه منهم. « سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : عليه ، ويسندون إليه . وفيه وعيد وتهديد .

ثم بيّن تعالى فناً آخر من ضلالهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَقَالُوا مَافِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ » يعنون أجنّة البحائر والسوائب « خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا » يعنون أنه حلال للذكور دون الإناث ، إن ولد حيًّا لقوله سبحانه : « وَإِنْ يَكُنْ » أى : مافى بطونها « مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ » فالذكور والإناث فيه سواء .

وفى رواية العوفىّ عن ابن عباس أن المعنىّ بـ (مَافِي بُطُونِهَا) هو اللبن . كانوا يحرمونه

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] .

على إناثهم ، ويشربه ذكرانهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه . وكان للرجال دون النساء . وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء .

وقال الشعبيّ : البحيرة، لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . وكذا قال عكرمة وقتادة وابن أسلم .

« سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أي: بالتحليل والتحريم على سبيل التحكم ونسبته إلى الله تعالى « إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » أي : حكيم في أفعاله وأقواله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من خير أو شر ، وسيجزيهم عليها .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : استدل مالك بقوله (خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا) على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور دون البنات ، وأن ذلك الوقف يفسخ، ولو بعد موت الواقف ، لأن ذلك من فعل الجاهلية . واستدل به بعض المالكية على مثل ذلك في الهبة . انتهى .

لطائف

(التاء) في (خَالِصَةٌ) إما للنقل إلى الاسمية ، أو للمبالغة ، أو لأن (الخالصة) مصدر كالعافية ، وقع موقع (الخالص) مبالغة ، أو بحذف المضاف . أي : ذو خالصة ، أو للتأنيث بناءً على أن (ما) عبارة عن الأجنة . والتذكير في (محرم) باعتبار اللفظ . وقرىء (خَالِصَةً) بالنصب على أنه مصدر مؤكد ، والخبر (لِذُكُورِنَا) . ووصفهم واقع موقع مصدر (سَيَجْزِيهِمْ) بتقدير مضاف . أي : جزاء وصفهم بالكذب عليه تعالى في التحريم والتحليل من قوله تعالى : (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)(١) .

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] ونصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ .

قال الشهاب : وهذا من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم يقولون: وصف كلامه الكذب، إذا كذب ، وعينه تصف السحر ، أى : ساحرة ، وقدّه يصف الرشاقة ، بمعنى رشيق ، مبالغةً . حتى كأنَّ من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له . قال المعرّى[1] :

سَرَى برقُ المعرَّةِ بعد وَهْنٍ فبَاتَ بِرامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ» يعنى: وأد بناتهم خشية السبْى أو الفقر « سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم ، لا هم « وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ » من البحائر والسوائب ونحوها « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا » عن الصراط المستقيم . « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى : إلى الحق والصواب .

قال الشهاب : وفى قوله (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) بعد قوله (قَدْ ضَلُّوا) مبالغة فى نفى الهداية عنهم، لأن صيغة الفعل تقتضى حدوث الضلال، بعد أن لم يكن. فلذا أردف بهذه الحال، لبيان عراقتهم فى الضلال ، وإنما ضلالهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض .

---

(١) من قصيدته فى سقط زند . ومطلعها :

أَعَنْ وَخْدِ القِلاصِ كشفْتِ حالا ومِنْ عندِ الظلامِ طلبتِ مَالَا

قال شارح البيت :

بعد وهن أى بعد طائفة من الليل . ومعرّة النعمان بلد بالشام . ورامة موضع بعينه .

يقول: لما حللنا برامة مغربا نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام، من صوب معرة النعمان، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال . أى يشكو ضعفه لأنه قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

تنبيه :

حمل كثير من المفسرين (الخسران) على ما يشمل الدارين . أما الدنيا فخسروا منافع أولادهم ، وثمرة ماخلقوا له . وكذا منافع أنعامهم بما ضيقوا وحجروا فيها ابتداعاً . وأما الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل . وهذا التعميم ، وإن كان حقا ، إلا أن الأظهر حمله على الآخرة ، توفيقاً بين النظائر ، كقوله[1] تعالى : (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) .

روى الحافظ ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ...) الآية ـ وهكذا رواه[2] البخارىّ فى مناقب قريش من (صحيحه) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

وقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ » تمهيد لماسيأتى من تفصيل أحوال الأنعام . أى : هوالذى أنعم عليكم بأنواع النعم ، لتعبدوه وحده، فخلق لكم بساتين من الكروم وغيرها معروشات ، أى : مسموكات بما عملتم لها من الأعمدة . يقال : عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان . (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) متروكات على وجه الأرض لم تعرش . « وَ » أنشأ « النَّخْلَ » المثمر لما هو فاكهة وقوت ،

(١) [١٠ / يونس / ٦٩و٧٠]

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ١٢ ـ باب قصة زمزم وجهل العرب.

« وَالزَّرْعَ » المحصل لأنواع القوت « مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ » أى : ثمره وحبّه فى اللون والطعم والحجم والرائحة . « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً » فى اللون والشكل، ورقهما « وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » فى الطعم « كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : كلوا من ثمر كل واحد مما ذكر ، إذا أدرك .

قال الرازىّ : لما ذكر تعالى كيفية خلقه لهذه الأشياء، ذكر ما هو المقصود الأصلىّ من خلقها ، وهو انتفاع المكلفين بها ، فقال : (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) واختلفوا ما الفائدة منه ؟ فقال بعضهم : الإباحة . وقال آخرون : بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق، لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله، لمكان شركة المساكين فيه، بل هذا هو الظاهر . فأباح تعالى هذا الأكل ، وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعاً من هذا التصرف . وقال بعضهم : بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل، وإما التصدق ، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق ، لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير. قال تعالى[1]: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) . انتهى .

« وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » قرىء بفتح الحاء وكسرها . وهذا أمر بإيتاء من حضر يومئذ ما تيسر ، وليس بالزكاة المفروضة ـ هكذا قال عطاء ـ أى : لأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة . وكذا قال مجاهد : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه . وفى رواية عنه : عند الحصاد يعطى القبضة ، وعند الصرام يعطى القبضة . ويتركهم يتبعون آثار الصرام . وهكذا روى عن نافع وإبراهيم النخعىّ وغيرهم . وعند هؤلاء أن هذا الحق

(١) [٢٨ / القصص / ٧٧] ونصها : وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

باقٍ لم ينسخ بالزكاة ، فيوجبون إطعام من يحضر الحصاد لهذه الآية . ومما يؤيده أنه تعالى ذم الذى يصرمون ولا يتصدقون ، حيث قصّ علينا سوء فعلهم وانتقامه منهم . قال تعالى فى سورة (ن) : (إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)[1] أى: كالليل المدلهمّ، سوداء محترقة . (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ...)[2] الآيات .

وذهب بعضهم إلى أن هذا الحق نسخ بآية الزكاة ، حكاه ابن جرير[3] عن ابن عباس وثلة من التابعين .

قال ابن كثير : فى تسمية هذا نسخاً نظر ، لأنه قد كان شيئاً واجباً . ثم إنه فسر بيانه وبين مقدار المخرج وكميته . انتهى .

ولا نظرَ ، لما عرفت فى المقدمة من تسمية مثل ذلك نسخاً عند السلف ، ومرّ قريباً أيضاً ، فتذكر !

وذهب بعضهم إلى أن الآية مدنية، ضمت إلى هذه السورة فى نظائرها، بيّناها أول السورة، وأن الحق هو الزكاة المفروضة . روى عن أنس وابن عباس وابن المسيّب .

والأمر بإيتائها يوم الحصاد، للمبالغة فى العزم على المبادرة إليه . والمعنى : اعزموا على إيتاء الحق واقصدوه ، واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء .

قال الحاكم : وقيل : إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفاً على الأرباب ، فلا يحسب عليهم ما أكل قبله .

(١) [٦٨ / القلم / ١٧ـ٢٠] ونصها : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ...
(٢) [٦٨ / القلم / ٢١ـ٢٤] .
(٣) الأثران رقم ١٤٠٢٠ و١٤٠٢١ من التفسير .

وقد روى العوفيّ عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا زرع فكان يوم حصاده ، لم يُخرج مما حصد شيئاً ، فقال تعالى : (وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِ) وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد ، وما يلقط الناس من سنبله .

وقد روى الإمام أحمد[1] وأبو داود[2] عن جابر بن عبد الله قال : أمر رسول الله ﷺ من كل جادّ عشرة أوسق من التمر ، بقنو يعلق فى المسجد للمساكين .

قال ابن كثير : إسناده جيد قوىّ .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من أوجب الزكاة فى كل زرع وثمر ، خصوصاً الزيتون والرمان المنصوص عليهما . ومن خصها بالحبوب ، قال : إن الحصاد لا يطلق حقيقة إلا عليها . وفيها دليل على أن الزكاة لا يجب أداؤها قبل الحصاد . واستدل بها أيضاً على أن الاقتران لا يفيد التسوية فى الأحكام ، لأنه تعالى قرن الأكل ، وهو ليس بواجب اتفاقاً ، بالإيتاء ، وهو واجب اتفاقا. انتهى .

وقوله تعالى : « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » النهى عن الإسراف ، إما فى التصدق ، أى : لا تعطوا فوق المعروف . قال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً ، ثم تبادروا فيه وأسرفوا ، فنزلت (وَلَا تُسْرِفُوا) . وقال ابن جريج : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس . جدّ نخلًا له فقال : لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فنزلت . ولذا قال السدّىّ : أى : لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . وإما فى الأكل قبل الحصاد ، وهذا عن أبى مسلم قال : ولا تسرفوا فى الأكل قبل الحصاد كيلا يؤدى إلى بخس حق الفقراء . وإما فى كل شىء ، قال عطاء : نهوا عن السرف فى كل شىء .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥٩و٣٦٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٢ ـ باب فى حقوق المال ، حديث ١٦٦٢

وقال إياس بن معاوية : ماجاوزْتَ به أمر الله ، فهو سرف . واختار ابن جرير[١] قول عطاء. قال ابن كثير : ولاشك أنه صحيح ، لكن الظاهر ـ والله أعلم ـ من سياق الآية ، حيث قال تعالى (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) أن يكون عائدًا على الأكل . أى : لا تسرفوا فى الأكل ، لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كقوله تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . . .)[٢] الآية .

وفى صحيح البخارىّ[٣] تعليقاً : كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة . وهذا من هذا ـ والله أعلم ـ انتهى .

وقد جنح إلى هذا المهايمىّ فى تفسيره حيث قال : ولا تسرفوا فى أكلها لئلا يبطله باستيفاء الشهوات ، معنى المزرعة .

ثم بيّن تعالى حال الأنعام ، وأبطل ماتقوّلوا عليه فى شأنها بالتحريم والتحليل، بقوله :

---

(١) الأثر رقم ١٤٠٤١ من التفسير ونصه :
عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : « وَلَا تُسْرِفُوا » يقول : لا تسرفوا فيما يأتى يوم الحصاد ، أم كل شيء ؟ قال : بلى ! فى كل شيء ، ينهى عن السرف .
قال : ثم عاودته بعد حين فقلت : ما قوله « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ؟ قال: ينهى عن السرف فى كل شيء . ثم تلا « لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا » [٢٥/الفرقان/٦٧].
(٢) [٧/ الأعراف/ ٣١] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .
(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس، ١ باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا » أى : وأنشأ لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما يفرش للذبح (أى : يضجع) أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش .

وعن ابن عباس : الحمولة الكبار التى تصلح للحمل ، والفرش الصغير كالفصلان والعجاجيل والغنم ؛ لأنها دانية من الأرض، للطافة أجرامها ، مثل الفرش المفروش عليها. فعلى الوجهين الأولين : الفرش بمعنى المفروش ، وعلى الثالث : الكلام على التشبيه .

« كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى : من الثمار والزروع والأنعام ، لحفظ الروح واستزادة القوة .

« وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى : أوامره فى التحليل والتحريم ، كما اتبعها أهل الجاهلية ، فحرموا ما رزقهم الله افتراءً عليه ـ كما مرّ ـ .

« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » أى : ظاهر العداوة ، يمنعكم مما يحفظ روحكم ، ويزيد قوتكم ، ويدعوكم إلى الافتراء على الله إن نسبتموه إلى أمره ، أو إلى دعوى الإلٰهية لكم إن استقللتم به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقوله تعالى « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » بدل من (حَمُولَةً وَفَرْشًا) أو مفعول (كُلُوا) .

(وَلَا تَتَّبِعُوا) معترض بينهما ، أو فعل دل عليه ، أو حال من (ما) بمعنى مختلفة أو متعددة. والزوج مامعه آخر من جنسه يزاوجه . قال تعالى[1] (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ). وقد يقال لمجموعهما ، والمراد الأول .

« مِنَ الضَّأْنِ » زوجين « اثْنَيْنِ » الكبش والنعجة « وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » التيس والعنز . « قُلْ » أي : تبكيتاً لهم ، وإظهارًا لانقطاعهم عن الجواب « ءَالذَّكَرَيْنِ » من الضأن والمعز « حَرَّمَ » الله عليكم أيها المشركون « أَمِ الْأُنثَيَيْنِ » منهما « أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ » أي : أم ما حملت إناث الجنسين ذكرًا كان أو أنثى ، كما قالوا : (مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ ...)[2] الآية .

« نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ » أي بدليل نقليّ من كتب أوائل الرسل ، أو عقليّ في الفرق بين هذين النوعين ، والنوعين الآتيين ـ قاله المهايمي ـ .

« إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أي : في دعوى التحريم .

وفي قوله تعالى (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ...) تكرير للإلزام ، وتثنية للتبكيت والإفحام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ » عطف على قوله تعالى (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) أي : وأنشأ من

---

(١) [٥٣ / النجم / ٤٥]

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٩] ونصها : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

الإبل اثنين هما الجمل والناقة . « وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » ذكراً وأنثى . « قُلْ » أى : إفحاماً لهم أيضاً فى هذين النوعين « آلذَّكَرَيْنِ » منهما « حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ » أى من ذينك النوعين . والمعنى إنكار أن الله سبحانه وتعالى حرم عليهم شيئا من الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم فى ذلك . وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث ومافى بطونها ـ للمبالغة فى الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من موادافترائهم. فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى . مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه . وإنما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكار مع حصول التبكيت بإيراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال : قل آلذكور حرم أم الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث ـ لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والإلزام . أفاده أبو السعود .

ثم كرر الإفحام بقوله تعالى « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ » حاضرين « إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَٰذَا » أى حين وصاكم بتحريم بعض وتحليله . وهذا من باب التهكم « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً » أى فنسب إليه تحريم مالم يحرم « لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى دليل « إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » قال ابن كثير : أول من دخل فى هذه الآية عمرو ابن لحىّ بن قمعة . لأنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سيّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامى . كما ثبت ذلك فى الصحيح[1] .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٣ ـ باب مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، حديث ١٦٥٧ ونصه :

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعىّ يجرّ قُصْبه فى النار. كان أول من سيّب السوائب . والوصيلة الناقة البكر تبكّر فى أول نتاج الإبل ، ثم تُثَنِّى بعدُ بأنثى. وكانوا يسيّبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى، ليس بينهما ذكر. =

وقال أبو السعود : المراد كبراؤهم المقرّون لذلك . أو عمرو بن لحىّ وهو المؤسس لهذا الشر . أو الكل لاشتراكهم فى الافتراء عليه ، سبحانه وتعالى .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : « فإنْ قلت : كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه ولم يوال بينه ؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضا غير أجنبيّ من المعدود . وذلك أن الله عز وجل منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم. فاعترض بالاحتجاج على من حرمها. والاحتجاجُ على من حرمها تأكيد وتسديد للتحليل . والاعتراضات فى الكلام لا تساق إلا للتوكيد . انتهى .

تنبيه :

دلت الآية على إباحة لحوم أكل الأنعام. وذلك معلوم من الدين ضرورة . وكذلك الانتفاع بالركوب فيما يركب، والافتراش للأصواف والأوبار والجلود . وعلى ردّ ما كانت الجاهلية تحرّمه بغير علم .

قال المؤيد بالله : ويدخل الإنسىّ والوحشىّ فى قوله : (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ). وردّ بأن قوله تعالى (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) بيان للأنعام . والأنعام لا تطلق على الوحشىّ . أفاده بعض مفسرى الزيدية .

ثم أمر تعالى رسول الله ﷺ ـ بعد إلزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن ما يتقوّلونه فى أمر التحريم افتراء بحتٌ ـ بأن يبيّن لهم ماحرمه عليهم ، فقال سبحانه :

= والحامِ فحل الإبل يضربُ الضرابَ المعدودَ فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل ، فلم يحمل عليه شىء ، وسموه الحامىَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » أى طعاما محرما من المطاعم « عَلَىٰ طَاعِمٍ » أى : أىّ طاعم كان من ذكر أو أنثى . ردًّا على قولهم (مُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا) وقوله « يَطْعَمُهُ » لزيادة التقرير « إِلَّا أَنْ يَكُونَ » أى ذلك الطعام « مَيْتَةً » . قال المهايمىّ : والموت سبب الفساد . فهو منجس ، إلا أن يمنع من تأثيره مانع من ذكر اسم الله، أو كونه من الماء، أو غيرها « أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا » أى سائلا لا كبدا أوطحالا « أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ » لتعوّده أكل النجاسات « أَوْ فِسْقًا » أى : خروجا عن الدين الذى هو كالحياة المطهّرة « أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أى ذبح على اسم الأصنام ورفع الصوت على ذبحه باسم غيرالله. وإنما سمى (مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) فسقاً، لتوغله فى باب الفسق ومنه قوله تعالى (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) . « فَمَنِ اضْطُرَّ » أى : أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شىء مما ذكر « غَيْرَ بَاغٍ » أى: على مضطر مثله، تارك لمواساته «وَلَا عَادٍ» متجاوز قدر حاجته من تناوله « فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » لا يؤاخذه . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة والمائدة بما فيه كفاية .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه الآية الكريمة الردّ على المشركين الذين ابتدعوا ماابتدعوه من تحريم البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر تعالى رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه إليه أن ذلك محرم. وأن الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها.

وما عدا ذلك فلم يحرم . وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ؟ ومن أين حرمتموه ولم يحرمه تعالى؟ وعلى هذا ، فلا ينفى تحريم أشياء أُخَر فيما بعد هذا . كما جاء النهى عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير ـ انتهى ـ وبالجملة فالآية تدل على أنه ﷺ لم يجد فيما أوحى إليه إلى تلك الغاية غيره . ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شىء آخر، كالموقوذة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وغيرها. وذلك لأن هذه السورة مكية . فما عدا ما ذكر تحريمه فيها مما حرم أيضاً، طارئ. قيل : إذا حرم غير ما ذكر كان نسخاً لما اقتضته هذه الآية من تحليله . وجوابه أن ذلك زيادة تحريم وليس بنسخ لما فى الآية . فصحّ تحريم كل ذى ناب من السبع ومخلب من الطير . ومن الناس من يسمى هذا نسخاً بالمعنى السلفىّ. وقد بيّنّاه مراراً .

قال بعض الزيدية : وقد تعلق ابن عباس بالآية فى تحليل لحم الحمر الأهلية . وعائشة فى لحوم السباع . وعكرمة فى إباحة كل شىء سوى ما فى الآية . وعن الشعبىّ ؛ أنه كان يبيح لحم الفيل ويتلو هذه الآية .

ولا تعلق لجميعهم بالآية. لأنه تعالى بين ما يحرم فى تلك الأحوال . انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : احتج بها كثير من السلف فى إباحة ماعدا المذكور فيها . فمن ذلك الحمر الأهلية. أخرجه البخارىّ[1] عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن يزيد: يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن حُمُر الأهلية . فقال : قد كان يقول ذلك الحكمُ بن عمرو الغفارىّ عندنا بالبصرة . ولكن أبى ذلك البحرُ (ابنُ عباس) وقرأ: (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ) الآية . وأخرج أبوداود[2] عن ابن عمر أنه سئل عن أكل القنفذ؟ فقرأ :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الإنسية ، حديث ٢٢٠٧ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٩ ـ باب فى أكل حشرات =

قُلْ لَا أَجِدُ . . . الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وغيره، بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير؟ تلت : قُلْ لَا أَجِدُ... الآية . وأخرج عن ابن عباس أنه قال : ليس من الدواب شىء حرام إلا ماحرم الله فى كتابه : قُلْ لَا أَجِدُ الآية . انتهى .

وأخرج أبوداود عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا . فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرّم حرامه . فما أحل فهو حلال وما حرّم فهو حرام . وما سكت عنه فهو معفوّ . وتلا : قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية .

وذكرنا ضعف التعلق بهذه الآية على ماذهبوا إليه .

قال فى (فتح البيان) : معنى الآية أنه تعالى أمره ﷺ بأن يخبرهم أنه لا يجد فى شىء مما أوحى إليه محرّماغير هـــذه المذكورات . فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها، لولا أنها مكية . وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وصحّ عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذى ناب من الســـباع(٢)

= الأرض ، حديث ٣٧٩٩ ونصه :

عن عيسى بن نميلة عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فسئل عن أكل القنفذ ؟ فتلا (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...) الآية . قال قال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبيّ ﷺ فقال « خبيثةٌ من الخبائث » .

فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله ﷺ هذا ، فهو كما قال [مَا لَمْ نَدْرِ] .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الطعام ، ٣٠ ـ باب ما لم يذكر تحريمه ، حديث ٣٨٠٠ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى:٧٦ـ كتاب الطب،٥٧ـ باب ألبان الأتن،حديث٢٢٠٨ ونصه: عن أبى ثعلبة الخشنىّ رضى الله عنه، قال: نهى النبيّ ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع. وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ١٢ (طبعتنا) .

وكل ذى مخلب من الطير[١] وتحريم الحمر الأهلية[٢] والـكلاب، ونحو ذلك .

وبالجملة ، فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات، كما يدل عليه السياق ويفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده فى الـكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شىء من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شىء حرمه الله من حيوان وغيره ، فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيـه تحريم شىء من الأشياء. وقد رُوِى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة؛ أنه لا حرام إلا ما ذكره الله فى هذه الآية . وروى ذلك عن مالك . وهو قول ساقط ومذهب فى غاية الضعف لا ستلزامه لإهمال غيرها ، مما نزل بعـدها من القرآن ، وإهمالِ ما صح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد نزول هذه الآية . بلا سبب يقتضى ذلك ولا موجب يوجبه . وقول جابر (لـكن أبى ذلك البحرا بن عباس) فى رواية البخارىّ المتقدمة، أقول : وإن أبى ذلك البحر ، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ . والتمسكُ بقول صحابىٍّ فى مقابلة قول النبىّ ﷺ من سوء الاختيار وعدم الانصاف . انتهى كلام الفتح .

وفى (نيل الأوطار) : الاستدلال بهـــذه الآية إنما يتمّ فى الأشياء التى لم يرد النصّ بتحريمها . وأمّا الحمر الأنسية فقد تواترت النصوص على ذلك . والتنصيص على التحريم مقدم على عموم التحليل وعلى القياس . وأيضا الآية مكية . انتهى .

وقد ثبت عن ابن عمر رجوعه عن التعلق بعمومها .

روى سعيد بن منصور والإمام أحمـد[٣] وأبو داود[٤] عن نميلة الفزارىّ قال : كنت

---

(١) أخرجه مسلم فى: ٣٤ـ كتاب الصيد والذبائح، حديث١٦ (طبعتنا) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الأنسية ، حديث ٥٠٦ ونصه :

عن ابن عمر رضى الله عنهما : نهى النبىّ ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، يوم خيبر .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٤) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٣٤ .

عند ابن عمر ، وإنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ عليه : قل لا أجد...الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكِرَ عند النبيّ ﷺ فقال : خبيث من الخبائث . فقال ابن عمر : إن كان النبيّ ﷺ قاله فهو كما قال .

أي والخبائث محرّمة بنص القرآن، فهو مخصص لعموم هذه الآية .

وعن المقدام بن معدى كرب قال: قال رسول الله ﷺ: ألاهل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهومتكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله . فما وجدنا فيه حلالا استحللناه. وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى . أخرجه الترمذيّ[(١)] وقال : حديث حسن غريب .

ولأبي داود[(٢)] قال: قال رسول الله ﷺ : ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه. لا يوشك رجل شبعانُ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم (لحم) الحمار الأهليّ ولا كل ذي ناب من السبع ولا لُقَطَةُ معاهد ألا أن يستغني عنها صاحبها. ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه . فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه . (أي يأخذ منهم عوضا عما حَرَموه من القِرى) .

هذا والزمخشريّ فسر محرما بـ (طعاما محرما من المطاعم التي حرمتموها) وجعل الاستثناء منقطعا . أي لا أجد ما حرمتموه لكن أجد الأربعة محرّمة . وهذا لا دلالة فيه على الحصر حتى ترد المحرمات الأخر . إذ الاستثناء المنقطع ليس كالمتصل في الحصر . وغير الزمخشريّ لم يقيّده بما ذكر . لأن الأصل الاتصال وعدم التقييد . وأوّلوها بما قدمنا قبل . وحينئذ يكون الاستثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال مفرغا . بمعنى : لا أجد

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٣٩ ـ كتاب العلم ، ١٠ ـ باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبيّ ﷺ .

(٢) أخرجه أبو داود في: ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٥ ـ باب في لزوم السنّة، حديث ٤٦٠٤

شيئاً من المطاعم المحرمات فى وقت من الأوقات ، أو حال من الأحوال ، إلا فى وقت أو حال كون الطعام أحد الأربعة. فإنى أجد حينئذ محرما . فالمصدر للزمان أو الهيئة . وفيه أن المصدر المؤول من (أن والفعل) لا ينصب على الظرفية . ولا يقع حالا ، لأنه معرفة . والله أعلم .

الثانى ـ فى قوله تعالى (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) إيذان بأن التحريم إنما يعلم بالوحى لا بالهوى . قال الشهاب: كنى بعدم الوجدان عن عدم الوجود. ومبنى هذه الكناية على أن طريق التحريم التنصيص منه تعالى . وتفسيره بمطلق الوحى استظهروه . ولذا قال : أوحى ولم يقل : أنزل .

الثالث ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل النبىّ ﷺ بقوله (عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ) على أنه إنما حرم من الميتة أكلها . وأن جلدها يطهر بالدبغ . فأخرج أحمد[1] وغيره عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زَمْعة فقالت : يا رسول الله ! ماتت فلانة (يعنى الشاة) فقال : فلولا أخذتم مَسْكها؟ فقالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ : إنما قال الله عز وجل : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ. فإنكم لا تطعمونه . إن تدبغوه تنتفعوا به. فأرسلت إليها فسلختْ مسكها فدبغته ، فاتخذت منه قِرْبة ، حتى تخرّقت عندها .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى (مَسْفُوحًا) على إباحة غيره . وذلك لأن الدم المسفوح هو ما سال من الحيوان فى حال الحياة ، أو عند الذبح ـ لا كالكبد والطحال ـ وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل . قال عمران بن جدير : سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم ، وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال : لا بأس بذلك ! إنما نهى عن الدم المسفوح .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٠٢٧ (طبعة المعارف) .

وقال إبراهيم النخعيّ : لا بأس بالدم في عِرْقٍ أو مخ ، إلّا المسفوح .

وقال عكرمة : لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود .

ثم بيّن تعالى أنه حرم على اليهود أشياء أخرى غير هذه الأربعة، تحقيقاً لافتراء المشركين فيما حرّموه، إذْ لم يوافق شيئاً مما أنزله تعالى ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » أي : اليهود خاصة « حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ » قال سعيد بن جبير : هو الذي ليس منفرج الأصابع ـ كالجمل والوبْر والأرنب ـ فإنها من ذوات الأظفار الغير المشقوقة ـ أي المنفرجة ـ وأما ذو الظفر المشقوق وهو يجترّ من البهائم، فلم يحرم عليهم. «وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا» لا لحومهما «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا» يعني : ما علق بالظهر من الشحوم « أَوِ الْحَوَايَا » أي : الأمعاء والمصارين ـ أي : ما حملته من الشحوم ـ « أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » كالمخ والعصعص « ذَٰلِكَ » أي : تحريم تلك الأطايب عليهم « جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ » بسبب ظلمهم ، وهو قتلهم الأنبياء بغير حقّ ، وأكلهم الربا ـ وقد نهوا عنه ـ وأكلهم أموال الناس بالباطل ، كقوله تعالى[١] (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا) .

قال المهايميّ : أي : ولم يكن لغيرهم ذلك البغي ، فلا وجه لتحريمها عليهم مع كونها أطايب في أنفسها .

« وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أي : في جميع أخبارنا التي من جملتها هذا الخبر ؛ وهو تخصيص التحريم بهم، لبغيهم .

(١) [٤ / النساء / ١٦٠] .

قال ابن جرير(١) : لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرّمه على نفسه .

قال أبوالسعود : ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » الضمير إمّا لليهود لأنهم أقرب ذكرًا، ولِذِكْرِ المشركين بعد ذلك بعنوان الإشراك؛ وإمّا للمشركين، وإما للفريقين. أى: فإن كذبتك اليهود فى التخصيص وزعموا أن تحريم الله لا ينسخ ، وأصرّوا على ادعاء قدم التحريم ؛ أو المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم ، أوهما فيما ادّعيا « فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يهمل « وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى : ومع رحمته فهو ذو بأس شديد. وفيه ترغيبٌ لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة، وذلك فى اتباع رضوانه ، وترهيبٌ من المخالفة .

وليعلم أن المشركين لما لزمتهم الحجة ـ ببطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله ـ أخبرَ تعالى عنهم بما سيقولونه من شبهة يتشبثون بها لشركهم وتحريم ما حرّموا . وفائدةُ الإخبار بما سوف يقولونه ، توطين النفس على الجواب ، ومكافحتهم بالردّ، وإعداد الحجة قبل أوانها ، فقال تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٦ من الجزء الثانى عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

« سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » يعنى مشركى قريش والعرب « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ » يعنى ما حرموه من البحائر والسوائب وغيرها « كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا » أى : حتى أنزلنا عليهم العذاب « قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا » أى : أمر معلوم يصحّ الاحتجاج به فيما قلتم فتظهروه لنا « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى : فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما حرّمتم « وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ » تكذبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ » البيّنة الواضحة التى بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات. ومنه : (أيمان بالغة) أى : مؤكدة . أو (البالغة) التى بلغ بها صاحبها صحة دعواه فهى (كعيشة راضية) . « فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : ولكنه لم يشأ ذلك . بل شاء هدايةَ بعضٍ صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحقّ ، وضلالَ آخرين صرفوا كسبهم إلى خلاف ذلك، من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم ، فوقع ذلك على الوجه الذى شاءه .

قال الإمام أبو منصور الماتريدىّ فى (تأويلاته) : قيل : الآية فى مشركى العرب . قالوا ذلك حين لزمتهم المناقضة وانقطع حجاجهم فى تحريم ما حرّموا من الأشياء . وأضافوا

ذلك إلى الله ، وهو صلة قوله (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ... ـ إلى قوله ـ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا)(١) ، فلما ألزمتهم المناقضة وانقطع حجاجهم فزعوا إلى هذا القول (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ...)(٢) الآية ! انتهى .

والقصد : الاعتذار عن كل ما يقدمون عليه من الإشراك وتحريم الحلال . أى: ولكنه لم يشأ الترك وشاء الفعل ، ففعلنا طوع مشيئته ، وهو لا يشاء إلا الحق ، لأنه قادر . فلو لم يكن حقًّا يرضاه لمنعنا منه . وهو لم يمنعنا منه فهو حقٌّ . وفى حكاية هذه المناظرة والمجادلة بيانٌ لنوعٍ من كفرهم شنيع جدًّا ..!

تنبيه :

هذه الآية تكرر نظيرها فى التنزيل الكريم فى عدة سور ، وهى من الآيات الجديرة بالتدبر لتمحيص الحق فى المراد منها .

فقد زعم المعتزلة أن فيها دلالة واضحة لمذهبهم من أن الله لا يشاء المعاصى والكفر ، كما تبجّح بذلك منهم الطبرسىّ الشيعىّ فى (تفسيره) وقال : إن فيها تكذيباً ظاهراً لمن أضاف مشيئة ذلك إلى الله سبحانه ؛ وكذا الزمخشرىّ فى (تفسيره) .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٣و١٤٤] ونصهما : ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٦/ الأنعام/ ١٤٨] ونصها : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

ومعلومٌ أنّ عقيدة الفرقة الناجية، الإيمانُ بأن : ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن، وأنه ما فى السموات والأرض من حركة ولا سكون إلّا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون فى ملكه إلّا ما يريد ، وهو خالقٌ لأفعال العباد .. !

وقد خالف فى ذلك عامة القدرية ـ الذين سمّاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ـ فقالوا : لا إرادة إلّا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلّا ما أمر به ، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد. فعندهم أكثر مايقع من أفعال العباد على خلاف إرادته تعالى. ولما كان قولهم هذا فى غاية الشناعة، تبرأ منهم الصحابة. وأصل بدعتهم ـ كما قال ابن تيمية ـ كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه . وسنبيّن تحقيق ذلك بعد أن نورد شبهتهم فى هذه الآية وندمغها ـ بعونه تعالى ـ بعدة وجوه فنقول :

(قالوا) : إن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم قالوا : أشركنا بإرادة الله تعالى. ولو أراد عدم إشراكنا لما أشركنا، ولمَا صدر عنا تحريم المحللات فقد أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادته تعالى كما تزعمون أنتم . ثم إنه تعالى ردّ عليهم مقالتهم وبيّن بطلانها وذمّهم عليها وأوعدهم عليها وعيداً شديداً . فلو كان يجوز إضافة المشيئة إلى الله تعالى فى ذلك ، على ماتضيفون أنتم ، لم يكن يردّ ذلك عليهم ويتوعّدهم !

(قلنا) : إنّ المشيئة فى الآية تتخرّج على وجوه :

أحدها : ما قال الحسن والأصمّ ـ إن المشيئة ههنا الرضا ـ فمرادهم : أنّ الله رضى بفعلنا وصنيعنا ـ حيث فعل آباؤنا مثل ما فعلنا ـ فلم يَحُل الله بينهم وبين ذلك ، ولا أخذ على أيديهم، ولا منعهم عن ذلك ؛ فلو لم يرض بذلك عنهم لكان يمنعهم عنه !

قال أبو منصور : وإنما استدلوا بالرضا من الله والإذن فيما كانوا فيه ، أنهم كانوا يخوفون بالهلاك والعذاب على صنيعهم ، ثم رأوا آباءهم ماتوا على ذلك ولم يأتهم العذاب ، فاستدلوا بتأخير نزول العذاب عليهم على أنّ الله رضى بذلك .

وبالجملة ، أرادوا بقولهم ذلك ، أنهم على الحق المشروع المرضيّ عند الله. ولما كانت حجتهم داحضةً باطلة ـ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمّر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام ـ قال تعالى : (قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) أى: بأنّ الله راضٍ عليكم فيما أنتم فيه ! وهذا من التهكّمِ والشهادةِ بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة .

وفى (الوجيز): الحاصل أنّ المشركين اعتقدوا عدم التفرقة بين المأمور المرضيّ والمشيئة، كما اعتقدت المعتزلة ، فاحتجوا على حقيّة الإشراك . وينادى على ذلك قوله (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ...) فإنه لو كان المراد أنّ ذلك ليس بمشيئة الله تعالى لقال (كَذَٰلِكَ كَذَبَ) بالتخفيف لا التشديد. وهذه الآية ـ عند من له أذن واعية ـ تصيح على المعتزلة بالويل والثبور، لكن فى آذانهم وقر ، ومن لم يهده الله فلا هادى له . انتهى .

الوجه الثانى : إن المشيئة فى الآية بمعنى الأمر والدعاء إلى ذلك . أى: يقولون: إن الله أمرهم بذلك ودعاهم إليه ، كما أخبر عنهم فى سورة الأعراف بقوله : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) فردّ تعالى عليهم بقوله : (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) .

الوجه الثالث : إنّ قولهم ذلك كان على سبيل الاستهزاء والسخرية دفعاً لدعوته ﷺ ، وتعللًا لعدم إجابته وانقياده ، لا تفويضاً للكائنات إلى مشيئة الله تعالى . فما صدر عنهم ، كلمةُ حقّ أريد بها باطل . ولذلك ذمّهم الله بالتكذيب لأنهم قصدوا به تكذيب النبيّ ﷺ فى وجوب اتباعه والمتابعة ، فقال : (كَذَٰلِكَ كَذَبَ) بالتشديد ، ولم يذمهم بالكذب فى قولهم ذلك ، وإلّا لقال (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ) بالتخفيف، إشارة إلى أن ذلك الكلام فى نفسه حق وصدق .

وقال آخرا: (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فأشار إلى صدق مقالتهم وفساد غرضهم . فالعتاب الذى لحقهم والوعيد الذى أوعدهم، إنما كان لاستهزائهم ،

كما ذكر فى قوله تعالى[1] (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) هى كلمة حق . لكن قالها استهزاء فلحقه الذم .

وهذا الوجه اقتصر عليه العضد فى (المواقف) وقرره أيضاً أبو منصور فى (تأويلاته).

قال الحسن بن الفضل : لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله وإجلالًا له ومعرفةً بحقه وبما يقولون ، لَمَا عابهم بذلك . ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجدلًا من غير معرفةٍ بالله وبما يقولون .

الوجه الرابع : ما يستفاد من قول الإمام : إنّ فى كلام المشركين مقدمتين :

(إحداهما) : أن الكفر بمشيئة الله تعالى . و (الثانية) : أنه يلزم منه اندفاع دعوة النبيّ ﷺ . وما ورد من الذمّ والتوبيخ إنما هو على الثانية ، إذ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يشاء من الكافر الكفر ويأمره بالإيمان ويعذبه على خلافه ويبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعاةً إلى دار السلام ، وإن كان لا يهدى إلّا من يشاء .

الوجه الخامس : إن قولهم ذلك كان على سبيل العناد والعتوّ .

قال البقاعىّ فى قوله تعالى (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى: بما أوقعوا من نحو هذه المجادلة فى قولهم : إذا كان الكلّ بمشيئة الله كان التكاليف عبثاً ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة . وهذا القول من المشركين عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات وإخبار الرسل بأنه يشاء الشىء ويعاقب عليه لأن ملكه تامّ ، لا يسأل عما يفعل .

وقال الإمام القاشانىّ قدس سره ، فى قوله تعالى (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ): أى : كذب المنكرون الرسل من قبلهم بتعليق كفرهم بمشيئة الله ، عنادًا وعتوًّا ، فعذّبوا بكفرهم .

ثم قال فى قوله تعالى (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) : أى: إن كان لكم

(١) [١٩ / مريم / ٦٦] .

علمٌ بذلك وحجّة ، فبيّنوا . وإنما قال ذلك ، إشارة إلى قولهم : (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) لأنهم لو قالوا ذلك عن علمٍ ، لعلموا أن إيمـان الموحّدين وكلّ شيءٍ ، لا يقع إلّا بإرادة الله. فلم يعادوهم ولم ينكروهم بل وَالَوْهم ، ولم يبق بينهم وبين المؤمنين خلاف . ولعمرى إنهم لو قالوا ذلك عن علمٍ ، لما كانوا مشركين بل كانوا موحّدين . ولـكنهم اتبعوا الظنّ فى ذلك ، وبنوا على التقـدير والتخمين لغرض التكذيب والعناد ، وعلى ما سمعوا من الرسل إلزامًا لهم وإثباتًا لعدم امتناعهم عن الرسل . لأنهم محجوبون فى مقام النفس . وأنّىٰ لهم اليقين ؟ ومن أين لهم الاطلاع على مشيئة الله ؟ وقوله تعـالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) أى : إن كان ظنكم صدقاً فى تعليق شركـكم بمشيئة الله ، فليس لـكم حجة على المؤمنين وعلى غيركم من أهل دين ، لـكون كل دين حينئذٍ بمشيئة الله ، فيجب أن توافقوهم وتصدقوهم ، بل لله الحجة عليكم فى وجوب تصديقهم وإقراركم بأنـكم أشركتم ، بمن لا يقع أمرٌ إلّا بإرادته، ما لا أثر لإرادته أصلًا . فأنتم أشقياء فى الأزل مستحقّون للبعد والعقاب . وقوله تعـالى (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بلى ، صدقتم . ولـكن كما شاء كفركم لو شاء لهداكم كلّـكم ، فبأىّ شيءٍ علمتم أنه لم يشأْ هدايتكم حتى أصررتم ؟ وهـذا تهييج لمن عسى أن يكون له استعداد منهم فيقمع ويهتدى فيرجع عن الشرك ويؤمن . انتهى .

الوجه السادس : ما فى (لباب التأويل) من أنه قيل فى معنى الآية : أنهم كانوا يقولون الحقّ بهذه الـكلمة ـ وهو قولهم (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) ـ إلّا أنهم كانوا يعدّونه عذرًا لأنفسهم ، ويجعلونه حجّة لهم فى ترك الإيمـان . والردّ عليهم فى ذلك : أنّ أمر الله بمعزلٍ عن مشيئته وإرادته ؛ فإن الله تعالى مريد لجميع الـكائنات غير آمرٍ بجميع ما يريد ، فعلَى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته ، فإنّ مشيئته لا تـكون عذرًا لأحدٍ عليه فى فعله ، فهو تعالى يشاء الـكفر من الـكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ، ومع هذا فيبعث الرسل إلى العبد ويأمره بالإيمان . وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع . فالحاصل : أنه

تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى فى شركهم وكفرهم ، فأخبر الله تعالى أنّ هذا التمسّك فاسدٌ باطل ، فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى فى كلّ الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الوجه السابع : ما قرره الناصر فى (الانتصاف) : إنّ الردّ عليهم إنّما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم ، وإنّ إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنهم يقيمون الحجّة على الله ورسله بذلك . فردّ الله قولهم وكذبهم فى دعواهم ـ عدم الاختيار لأنفسهم ـ وشبّههم بمن اغترّ قبلهم بهذا الخيال . فكذب الرسل، وأشرك بالله ، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كلّه بمشيئة الله ، ورامَ إفحامَ الرسل بهذه الشبهة. ثم بيّن الله تعالى أنهم لا حجّة لهم فى ذلك، وأن الحجة البالغة له لا لهم، بقوله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ). ثم أوضح تعالى أنّ كلّ واقع بمشيئته، وإنه لم يشأ منهم إلّا ما صدر عنهم ، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون بقوله (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) . والمقصود من ذلك : أن يتمحّض وجه الردّ عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة ، وعموم تعلقها بكلّ كائن عن الردّ؛ وينصرف الردّ إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم ، وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة . وإذا تدبّرت هذه وجدتها كافية فى الردّ على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة. بل هو مجبور على أفعاله مقهورٌ عليها . وهم الفرقة المعروفون بـ (المجبرة) . والزمخشريّ يغالط فى الحقائق فيسمّى أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختيارًا وقدرةً ، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية. فمن هذه الجهة سوّى بينهم وبين المجبرة ، ويجعله لقباً عامّاً لأهل السنة . وجماع الردّ على المجبرة ـ الذين ميزناهم عن أهل السنة ـ فى قوله تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ـ إلى قوله ـ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) . وتتمة الآية ردٌّ صراح على (طائفة الاعتزال) القائلين بأنّ الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين . فلم تقع من أكثرهم ! ووجه الردّ : أن (لو) إذا دخلت على فعل

مثبت نفته ؛ فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال (فَلَوْ شَاءَ) لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم. ولو شاءها لوقعت . فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحلّ عقدهم. فإذا ثبت اشتمال الآية على ردّ عقيدة الطائفتين المذكورتين ـ المجبرة فى أوّلها والمعتزلة فى آخرها ـ فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنّة منطبقة عليها . فإن أوّلها ـ كما بينّا ـ يثبت للعبد اختيارًا وقدرةً على وجه يقطع حجته وعذره فى المخالفة والعصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله فى العبد ، وأنّ جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية ، خيرًا أو غيره . وذلك عين عقيدتهم . فإنهم ـ كما يثبتون للعبد مشيئةً وقدرة ـ يسلبون تأثيرها ، ويعتقدون أن ثبوتهما قاطع لحجّته ، ملزم له بالطاعة على وفق اختياره . ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته فى أفعال عباده . فهم ـ كما رأيت ـ تبعٌ للكتاب العزيز : يثبتون ما أثبت ، وينفون ما نفى ، مؤيدون بالعقل والنقل ، والله الموفق . انتهى .

وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قيل له : إن ناساً يقولون : ليس الشرّ بقَدَر . فقال ابن عباس: بيننا وبين أهل القدر هذه الآية : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ـ إلى قوله ـ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[(١)] .

وبتحقيق هذه الوجوه يسقط قول الطبرسىّ المعتزلىّ : لو كان الأمر على ماقاله أهل الجبر ـ من أن الله تعالى شاء منهم الكفر ـ لكانت الحجة للكفّار على الله ، من حيث فعلوا ما شاء الله ، ولكانوا بذلك مطيعين له . لأن الطاعة هى امتثال الأمر المراد ، ولا تكون الحجّة لله عليهم على قولهم، من حيث إنه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر . فأىّ حجّة له عليهم مع ذلك ؟ انتهى .

وكذا قول الزمخشرىّ : ما حكى عن المشركين كمذهب المجبرة بعينه . ولذا قال النحرير: نعم ! هو كمذهبهم فى كون كلّ كائن بمشيئة الله . لكن الكفرة يحتجّون بذلك على حقية

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨و١٤٩] .

الإشراك وتحريم الحلال وسائر ما يرتكبون من القبائح . وكونها ليست بمعصية لكونها موافقة للمشيئة التي تساوى معنى الأمر ، على ما هو مذهب القدرية : من عدم التفرقة بين المأمور والمراد ، وأنّ كلّ ما هو مرادٌ لله فهو ليس بمعصية منهيّ عنها . والمجبرة ـ وإن اعتقدوا أن الكلّ بمشيئة الله ـ لكنهم يعتقدون أن الشرك وجميع القبائح معصية ومخالفة للأمر يلحقها العذاب بحكم الوعيد ، ويعفو عن بعضها بحكم الوعد . فهم ـ فى ذلك ـ يصدّقون الله فيما دلّ عليه العقل والشرع من امتناع أن يكون أكثر ما يجرى فى ملكه على خلاف ما يشاء . والكفرة يكذّبونه فى لحوق الوعيد على ما هو بمشيئته تعالى . انتهى .

فصل

قال الإمام شمس الدين ابن القيّم الدمشقيّ رحمه الله تعالى فى كتابه (طريق الهجرتين) بعد أن أطال فى سرد أحاديث القدر وآثاره ، ما نصّه :

فالجواب أنّ ههنا مقامين : مقام إيمانٍ وهدًى ونجاة ، ومقام ضلالٍ وردى وهلاك ـ زلّت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء .

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة، فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأنّ ماشاء كان وإنْ لم يشأ الناس . وما لم يشأ لم يكن ، وإنْ شاء الناس . وهذه الآثار ـ التى كلها تحقق هذا المقام ـ تبيّن أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ، ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه . وهذا فى كل كتابٍ أنزله الله على رسله .

وأما المقام الثانى وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على الله ، وحمل العبد ذنبه على ربّه ، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمّارة بالسوء ، حتى يقول قائل هؤلاء :

ألقاه فى اليمّ مكتوفاً وقال له : إيّاك ! إيّاك ! أن تبتلّ بالماء

ويقول قائلهم :

دعانى وسدّ الباب دونى . فهل إلى دخولى سبيلٌ ؟ بيّنوا لِىَ قصّتى

ثم ساق ـ رحمه الله ـ قصصاً غريبة فى ذلك ، ثم قال :

وسمعته ـ يعنى شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ يقول :

القدرية المذمومون فى السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة : نفاة القدر وهم (القدرية المجوسيّة) . والمعارضون به للشريعة الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وهم (القدرية المشركية) . والمخاصمون به للربّ سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم (القدرية الإبليسية) وشيخهم إبليس ، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال : بِمَا أَغْوَيْتَنِى (١) ولم يعترف بالذنب ويَبُوءْ بِهِ كما اعترف به آدم. فمن أقرّ بالذنب وبَاءَ به ونزّه ربه فقد أشبه أباه آدم . ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برّأ نفسه واحتجّ على ربّه بالقدر فقد أشبه إبليس. ولا ريب أنّ هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شرٌّ من القدرية النفاة . لأن النفاة إنما نَفَوْه تنزيهاً للربّ وتعظيماً له أن يقدّر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب . ونزّهوه أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد فيه البتة. بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه.. ونحو ذلك . كما يحكى عن بعض الجبرية إنه حضر مجلس بعض الولاة. فأتى بطرّار (هو الذى يقطع الهمايين أو الأكام ويستلّ ما فيها) أحولَ . فقال له الوالى : ما ترى فيــه؟ فقال : اضربه خمسة عشر ـ يعنى سوطاً ـ فقال له بعض الحاضرين ـ ممّن ينفى الجبر ـ بل ينبغى أن يضرب ثلاثين سوطاً : خمسة عشر لطرّه ومثلها لحَوَلِهِ. فقال الجبرىّ : كيف يضرب على الحَوَل ولا صنع له فيه؟ فقال: كما يضرب على الطرّ ولا صنع له فيه، عندك ... فبُهِتَ الجبرىّ .

(١) [٧ / الأعراف / ١٦] ونصها : قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .

و [١٥ / الحجر / ٣٩] ونصها : قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

وأما (القدرية الإبليسية والمشركية) فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدوّ لله ورسله، لا يقرّ بأمر ولا نهى ، وتلك وراثة عن شيوخه الذين قال الله فيهم : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَىْءٍ ...[١] الآية، وقال[٢] تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَىْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَىْءٍ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وقال تعالى[٣] : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، وقال[٤] : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ . فهذه أربعة مواضع فى القرآن، بَيَّنَ سبحانه فيها أنّ الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل .

وقد افترق الناس فى الكلام على هذه الآيات أربع فِرقٍ :

الفرقة الأولى : جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، وأنّ للمحتجّ بها الحجة على الله . ثم افترق هؤلاء فرقتين : (فرقة) كذبت بالأمر والوعد والوعيد ، وزعمت أن الأمر والنهى والوعد والوعيد ، بعد هذا ، يكون ظلماً ، والله لا يظلم من خلقه أحدًا ! و(فرقة) صدقت بالأمر والنهى والوعد والوعيد وقالت : ليس ذلك بظلم ، والله يتصرف فى ملكه كيف يشاء ويعذب العبد على مالا صنع له فيه ، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده. إذ العبد لا فعل له ، والملك ملكه ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . فإنّ هؤلاء الكفار إنما قالوا

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٥] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

(٤) [٣٦ / يس / ٤٧] .

هذه المقـالة ـ التى حكاها الله عنهم ـ استهزاء منهم ، ولو قالوا ـ اعتقاداً للقضاء والقدر ، وإسناداً لجميع الـكائنات إلى مشيئته وقدرته ـ لم ينـكر عليهم . ومضمون قول هذه الفرقة إنّ هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد ـ لا على جهة الاستهزاء ـ فيـكون للمشركين على الله الحجّة ؛ وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً .

الفرقة الثانية : جعلت هذه الآيات حجة لها فى إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة . إذْ لو صحت المشيئة العامة ـ وكان الله قد شاء منهم الشرك والـكفر وعبادة الأوثان ـ لـكانوا قد قالوا الحق، وكان الله يصدقهم عليه ولم ينـكر عليهم . فحيث وصفهم بالخرْص ـ الذى هو الـكذب ـ ونفى عنهم العلم، دلّ على أن هذا الذى قالوه ليس بصحيح ، وأنهم كاذبون فيه ؛ إذْ لو كان علماً لـكانوا صادقين فى الإخبار به ، ولم يقل لهم : هل عندكم من علم .

وجعلت هـــذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التـكذيب بالقضاء والقدر ، وزعمت بها أن يكون فى ملـكه مالا يشاء ، ويشاء مالا يكون ، وإنه لا قدرة له على أفعال عباده من الإنس والجن والملائـكة ، ولا على أفعال الحيوانات . وإنه لا يقـدر أن يضلّ أحداً ، ولا يهديه ، ولا يوفقه أكثر مما فعل به ، ولا يعصمه من الذنوب والـكفر ، ولا يلهمه رشدَه ، ولا يجعل فى قلبه الإيمان ، ولا هو الذى الذى جعل المصلّى مصلياً والبرّ برّاً والفاجر فاجراً والمؤمن مؤمناً والـكافر كافراً . بل هم جعلوا أنفسهم كـذلك .

فهذه الفرقة شاركت الفرقة التى قبلها فى إلقاء الحرب والعـــداوة بين الشرع والقدر. فالأولى تحيزت إلى القدر وحاربت الشرع . والثانية تحيزت إلى الشرع ، وكذبت القدر . والطائفتان ضالتان ، وإحداهما أضلّ من الأخرى .

و (الفرقة الثالثة) : آمنت بالقضاء والقدر وأقرّت بالأمر والنهى . ونزّلوا كلّ واحدٍ منزلته : فالقضاء والقـــدر يُؤمن به ولا يُحتجّ به ، والأمر والنهى يُمتثل ويُطاع . فالإيمان بالقضاء والقدر ـ عندهم ـ من تمام التوحيد وشهادة أن لا إله إلّا الله . والقيام بالأمر

والنهى موجب شهادة أن محمدًا رسول الله . وقالوا : من لم يقرّ بالقضاء والقدر، ويقم بالأمر والنهى فقد كذّب بالشهادتين وإنْ نطق بهما بلسانه. ثمّ افترقوا فى وجه هذه الآيات فرقتين: (فرقة) قالت : إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك . فجعلوا مشيئته له وتقديره له، دليلًا على رضاه به ومحبته له . إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينه وبينهم . فإنّ الحكيم إذا كان قادرًا على دفع ما يكرهه ويبغضه ، دفعه ومنع من وقوعه . وإذا لم يمنع من وقوعه ، لزم إما عدم قدرته وإما عدم حكمته . وكلاهما ممتنع فى حق الله . فعلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به .

وقد وافق هؤلاء من قال: إنّ الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها. ولكن خالفهم فى أنه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها ، فوافقهم فى نصف قولهم وخالفهم فى الشطر الآخر .

وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين ، وأنّ مشيئة الله تعالى العامة وقضاءه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكلّ ماشاءه وقدّره .

وهؤلاء المشركون ـ لمّا استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه ـ كذّبهم وأنكر عليهم ، وأخبر أنه لا علم لهم بذلك، وأنهم خارصون مفترون . فإن محبة الله للشيء ورضاه به، إنما يعلم بأمره به على لسان رسوله، لا بمجرد خلقه . فإنه خلق إبليس وجنوده ـ وهم أعداؤه ـ وهو سبحانه يبغضهم ويلعنهم وهم خلقه ... فهكذا فى الأفعال . خلق خيرها وشرها وهو يحبّ خيرها ويأمر به ويثيب عليه . ويبغض شرها وينهى عنه ويعاقب عليه . وكلاهما خلقه . ولله الحكمة البالغة التامة فى خلقه ما يبغضه ويكرهه ، من الذوات والصفات والأفعال ، كلٌّ صادر عن حكمته وعلمه ، كما هو صادر عن قدرته ومشيئته ...

وقالت الفرقة الثانية : إنما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ، ودفع الأمر بالمشيئة . فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره . فجعلوا القضاء والقدر

إبطالا لدعوة الرسل ، ودفعاً لما جاءوا به . وشاركهم فى ذلك إخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصى والذنوب فى نصف أقوالهم ، وخالفوهم فى النصف الآخر وهو إقرارهم بالأمر والنهى .

فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام ، وورث كلّ قوم أئمتهم وأسلافهم ، إما فى جميع تركتهم ، وإما فى كثير منها ، وإما فى جزء منها . وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه ، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذى جعل المؤمن مؤمنا والمصلى مصليا والمتقى متقياً ، وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره ، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار ، وأنه ألهم كلّ نفس فجورها وتقواها ، وأنه يهدى من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته ، وأنه هو الذى وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخذلهم فعصوه ، وأنه حال بين الكفار وقلوبهم ـ فإنه يحول بين المرء وقلبه ـ فكفروا به . ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادى له ، وأنه لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . إيمانا يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون .

و (القضاء والقدر) عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى :

الأولى ـ علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم .

الثانية ـ كتابة ذلك فى الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض .

الثالثة ـ مشيئته المتناولة لكل موجود ، فلا خروج لكائن عن مشيئته ، كما لا خروج له عن علمه .

الرابعة ـ خلقه له وإيجاده وتكوينه . فإنه لا خالق إلا الله ، والله خالق كل شىء .

فالخالق ـ عندهم ـ واحد وما سواه مخلوق . ولا واسطة ـ عندهم ـ بين الخالق والمخلوق. ويؤمنون ـ مع ذلك ـ بحكمته ، وأنه حكيم فى كل ما فعله وخلقه ، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هى التى اقتضت صدور ذلك وخلقه . وأن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره ـ كما تقوله نفاة الحكمة الذين يقرّون بلفظها دون حقيقتها ـ بل هى أمر وراء ذلك ، وهى الغاية المحبوبة له المطلوبة التى هى متعلق محبته وحمده ، ولأجلها خلق فسوى ، وقدّر فهدى ، وأمات وأحيى، وأشقى وأضلّ وهدى، ومنع وأعطى . وهذه الحكمة هى الغاية والفعل وسيلة إليها، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفى للغايات ، وهو محال ، إذ نفى الغاية مستلزم لنفى الوسيلة. فنفى الوسيلة ـ وهى الفعل ـ لازم لنفى الغاية وهى الحكمة . ونفى قيام الفعل والحكمة به نفى لهما فى الحقيقة ؛ إذ فعلٌ لا يقوم بفاعله ، وحكمةٌ لا تقوم بالحكيم ـ شىء لا يعقل. وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته . وهـذا لازم لمن نفى ذلك ولا محيد له عنه ، وإن أبى التزامه . وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل، لم يلزم من قوله محذور البتة ، بل قوله حق ، ولازم الحق حق ، كائنا ما كان .

والمقصود : أن ورثة الرسل وخلفاءهم ـ لكمال ميراثهم لنبيهم ـ آمنوا بالقضاء والقدر والحِكَم والغايات المحمودة فى أفعال الرب وأوامره ، وقاموا ـ مع ذلك ـ بالأمر والنهى ، وصدّقوا بالوعد والوعيد : فآمنوا بالخلق الذى من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة . وبالأمر الذى من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب؛ فصدّقوا بالخلق والأمر ولم ينفوها بنفى لوازمهما ـ كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر ـ وكانوا أسعد الناس بالحلق وأقربهم عصبة فى هذا الميراث النبوىّ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة، لا يجتمع إلا فى قلوب خواص الخلق

ولبّ العالم ، وليس الشأن فى الإيمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلّال... فإن القدرية تؤمن بلفظ (القدر) ، ومنهم من يرده إلى العلم ، ومنهم من يرده إلى الأمر الدينىّ ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عباده بأمره لهم بها ، وهذا حقيقة إنكار القضاء والقدر . وكذلك (الحكمة) فإن الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها ، فإنهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى وإرادته لمراده تعالى ، فهى ـ عندهم ـ وقوع الكائنات على وفق علمه وإرادته ... والقدرية النفاة لا يرضون بهذا ، بل يرتفعون عنه طبقة ، ويثبتون حكمة زائدة على ذلك ، لكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم ، ويجعلونها مخلوقاً من مخلوقاته، كما قالوا فى كلامه وإرادته . فهؤلاء كلهم أقروا بلفظ (الحكمة) وجحدوا معناها وحقيقتها . وكذلك (الأمر) و (الشرع) فإن من أنكر كلام الله وقال : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قال ولا يقول ، ولا يحب شيئاً ولا يبغض شيئا ، وجميع الكائنات محبوبة له ، ومالم يكن فهو مكروه له ، ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب . ولا فرق فى نفس الأمر بين الصدق والكذب والفجوز والسجود للأصنام والشمس والقمر. ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهى بالكلية . ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ، ولكن مشى الحال بعض المشى بتناقضهم ، وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجبها .

والمقصود : أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهى والوعد والوعيد ، حقيقة الإيمان ، إلا أتباع الرسل وورثتهم .

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته . ولهذا قال الإمام أحمد : القدر قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال : إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر .

ولهذا ، كان المنكرون للقدر فرقتين : فرقة كذبت بالعلم السابق ونَفَتْهُ ، وهم غلاتهم

الذين كفّرهم السلف والأئمة وتبرّأ منهم الصحابة . وفرقة جحدت كمال القدرة ، وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورة لله تعالى ، وصرّحت بأنّ الله لا يقدر عليها . فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب ، وأنكرت الأخرى كمال علمه . وقابلهم الجبرية : فجاءت على إثبات القدرة والعلم ، وأنكرت الحكمة والرحمة .

ولهذا ، كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الربّ وعزته وحكمته . ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرًا ، كقوله : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ(١) ، وقال : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٢) ، وقال : حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٣) ، وقال في (حمٓ فصّلت ، بعد ذكر تخليق العالم) : ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٤) ، وذكر نظير هذا في (الأنعام) فقال : فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٥) . فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته . وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدّمه عليه . وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها ، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للربّ سبحانه . وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته ، فهو عليم بخلقه وأمره ، حكيم في خلقه وأمره . ولهذا ، كان (الحكيم) من أسمائه الحسنى . فالحكمة من صفاته العُلَى ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة ، والرسول

---

(١) [٢٧ / النمل / ٦] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٢] .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢] .

(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

(٥) [٦ / الأنعام / ٩٦] .

المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة . والحكمة هى سنة الرسول ، وهى تتضمّن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به . فكلّ هذا يسمّى حكمة . وفى الأثر[١] : الحكمة ضالّة المؤمن . وفى الحديث[٢] : إنّ من الشعر حكمة . فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته ، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده . وهو محمود على جميع ما فى الكون من خيرٍ وشرٍّ حمدًا استحقه لذاته ، وصدر عنه خلقُه وأمرُه . فمصدر ذلك كله عن الحكمة. فإنكار الحكمة إنكار لحمده فى الحقيقة ، والله أعلم . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فى خلال بعض فتاويه، فى حقيقة الاحتجاج بالقضاء والقدر ، ما نصّه :

وإن هؤلاء القدرية الجبرية الجهمية أهل الفناء فى توحيد الربوبية . حقيقة قولهم من جنس قول المشركين الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية ؛ فإن هؤلاء المشركين لمّا أنكروا ما بعثت به الرسل من الأمر والنهى ، وأنكروا التوحيد ـ الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ـ وهم يقرّون بتوحيد الربوبية وأن الله خالق كل شىء ، ما بقى عندهم من فرق، من جهة الله تعالى، بين مأمور ومحظور فقالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، وهذا حقّ . فإن الله لو شاء أن لا يكون هذا لم يكن . ولكن أىّ فائدة لهم فى هذا ؟ غايته أن هذا الشرك والتحريم بقدر ، ولا يلزم إذا كان مقدرًا أن يكون

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٣٩ ـ كتاب العلم، ١٩ ـ باب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة، ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الحكمة ضالة المؤمن . فحيث وجدها ، فهو أحق بها » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٠ ـ باب مايجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، حديث ٢٣٥٣ ، عن أبىّ بن كعب أن رسول الله ﷺ قال « إن من الشعر حكمة » .

محبوباً مرضياً لله . ولا علم عندهم بأن الله أمر به ولا أحبه ولا رضيه ، بل ليسوا فى ذلك إلّا على ظنّ وخَرْص . انتهى .

وقال بعض المحققين فى حقيقة العقيدة :

ثبت بالبرهان أنّ قدرة الله تعالى متصرفة فى الممكنات عن إرادةٍ واختيار . وأن الإرادة لا تخرج عما ينكشف بالعلم من مواقع الحكمة ، ووجوه النظام . وأنه خالق كلّ شىء وإليه يرجع الأمر كله . ومن الممكنات التى اقتضتها الحكمة والنظام وجودُ مخلوقٍ ذى قدرةٍ وإرادةٍ وعلمٍ ، يعمل بقدرته ماتنبعث إليه إرادته بمقتضى علمه بوجوه المصلحة والمنفعة لنفسه، وهو الإنسان . وهذا ـ عند البعض ـ هو معنى كونه خليفة الله فى الأرض يعمرها ويظهر حكمة الله وبدائع أسراره فيها ، ويقيم سننه الحكمية حتى يعرف كماله بمعرفة كمال صنعه . ولا يزال الإنسان يظهر الآيات من هذه المكونات آناً بعد آنٍ ، ولا يعلم مبلغه من ذلك إلّا الله تعالى . والمشهور أن الخلافة خاصة بأفراد من الإنسان وهم الأنبياء عليهم السلام . ولا يستلزم واحد من القولين أن الله تعالى استخلفهم لحاجة به إلى ذلك . حاشاه .

قال البيضاوىّ (فى بيان أن كلّ نبىٍّ خليفة) : استخلفهم فى عمارة الأرض، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره فيهم ـ لا لحاجةٍ به تعالى إلى من ينوبه ـ بل لقصور المستخلف عليه من قبول فيضه وتلقّى أمره بغير وسط . ولذلك لم يستنبىء مَلَكاً كما قال : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا(١) . انتهى .

وكذلك إذا قلنا : إن كلّ النوع خليفة فى العوالم الأرضية .

فعلم من كلٍّ من القولين ؛ أن فى الإنسان معنى ليس فى غيره . فإذا كانت خلقة المَلَك لا تساعد على إرشاد الناس ، لأنه ليس من جنسهم ولا يمكن لكلّ واحدٍ التلقّى منه ، فكذلك لاتساعد خلقته. وليس من وظيفتها، إظهارخواص الأجسام وقواها ووجوه الانتفاع

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩] . . . وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ .

بها . ولو كان إيجاد مخلوقٍ ـ على ماذكرنا فى خلق الإنسان ـ غير ممكنٍ لما وجد . ولاينكر كونه على ما ذكرنا إلّا من ينكر الحسّ والوجدان ، وهما أصل كلّ برهان . ومثل هذا لا يخاطب ولا يطلب منه التصديق بشيء ما .

إذن ، معنا قضيّتان قطعيّتا الثبوت :

(إحداهما) : كون الإنسان يعمل بقدرةٍ وإرادة يبعثها علمه على الفعل أوالترك والكف، وهى بديهية .

و (الثانية) : هى أنّ الله هو الخالق الذى بيده ملكوت كلّ شيء ، وهى نظرية .

ويتولّد من هاتين القضيّتين القطعيّتين مسألتان نظريتان :

الأولى : ما الفرق بين علم الله تعالى وإرادته وقدرته ، وبين علم الإنسان وإرادته وقدرته ؟

والجواب من وجوه :

(أحدها) : أن صفات الله قديمة بقدمه فهى ثابتة له لذاته . وصفات الإنسان حادثة بحدوثه وهى موهوبة له من الله تعالى كذاته .

(ثانيها) : أن علم الله محيط بكلّ شيء(١) يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء . وأما الإنسان فما أوتى من العلم(٢) إلا قليلا ! وإرادةُ الله تعالى لا تتغيرّ ولا تقبل الفسخ لأنها عن علمٍ تامٍ . بخلاف إرادة الإنسان فإنها تتردد لتردّده فى العلم بالشيء . وتفسخ لظهور الخطأ فى العلم الذى بنيت عليه . وتتجدّد لتجدّد علمٍ لم يكن له من قبل. وقدرةُ الله تعالى متصرّفة فى كلّ ممكن . فيفعل كلّ ما يعلم أنّ فيه الحكمة . وقدرة الإنسان لا تصرّف لها ولا كسب إلّا فى أقلّ القليل من الممكنات .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

(٤) يشير إلى قوله تعالى [١٧/ الإسراء/ ٨٥] وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

فكم من أمرٍ يعلم أن فيه مصلحته ومنفعةً له وهو لا يقدر على القيام به .

(ثالثها) : أن صفات الإنسان عرضة للضعف والزوال ، وصفات الله تعالى أبدية كما أنّها أزلية .

وبالجملة : إنّ المشاركة بين صفات الله تعالى وصفات عباده إنّما هى فى الإسم ، لا فى الجنس كما زعم بعضهم، فبطل زعم من قال : إنّ إثبات كون الأفعال التى تصدر من الإنسان هى بقدرته وإرادته ـ يقتضى أن يكون شريكاً لله تعالى[1] . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ .

المسألة الثانية : ـ وهى عضلة العقد ومحكّ المنتقد ـ أن القضاء عبارة عن تعلّق علم الله تعالى أو إرادته فى الأزل ؛ بأنّ الشيء يكون على الوجه المخصوص من الوجوه الممكنة ، والقدر وقوع الأشياء فيما لا يزال على وفق ما سبق فى الأزل .

ومن الأشياء التى يتعلق بها القضاء والقدر أفعال العباد الاختيارية . فإذا كان قد سبق القضاء المبرم ـ بأن زيدا يعيش كافرا ويموت كافرا ـ فما معنى مطالبته بالإيمان وهو ليس فى طاقته ؟ ولا يمكن فى الواقع ونفس الأمر أن يصدر منه. لأنه فى الحقيقة مجبور على الكفر فى صورة مختار له ؟ كما قال بعضهم .

والجواب عن هذا : أن تعلق العلم والإرادة بأن فلاناً يفعل كذا ، لا ينافى أن يفعله باختيار، إلا إذا تعلق العلم بأن يفعله مضطرا كحركة المرتعش مثلا . ولكن أفعال العباد الاختيارية قد سبق فى القضاء بأنها تقع اختيارية ، أى: بإرادة فاعليها لا رغما عنهم. وبهذا صح التكليف ولم يكن التشريع عبثا ولا لغواً .

وثم وجه آخر فى الجواب ، وهو : لو كان سبق العلم أو الإرادة بأن فاعلا يفعل كذا ، يستلزم أن يكون ذلك الفاعل مجبورا على فعله، لكان الواجب ، تعالى وتقدس ، مجبوراً على

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] .

أفعاله كلها . لأن العلم الأزلىّ قد تعلق بذلك ، وكل ما تعلق به العلم الصحيح لا بد من وقوعه .

فتبين ـ بهــذا ـ أن الجبرية ومن تلا تلوهم قد غفلوا عن معنى الاختيار ، واشتبهت عليهم الأنظار ، فـكابروا الحسّ والوجدان ، ودابروا الدليل والبرهان ، وعطلوا الشرائع والأديان ، وتوهموا أنهم يعظمون الله ولـكنهم ما قدروه حقّ قدره ، ولا فقهوا سر نهيه وأمره ، حيث جرّؤا الجهال على التنصل من تبعة الذنوب والأوزار ، وادعاء البراءة لأنفسهم والإحالة باللوم على القضاء والقدر ، وذلك تنزيه لأنفسهم من دون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. بل ذلك إغراء للإنسان بالانغماس في الفسوق والعصيان. فيا عجباً لهم كيف جعلوا أعظم الزواجر من الإغراء، وهو الاعتقاد بإحاطة علم الله بالأشياء ! أليس من شأن من لم يفسد الجبر فطرته، ويظلم الجهل بصيرته ، أن يكون أعظم مهذب لنفسه ، ومؤدب لعقله وحسه ، اعتقادُه بأن الله عليم بمـا يسر ويعلن ، ويظهر ويبطن ، وأنه ناظر إليه ومطلع عليه . ؟ بلى [٢] ! إن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تـكن تراه فإنه يراك . وأما الذين ضلوا السبيل،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، الحديث رقم ٤٦ ونصه :

عن أبى هريرة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟

قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائـكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » .

قال : ما الإسلام ؟

قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » .

قال : ما الإحسان ؟

واتبعوا فاسد التأويل ، فيقولون كما قال من قبلهم وقص الله علينا ذلك بقوله عز وجل . سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية . فانظر كيف رماهم العليم الحكيم بالجهل ، وجعل احتجاجهم بالقدر من أسباب وقوع البأس والبلاء بهم .

وفى هذا القدر كفاية لمن لم ينطمس نور الفطرة من قلبه ، والله عليم حكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَـٰذَا، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ » أى : أحضروهم « الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَـٰذَا » يعنى ماتقولون من الأنعام والحرث . والمراد بـ(شهدائهم) قدوتهم الذين ينصرون قولهم . وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم ، وأنه لا متمسك لهم ،

= قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال : متى الساعة ؟

قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَة ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْم فى البنيان . فى خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبىّ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية .

ثم أدبر .

فقال « ردوه » .

فلم يروا شيئاً .

فقال « هذا جبريل جاء يعلّم الناس دينهم » .

كمن يقلدهم فيحق الحق ويبطل الباطل « فَإِنْ شَهِدُوا » أى: بعد حضورهم بأن الله حرم هذا « فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ » أى : فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لما علمت من افترائهم على الله ومشيهم مع أهويتهم .

وفى (العناية) : (فَلَا تَشْهَدْ) استعارة تبعية . وقيل مجاز مرسل ، من ذكر اللازم وإرادة الملزوم. لأن الشهادة من لوازم التسليم. وقيل كناية . وقيل مشاكلة . « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » من وضع المظهر موضع المضمر ، للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره ، أى سوّى به الأصنام، فهو متبع للهوى لا غير . لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات، موحّدًا لله تعالى .

ولما بيّن تعالى فساد ما ادعوا من أن إشراكهم وإشراك آبائهم وتحريم ما حرموه ، بأمر الله ومشيئته ، بظهور عجزهم عن إبراز ما يتمسك به فى ذلك ، وإحضار شهداء يشهدون بذلك، بعد ما كافوه مرارًا ــ أمر الرسولَ بأن يبين لهم من المحرمات مايقتضى الحال بيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

فقال تعالى « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » من الأوثان « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » أى : وأحسنوا بالوالدين إحسانا . قال الحاكم :

والإحسان مايخرج عن حد العقوق ، ومثل هذا قوله تعالى : وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا[١]. ولما كان إيجاب الإحسان تحريماً لترك الإحسان ، ذكر فى المحرمات . وكذا حكم ما بعده من الأوامر . فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهى عن ضده . بل هو عينه عند البعض . كأن الأوامر ذكرت وقُصِدَ لوازمها ، ومن سر ذلك هنا ـ أعنى وضع (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) موضع (النهى عن الإساءة إليهما) ـ المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة فى شأنهما غير كاف فى قضاء حقوقهما ، بخلاف غيرها . « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ » أى من أجل فقر ، ومن خشيته. والمراد بالقتل : وأد البنات وهن أحياء ، وكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية . فنهاهم الله عن ذلك وحرمه عليهم « نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » لأن رزق العبيد على مولاهم « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ » يعنى : الزنى لقوله : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً[٢] ؛ وإنما جيء بصيغة الجمع قصداً إلى النهى عن أنواعه أو مبالغة أو باعتبار تعدد من يصدر منه « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » يعنى : علانيته وسره « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى قتلها لإيمانها أو أمانها « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالعدل . يعنى بالقود والرجم والارتداد « ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ » تلطفاً ورأفة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » يعنى: لتعقلوا عظمها عند الله تعالى فتكفوا عن مباشرتها .

قال (المهايمى) : فالشرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد للفقر ، منشؤه الجهل بما فى الشرك من استهانة المنعم بالإيجاد ، وبما فى الإساءة إلى الأبوين من مقابلة الإحسان بالإساءة، وقربان الفواحش من متابعة الهوى ، والقتل من متابعة الغضب ؛ وكلها أضداد العقل .

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] ونصها : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

تنبيه :

قال بعض (الزيدية) : قوله تعالى (مِنْ إِمْلَاقٍ) خرج على العادة . وإلا فهو محرم ، خشي الفقر أم لا . وقد دلت على تحريم قتل الأولاد .

قال (الحاكم) : فيدخل في ذلك شرب الدواء لقتل الجنين . قال الإمام (يحيى) : إذا نفخ فيه الروح دون إفساد النطفة والعلقة والمضغة قبل أن ينفخ فيها الروح . وفي (الأحكام) يجب على من انقطع حيضها أن توقى من الأدوية مايخاف على الجنين منها، إذا كانت من ذوات البعول . وفي قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) تأكيد للزوم ماتقدم . انتهى .

لطيفة :

قال القاشاني : لما كان الكلام مع المشركين في تحريم الطيبات ، عدّد المحرمات ليستدل بها على المحللات. فحصر جميع أنواع الفضائل بالنهي عن أجناس الرذائل . وابتدأ بالنهي عن رذيلة القوة النطقية التي هي أشرفها . فإن رذيلتها أكبر الكبائر مستلزمة لجميع الرذائل . بخلاف رذيلة أخويها من القوتين البهيمية والسبعية . فقال (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) إذ الشرك من خطئها في النظر ، وقصورها عن استعمال العقل ودرك البرهان . وعقبه بإحسان الوالدين . إذ معرفة حقوقهما تتلو معرفة الله في الإيجاد والربوبية . لأنهما سببان قريبان في الوجود والتربية . وواسطتان جعلهما الله تعالى مظهرين لصفتي إيجاده وربوبيته . ولهذا قال (من أطاع الوالدين فقد أطاع الله ورسوله) فعقوقهما يلي الشرك ولا يقع الجهل بحقوقهما إلا عن الجهل بحقوق الله تعالى ومعرفة صفاته . ثم بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر . فإن ارتكاب ذلك لا يكون إلا عن الجهل والعمى عن تسبيبه تعالى الرزق لكل مخلوق ، وأن أرزاق العباد بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . والاحتجاب عن سر القدر، فلا يعلم أن الأرزاق مقدرة بإزاء الأعمار كتقدير الآجل . فأولاها لا تقع إلا من خطئها في معرفة ذات الله تعالى . والثانية من خطئها في معرفة صفاته . والثالثة من معرفة أفعاله . فلا

يرتكب هذه الرذائل الثلاث إلا منكوس محجوب عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ؛ وهذه الحجب أمُّ الرذائل وأساسها . ثم بيّن رذيلة القوة البهيمية لأن رذيلتها أظهر وأقدم فقال : (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ) ، ثم أشار إلى رذيلة القوة السبعية بقوله : (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ) . الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ » أى: بوجه من الوجوه « إِلَّا بِالَّتِي » أى: بالخصلة التى « هِيَ أَحْسَنُ » يعنى أنفع له . كتثميره أو حفظه أوأخذه قرضاً . لا بأ كله ، وإنفاقه فى مآربكم وإتلافه ، فإنه أفحش . وقد ذكرنا طرفاً فيما رخص فيه لولىّ اليتيم أووصيه فى قوله تعالى فى سورة النساء (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)(١) وقد روى (أبو داود)(٢) عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ . الآية ، و: إِنَّ

(١) [٤ / النساء / ٦] ونصها : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٧ ـ باب مخالطة اليتيم فى الطعام ، حديث ٢٨٧١ .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى... (١) الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد . فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)(٢) فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه .

قيل : إنما خص تعالى مال اليتيم بالذكر ، لكونه لا يدفع عن نفسه ولا عن ماله هو ولا غيره. فكانت الأطماع في ماله أشد . فعزم في النهي عنه لأنه حماه ومقدمته، وأمر بتنميته. « حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » أي قوّته التي يقدر بها على حفظه واستنمائه ، وهذا غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي، كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً . فحينئذ سلموه إليه كما في قوله تعالى : فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . والأشد جمع (شدة) كنعمة وأنعم ، أو شَدّ ككلب وأكلب، أو شد كصِرّ وآصُر. وقيل هو مفرد كآنك « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أي بالعدل والتسوية في الأخذ والإعطاء. وقد توعد تعالى على تركه في قوله(٣) : وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

قال ابن كثير : وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال. روى الترمذيّ(٤) عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لأصحاب الكيل والميزان) : إنكم

---

(١) [٤ / النساء / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، . . . وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٨٣ / المطففين / ١ـ٦] .

(٤) أخرجه الترمذيّ في : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٩ ـ باب ما جاء في المكيال والميزان.

وليتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم . ثم ضعفه وصحح وقفه على ابن عباس . وروى نحوه ابن مردويه مرفوعا، ولفظه : إنكم معشر الموالى قد بشركم الله بخصلتين ، بهما هلكت القرون المتقدمة : المكيال والميزان .

« لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا » أى:عند الكيل والوزن «إِلَّا وُسْعَهَا» أى: جهدها بالعدل. وهذا الاعتراض جىء به عقيب الأمر بالعدل ، لبيان أن مراعاة الحدّ من القسط ، الذى لازيادة فيه ولا نقصان ، مما يجرى فيه الحرج ، لصعوبة رعايته . فأمر ببلوغ الوسع ، وأن الذى ما وراءه معفوّ عنه . وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن المسيّب قال : قال رسول الله ﷺ : (أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلاوسعها) : من أوفى على يده فى الكيل والميزان، والله أعلم بصحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤاخذ .

قال ابن المسيّب : وذلك تأويل (وسعها) .

قال ابن كثير : هذا مرسل غريب .

وفى (العناية) : يحتمل رجوع قوله تعالى (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) إلى ماتقدم. أى جميع ما كلفناكم ممكن، ونحن لانكلف ما لايطاق . انتهى. والأول أولى .

« وَإِذَا قُلْتُمْ » أى: فى حكومة أو شهادة ونحوها «فَاعْدِلُوا» أى : فيها . أى: لاتقولوا إلا الحق « وَلَوْ كَانَ » أى: المقول له أو عليه « ذَا قُرْبَىٰ » أى: ذا قرابة منكم. فلا تميلوا فى القول له أو عليه ، إلى زيادة أو نقصان .

قال بعض الزيدية : معنى قوله تعالى : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا) أى اصدقوا فى مقالتكم . قال : وهذه اللفظة من الأمور العجيبة فى عذوبة لفظها وقلة حروفها وجمعها لأمور كثيرة من الإقرار والشهادة والوصايا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والفتاوى والأحكام والمذاهب .

ثم إنه تعالى أكد ذلك ، وبين أنه يلزم العدل فى القول، ولو كان المقول له ذا قربى . كقوله تعالى(١) : (وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ=

«وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا» أى: ماعهدإليكم من الأمور المعدودة، أو أىّ عهدكان. فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليًّا . أوماعاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور « ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى ماذكر فى هذه الآيات « وَصَّاكُمْ بِهِ » أى أمركم بالعمل به فى الكتاب « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى تتعظون . وفى قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) تأكيد آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ » يقرأ بفتح همزة (أن) والتشديد. ومحلها مع مافى حيزها الجرّ بحذف لام العلة . أى: ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأمر والنهى طريقى ودينى الذى ارتضيته لعبادى قويماً لا اعوجاج فيه، فاعملوا به. وجوز أن يكون محلها مع مافى حيزها النصب على (ما حرم) أى : وأتلو عليكم أن هذا صراطى . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف . « وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ » يعنى الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات « فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » أى: فتفرقكم عن صراطه المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده . روى الإمام (أحمد)(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثم قال: هذاسبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه

= شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٤١٤٢ (طبعة المعارف) .

سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً.. الآية.
ورواه (الحاكم) وصححه.

لطائف

قال الكيا الهراسيّ : فى الآية دليل على منع النظر والرأى ، مع وجود النص .

قال ابن كثير : إنما وحّد (سبيله) لأن الحق واحد ولهذا جمع (السبل) لتفرقها وتشعبها. كما قال تعالى[1] : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .

قال ابن عطية : وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات، من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدل والخوض فى الكلام . وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .

قال قتادة : اعلموا أن السبيل سبيل واحد . جماعة الهدى ، ومصيره الجنة . وأن إبليس استبدع سبلا متفرقة . جماعة الضلالة ، ومصيرها إلى النار . وروى[2] علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية وفى قوله: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) ونحو هذا فى القرآن، قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة. وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله .

« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى ما ذكر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل «وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى اتباع سبل الكفر والضلالة . وفيه تأكيد أيضا . روى[3] الترمذىّ وحسنه ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .
(٢) الأثر رقم ١٤١٦٦ من تفسير ابن جرير .
(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٧ ـ حدثنا الفضل بن الصباح البغدادىّ .

الله ﷺ التى عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ـ إلى قوله ـ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وروى الحاكم ، وصححه عن ابن عباس قال : فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب. ثم قرأ : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...الآيات .

وروى الحاكم وصححه، وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا قوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) حتى فرغ من ثلاث آيات. ثم قال : ومن وفى بهن فأجره على الله . ومن انتقص منهن شيئاً ، فأدركه الله فى الدنيا ، كانت عقوبته . ومن أخره إلى الآخرة، كان أمره إلى الله. إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه .

لطيفة :

قال النسفىّ : ذكر أولاً (تَعْقِلُونَ) ثم (تَذَكَّرُونَ) ثم (تَتَّقُونَ) لأنهم إذا عقلوا تفكروا ، ثم تذكروا ، أى اتعظوا ، فاتقوا المحارم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

« ثُمَّ ءَاتَيْنَا » أى : أعطينا « مُوسَى الْكِتَابَ » يعنى التوراة « تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ » يقرأ بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله إما ضمير (الَّذِى) أى : تماماً للكرامة والنعمة على الذى أحسن. أى: على من كان محسنا صالحاً. يريد جنس المحسنين. وتدل عليه قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) وإما ضمير موسى عليه السلام ومفعوله محذوف . أى: تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل ما أمر به . أو تماماً على الذى أحسن موسى من العلم والشرائع . من (أحسن الشىء) إذا أجاد معرفته، أى زيادة على علمه على وجه التتميم.

وعلى الأول ، فـ(تماماً) فى موقع المفعول له . وجاز حذف اللام لكونه فى معنى (إتماماً) أو مصدر لقوله(ءاتَيْنَا)من معناه. لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً. فـ(تمام) بمعنى (إتمام) كنبات فى قوله تعالى : وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. أو(أصله إيتاء تمام). وعلى الوجه الثانى هو حال من الكتاب . وقرأ يحيى بن يعمر (عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ) بالرفع أى: على الذى هو أحسن ، أو على الوجه الذى هو أحسن ما يكون عليه الكتب. فـ(تماماً) حال من الكتاب بمعنى (تاما) أى حال كون الكتاب تامًّا كائناً على أحسن ما يكون .

قال ابن جرير : هذه قراءة لا أستجيز القراءة بها . وإن كان فى العربية لها وجه صحيح . « وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ » أى: وبياناً مفصلًا لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل فى الدين « وَهُدًى » لهم إلى ربهم فى سلوك سبيله « وَرَحْمَةً » عليهم بإفاضة الفوائد « لَعَلَّهُمْ » أى: أهل الكتاب « بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ » يصدقون بلقائه للجزاء .

لطيفة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (ثُمَّ ءاتَيْنَا) مَن قال إن (ثُمَّ) لا تفيد الترتيب . انتهى .

قال ابن كثير و (ثُمَّ) ههنا لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب كما قال الشاعر :

قل لمن سَادَ ثمَّ سَادَ أَبُوهُ ثمَّ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

وقال (أبو السعود) : و (ثُمَّ) للتراخى فى الأخبار كما فى قولك : بلغنى ما صنعت اليوم، ثم ما صنعتَ أمس أعجبُ . أو للتفاوت فى الرتبة كأنه قيل : ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً. ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة. فإن إيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها ، أعظم من التوصية بها فقط . انتهى .

ثم أشار إلى أن التوراة، وإن كانت تماماً على النهج الأحسن ، فالقرآن أتم منه وأزيد حسنا. فهو أولى بالمتابعة، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَهَٰذَا » أى: القرآن « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أكثر نفعاً من التوراة ديناً ودنيا « فَاتَّبِعُوهُ » أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام « وَاتَّقُوا » يعنى مخالفته واتباع غيره لكونه منسوخاً به « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى : لترحموا بواسطة اتباعه، وهو العمل بما فيه . وفيه إشارة إلى أنه لا رحمة بمتابعة المنسوخ وإن آمن صاحبها بلقاء ربه .

قال بعض الزيدية : وفى قوله تعالى (فَاتَّبِعُوهُ) دلالة على وجوب تعلم القرآن ليمكن الاتباع له . لكن هو كسائر العلوم فرض كفاية إلا ما يتعين على كل مكلف ، كتعلم ما لا تصح الصلاة إلا به ، فإنه يجب عليه . انتهى.

لطيفة :

قال ابن كثير : إنه تعالى كثيرًا مايقرن بين الكتابين كقوله: وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا(١) ، وقوله أول السورة : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ(٢) ، ثم قال : وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ... الآية(٣) ،

---

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام/ ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٩٢] ونصها: وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي =

وقوله تعالى مخبرًا عن المشركين : فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ[١] . وقوله تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... الآية[٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

« أَنْ تَقُولُوا » علة لـ (أَنْزَلْنَاهُ) . أى : كراهة أن تقولوا يوم القيامة . أو لئلا تقولوا « إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا » اليهود والنصارى « وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ » عن تلاوة كتابهم « لَغَافِلِينَ » لا علم لنا بشىء منها لأنها ليست بلغتنا .

قال أبوالسعود : ومرادهم بذلك دفع مايرد عليهم من أن نزوله عليهما لا ينافى عموم أحكامه. فلِمَ لَمْ تعملوا بأحكامه العامة ؟ والمعنى : وإن كنا لا ندرى ما فى كتابهم ، إذ لم يكن على لغتنا حتى نتلقى منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها ، وإن لم يكن منزلًا علينا . وبهذا تبين أن معذرتهم هذه ، مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتمالها على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم ، كما أن قطع تلك المعذرة بإنزال القرآن لاشتماله أيضًا عليها ، لا على سائر الشرائع والأحكام فقط . انتهى .

= بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٨] ... أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٠] ... يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾

« أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ » أى : كما أنزل عليهم « لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ » أى : إلى الحق وأسرع منهم إجابة للرسول لمزيد ذكائنا وجدّنا فى العمل « فَقَدْ جَاءَكُمْ » . قال أبو السعود : متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء الفصيحة ، إما معلل به ، أى : لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم . وإما شرط له . أى : إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم ، فقد حصل ما فرضتم وجاءكم . « بَيِّنَةٌ » أى : كتاب حجة واضحة « مِنْ رَبِّكُمْ » متعلق بـ (جَاءَكُمْ) أو بمحذوف صفة لـ (بَيِّنَةٌ) أى : بينة كائنة منه تعالى ، لايتوهم فيه السحر « وَهُدًى » بإقامة الدلائل ورفع الشبه « وَرَحْمَةٌ » بإفاضة الفوائد وتسهيل طريقكم وتيسيرها إلى أشرف الكمالات « فَمَنْ أَظْلَمُ » . قال أبو السعود : الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . فإن مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه . أى : وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم « مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا » أى : صرف الناس وصدّهم عنها . فجمع بين الضلال والإضلال . والمعنى إنكار أن يكون أحد أظلم منه أو مساوياً له « سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ » الناس « عَنْ ءَايَاتِنَا » أى : التى لو لم يصدفوا عنها لعرفوا إعجازها « سُوءَ الْعَذَابِ » أى : العذاب السيء « بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ » وهذا كقوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ[١] .

(١) [١٦ / النحل / ٨٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

« هَلْ يَنظُرُونَ » يعنى قد أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما كانوا يعتقدون من الضلالة . فما ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدّهم عن آيات الله ؟

قال البيضاوىّ : يعنى أهل مكة . وهم ما كانوا منتظرين لذلك . ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر ، شبهوا بالمنتظرين . « إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ » يعنى للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة .

قال ابن كثير : وذلك كائن يوم القيامة . وقد تقدم الكلام فى معنى الآية فى سورة البقرة عند قوله تعالى[١] : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ، بما فيه كفاية .

ومذهب السلف : إمرار ذلك بلا كيف ، كما مرّ مرارًا .

قيل : إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . أى : ملائكة الموت لقبض أرواحهم « أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ » وذلك قبل يوم القيامة ، كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئًا من ذلك . كما روى البخارىّ[٢] فى تفسير هذه الآية عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٠] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٩ ـ باب قوله: هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ .

من عليها . فذاك حين لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . ورواه مسلم أيضاً[١] ، ولمسلم[٢] والترمذيّ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض. « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ » صفة (نَفْسًا) « أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » عطف على (ءَامَنَتْ) والمعنى أن بعض أشراط الساعة إذا جاء ، وهى آية ملجئة مضطرة ، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات . أو مقدمة الإيمان غير كاسبة فى إيمانها خيرًا لفسقها . فتوبتها حينئذ لا تجدى .

قال الطبريّ : معنى الآية لا ينفع كافرًا لم يكن آمن قبل الطلوع ، إيمانٌ بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع ، عملٌ صالح بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ، حكم من آمن أوعمل عند الغرغرة . وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[٣] . وكما ثبت فى الحديث الصحيح[٤] : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . انتهى .

وبالجملة : فالمعنى أنه لا ينفع من كان مشركًا إيمانُه . ولا تقبل توبة فاسق عنـــد ظهور هذه الآية العظيمة التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة . وذلك لذهاب زمن التكليف .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٩ (طبعتنا) .

(٣) [٤٠ / غافر / ٨٥] . . . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

(٤) أخرجه الترمذيّ فى: ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٩٨ـ باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب .

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات ، وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية ، كما قبل منه قبل ذلك . فأما من آمن من شركٍ أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية ، فلا يقبل منه . لأنها حالة اضطرار . كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا . فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك ، لمعاينتهم الأهوال والشدائد ، التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة .

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه . فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً في عمله ، فهو بخير عظيم . وإن لم يكن مصلحاً ، فأحدث توبة حينئذ ، لم تقبل منه توبته . كما دلت عليه الأحاديث . وعليه يحمل قوله تعالى (أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أي : لا يقبل منها كسب عمل صالح ، إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك . انتهى .

والأحاديث المشار إليها ، منها ما رواه (مسلم)[1] عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وروى (الترمذيّ)[2] وصححه

---

(١) أخرجه مسلم في : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٩٨ ـ باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ونصه :

عن زرّ بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المراديّ أسأله المسح على الخفين . فقال : ما جاء بك يا زرّ ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب . فقلت : إنه حكّ في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنتَ امرءًا من أصحاب النبيّ ﷺ . فجئت أسألك : هل سمعته يذكر في ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . كان يأمرنا إذا كنا سَفْرًا (أو مسافرين) أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهنّ إلا من جنابة. لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعتَه يذكر في الهوى شيئاً ؟ قال : نعم . كنا =

عن صفوان بن عسال المرادى قال : قال رسول الله ﷺ : بابٌ من قِبَل المغرب مسيرة عرضه (أو قال يسير الراكب فى عرضه) أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض . مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه . ولأبى داود[١] والنسائى من حديث معاوية رفعه : لا تزال تقبل التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

قال ابن حجر: سنده جيد . وأخرجه أحمد[٢] والدارمى[٣] وعبد بن حميد من حديثه أيضاً

= مع النبى ﷺ فى سفر ، فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابى بصوت له جهورى : يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » .

وقلنا له : ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبى ﷺ ، وقد نُهيتَ عن هذا . فقال : والله ، لاأغضض . قال الأعرابى : المرء يحب القوم ولمّا يلحق بهم ؟ قال النبى ﷺ « المرء مع من أحب يوم القيامة » . فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قِبَل المغرب مسيرة سبعين عاماً ، عرضه (أو يسير الراكب فى عرضه) أربعين أو سبعين عاما .

قال سفيان (أحد رجال السند) : قبل الشام . خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً . (يعنى للتوبة) لا يغلق حتى تطلع الشمس منه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢ ـ باب فى الهجرة هل انقطعت ؟ حديث رقم ٢٤٧٩ ونصه :

عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) ونصه كما جاء فى أبى داود .

(٣) أخرجه الدارمى فى : ١٧ ـ كتاب السير ، ٧٠ ـ باب إن الهجرة لا تنقطع .

بلفظ : لاتنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . وروى الإمام أحمد عن ابن السعدي؛ أن رسول الله ﷺ قال : لاتنقطع الهجرة مادام العدوّ يقاتَل. فقال معاوية وعبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبيّ ﷺ قال : إن الهجرة خصلتان : إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله. ولاتنقطع ماتُقُبِّلَتِ التوبة . ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب. فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلب بما فيه، وكُفِيَ الناسُ العملَ.

قال ابن كثير : هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

وَهٰهُنا مسائل

الأولى : ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) فى الآية هو طلوع الشمس من مغربها . كما فى حديث الصحيحين[1] السابق . ولا يقال يخالف ذلك حديث مسلم[2] : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها . . . الحديث . وفى ثبوت ذلك بخروج الدجال نظر . لأن نزول عيسى ﷺ بعده. وفى زمنه خير كثير دنيويّ وأخرويّ. فالإيمان مقبول وقتئذ . لأنا نقول: لا منافاة . وذلك لأن (البعض) فى الآية، إن كان عدة آيات ، فطلوع الشمس هو آخرها المتحقق به عدم القبول، وإن كان إحدى آيات ، فهو محمول على المعيّن فى الحديث، لأنه أعظمها. كذا فى (العناية) .

قال ابن عطية : إذا أخبر النبيّ ﷺ بتخصيص مانع القبول بالطلوع، فى الحديث الصحيح، لم يجز العدول عنه ، وتعيّن أنه معنى الآية . انتهى .

وقال القاضي عياض : المعنى لا تنفع توبة بعد ذلك . بل يختم على عمل كل أحد بالحالة التى هو عليها . والحكمة فى ذلك أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلويّ . فإذا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٧٧و٢٥٧٨ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٧٨ .

شوهد ذلك حصل الإيمان الضروريّ بالمعاينة . وارتفع الإيمان بالغيب . فهو كالإيمان عند الغرغرة . وهو لا ينفع . فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله .

الثانية : قال السيوطيّ فى (الإكليل) : استدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان لا ينفع مع عدم كسب الخير فيه . وهو مردود . ففى الكلام تقدير . والمعنى : لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبلُ ، إيمانُها حينئذ ، ولا ينفع نفساً لم تكسب خيرًا قبلُ ، توبتُها حينئذ .

وقال الشهاب السمين : قد أجاب الناس بأن المعنى فى الآية إنه إذا أتى بعض الآيات لا ينفع نفساً كافرة، إيمانُها الذى أوقعته إذ ذاك . ولا ينفع نفساً سبق إيمانها ولم تكسب فيه خيرًا . فقد علق نفى نفع الإيمان بأحد وصفين : إما نفى سبق الإيمان فقط ، وإما سبقه مع نفى كسب الخير . ومفهومه أنه ينفع الإيمان السابق وحده ، وكذا السابق ومعه الخير . ومفهوم الصفة قوىّ فيستدل بالآية لمذهب أهل السنة . ويكون فيه قلب دليل المعتزلة ، دليلًا عليهم .

وأجاب ابن المنير فى (الانتصاف) فقال : هذا الكلام من البلاغة يلقب (اللف) وأصله : يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة قبلُ ، إيمانُها بعدُ . ولا نفساً لم تكسب خيرًا قبلُ ، ما تكتسبه من الخير بعدُ ، فَلَفَّ الكلامين فجعلهما كلامًا واحدًا إيجازًا . وبهذا التقرير يظهر أنها لا تخالف مذهب أهل الحق . فلا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ولو نفع الإيمان المتقدم من الخلود . فهى بالرد على المعتزلة أولى من أن تدل لهم .

وقال ابن الحاجب فى (أماليه) : الإيمان قبل مجيء الآية نافع ولو لم يكن عمل صالح غيره ، ومعنى الآية : لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح، لم يكن الإيمان قبل الآية ، أو لم يكن العمل مع الإيمان قبلها . فاختصر للعلم .

ونقل الطيبيّ كلام الأئمة فى ذلك . ثم قال : المعتمد ما قال ابن المنير وابن الحاجب. وبسطه:

أن الله تعالى ، لما خاطب المعاندين بقوله تعالى (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ . .)[١] الآية، علل الإنزال بقوله (أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ)[٢] الخ إزالة للعذر وإلزاما للحجة . وعقبه بقوله (فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ) الخ تبكيتا لهم وتقريرا لما سبق من طلب الاتباع . ثم قال (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ ..) الآية أى أنه أنزل هذا الكتاب المنير كاشفاً لكل ريب وهاديا إلى الطريق المستقيم ورحمة من الله للخلق، ليجعلوه زادا لمعادهم فيما يقدمونه من الإيمان والعمل الصالح. فجعلوا شكر النعمة أن كذبوا بها ومنعوا من الانتفاع بها . ثم قال (هَلْ يَنظُرُونَ ...) الآية . أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم عذاب الدنيا بنزول الملائكة بالعقاب الذى يستأصل شأفتهم. كما جرى لمن مضى من الأمم قبلهم . أو يأتيهم عذاب الآخرة بوجود بعض قوارعها . فحينئذ تفوت تلك الفرصة السابقة فلا ينفعهم شيء مما كان ينفعهم من قبلُ، من الإيمان . وكذا العمل الصالح مع الإيمان . فكأنه قيل : يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح فى إيمانها حينئذ ، إذا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا من قبل. ففى الآية لف . لكن حذفت إحدى القرينتين بإعانة النشر ، ونظيره قوله تعالى[٣] : وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً .

قال : فهذا الذى عناه ابن المنير بقوله : إن هذا الكلام فى البلاغة يقال له (اللف) والمعنى يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة من قبل ذلك، إيمانُها من بعد ذلك ،

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٥] . . . وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦] . . . عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٧٢] ونصها : لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، . . .

ولا ينفع نفساً كانت مؤمنة، لكن لم تعمل في إيمانها عملا صالحاً قبل ذلك، ما تعمله من العمل الصالح بعد ذلك. قال : وبهذا التقرير يظهر مذهب أهل السنة . فلا ينفع بعد ظهور الآية اكتساب الخير ، أي: لإغلاق باب التوبة ورفع الصحف والحفظة . وإن كان ما سبق قبل ظهور الآية من الإيمان ينفع صاحبه في الجملة .

ثم قال الطيبي: وقد ظفرتُ ، بفضل الله بعد هذا التقرير ، على آية أخرى تشبه هذه الآية وتناسب هذا التقرير معنى ولفظاً . من غير إفراط ولا تفريط . وهي : قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ...(١) الآية . فإنه يظهر منه أن الإيمان المجرد قبل كشف قوارع الساعة نافع . وأن الإيمان المقارن بالعمل الصالح أنفع . وأما بعد حصولها فلا ينفع شيء أصلا. والله أعلم. انتهى ملخصاً .

الثالثة : قال في (الوجيز) في قوله تعالى (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) أي لفصل القضاء بين خلقه. وإتيانه نؤمن به ولا نعرف كيفه . انتهى .

وفي حواشي (جامع البيان) : كيف لا يؤمن بإتيانه ومجيئه تعالى يوم القيامة، وقد جاء في القرآن في عدة مواضع : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ (٢). وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(٣) . إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ(٤)، وأي أمر أصرح منه في القرآن ؟ .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٥٢و٥٣] ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة/ ٢١٠] ... وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

(٣) [٨٩ / الفجر / ٢٢] .

(٤) [١٦/ النحل/٣٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

وروى الطبري[1] في (تفسيره) عن ابن عباس مرفوعا : إن في الغمام طاقات يأتي الله فيها، محفوفاً . وذلك قوله[2] : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ .

قال عكرمة : والملائكة حوله، فهذا من صفات الله تعالى. يجب علينا الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت وإن لم نعرف كيفيتها . وعدم علمنا بكيفيتها ، بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته . فلا نكذب بما علمناه لعدم علمنا بما لم نعلمه . وهذا هو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة . انتهى .

وقوله تعالى « قُلِ انْتَظِرُوا » أي: قل لهؤلاء الكافرين، بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أي شيء تنتظرون . « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أي لذلك ، لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة .

ثم بيّن تعالى أحوال أهل الكتاب ، إثر بيان حال المشركين بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أي : اختلفوا فيه ، مع وحدته في نفسه ، فجعلوه أهواء متفرقة « وَكَانُوا شِيَعًا » أي : فرقاً تشيع كل فرقة إماما لها بحسب غلبة تلك الأهواء . فلم يتعبدوا إلا بعادات وبدع، ولم ينقادوا إلا لأهواء وخدع « لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » أي : من عقابهم . أو أنت بريء منهم محميّ الجناب عن مذاهبهم . أو المعنى : اتركهم فإن لهم مالهم. وقال القاشانيّ : أي: لست من هدايتهم إلى التوحيد في شيء . إذ هم أهل التفرقة

---

(١) الأثر رقم ٤٠٣٨

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٠] ... وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

لا يجتمع هممهم ولا يتحد قصدهم « إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ » أى: فى جزاء تفرقهم ومكافأتهم، لا إليك « ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ » يعنى إذا وردوا يوم القيامة « بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى : من السيئات والتفرقة ، لمتابعة الأهواء . ويجازيهم على ذلك بما يماثل أفعالهم .

تنبيه :

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدّىّ : نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى . وروى العوفىّ عن ابن عباس فى الآية؛ أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتفرقوا . وحمل بعضهم الآية على أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة . وآخر على الخوارج . وأسندوا فى ذلك حديثاً رفعوه .

قال ابن كثير : وإسناد ذلك لا يصحّ . ثم قال : والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له . فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أى فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برّأ رسولَ الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...)[١] الآية. وفى الحديث[٢] نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلّات . ديننا واحد. فهذا هو الصراط المستقيم،

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . . . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ ونصه :

عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « أنا أولى الناس بابن مريم . والأنبياء أولاد عَلّات . ليس بينى وبينه نبىّ » .

وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لاشريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر. وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء . والرسل برءاء منها كما قال الله تعالى : لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ؛ ثم قال : وقوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) كقوله تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[١] الآية. انتهى .

وقد أخرج أبو داود [٢] عن معاوية قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ألا إنّ مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة . وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين. ثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة . ورواه الترمذىّ عن عبد الله بن عمْرو ، وفيه : قالوا من هى يا رسول الله ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابى .

ثم بين لطفه سبحانه فى حكمه وعدله يوم القيامة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » أى جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة « فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » يعنى عشر حسنات أمثالها فى الحسن .

قال (المهايمىّ) : كمن أهدى إلى سلطان عنقود عنب يعطيه بما يليق بسلطنته ، لا قيمة

---

(١) [٢٢ / الحج/ ١٧] . . . إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١ ـ باب شرح السنة ، حديث رقم ٤٥٩٧ .

العنقود. انتهى . والعشر أقل ماوعد من الأضعاف. وقد جاء الوعد بسبعين ، وبسبعمائة وبغير حساب . ولذلك قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ » أى:بالأعمال السيئة « فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا » فى القبح .

قال المهايمىّ : فمن كفر خلد فى النار ، فإنه ليس أقبح من كفره . كمن أساء إلى سلطان يقصد قتله . ومن فعل معصية عذب بقدرها كمن أساء إلى آحاد الرعية . انتهى .

« وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى : بنقص الثواب وزيادة العقاب.

لطيفة :

قال القاشانىّ فى قوله تعالى (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) : هذا أقل درجات الثواب . وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب والسيئة بظهور النفس . فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب الذى يتلو مقام النفس فى الارتقاء، تلو مرتبة العشرات للآحاد فى الأعداد . وأما فى السيئة فلأنه لامقام أدون من مقام النفس، فينحط إليه بالضرورة . فيرى جزاءه فى مقام النفس بالمثل . ومن هذا يعلم أن الثواب من باب الفضل . فإنه يزيد به صاحبه ويتنوّر استعداده ويزداد قبوله لفيض الحق. فيتقوى على أضعاف مافعل ويكتسب به أجورًا متضاعفة إلى غير نهاية ، بازدياد القبول على فعل كل حسنة وزيادة القدرة والشغف على الحسنة عند زيادة الفيض إلى ما لايعلمه إلا الله . كما قال بعد ذكر أضعافها إلى سبعمائة : وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ(1) . وأن العقاب من باب العدل إذ العدل يقتضى المساواة. ومن فعل بالنفس، إذا لم يعف عنه ، يجازى بالنفس سواء . انتهى .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

تنبيه :

وردت أحاديث كثيرة فى معنى الآية . فروى الإمام أحمد[١] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ، فيما يروى عن ربه تعالى : إن ربكم تبارك وتعالى رحيم . من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ولا يهلك على الله إلا هالكُ . ورواه البخارىّ[٢] ومسلم[٣] والنسائىّ . وروى الإمام[٤] أحمد ومسلم[٥] عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أو أزيد . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أوأغفر . ومن تقرب منى

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٥١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق، ٣١ ـ باب من همّ بحسنة أو سيئة ، حديث ٢٤٣٥ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه بالكامل :

عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها ، أو أَغْفِرُ . ومن تقرّب منى شبرًا ، تقربت منه ذراعا . ومن تقرب منى ذراعا ، تقرّبت منه باعا . ومن أتانى يمشى، أتيته هرولة . ومن لقينى بقُرَاب الأرض (قراب الأرض ما يقارب مِلْأها) خطيئة ، لا يشرك بى شيئًا، لقيته بمثلها مغفرة » .

شبرًا تقربت منـــه ذراعاً . ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً . ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بى شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة . وروى الشيخان[1] عن أبى هريرة . أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة . لفظ البخارىّ . وروى الطبرانىّ عن أبى مالك الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام . وذلك لأن الله تعالى قال : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . وروى[2] الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله. ورواه النسائىّ والترمذىّ وزاد: فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، اليوم بعشرة أيام .

وبقيت أخبار أخر . وفيما ذكر كفاية .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر أولئك المفرقين دينهم بما أنعم سبحانه عليه، من إرشاده إلى دينه القويم بقوله:

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٥ ـ باب قول الله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ ، حديث ٢٦٠١ .

وأخرج فى معناه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان حديث ٢٠٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده المخلصين « دِينًا » نصب على البدل من محل (إلى صراط) لأن معناه هدانى صراطاً. بدليل قوله (وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً)(١) أومفعول لمضمر يدل عليه المذكور . أى عرفنى ديناً . أو مفعول (هدانى) . و (هدى) يتعدى إلى اثنين « قِيَماً » صفة (دِيناً) يقرأ بالتشديد أى: ثابتاً أبدًا لا تغيره الملل والنحل، ولا تنسخه الشرائع والكتب، مقوماً لأمر المعاش والمعاد . ويقرأ بالتخفيف على أنه مصدر نعت به . وأصله قِوَم كَعِوَض . فَأُعِلّ لإعلال فعله كالقيام . « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » المتفق على صحتها وهى التى أعرض بها عن كل ما سواه تعالى . عطف بيان لـ (دِيناً) « حَنِيفاً » حال من (إِبْرَاهِيمَ) أى مائلًا عن كل دين وطريق باطل ، فيه شركٌ ما ، وقوله تعالى « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل . أى ما كان منهم فى أمر من أمور دينهم أصلًا وفرعاً. صرح بذلك ردًّا على الذين يدعون أنهم على ملته من مشركى مكة واليهود والنصارى. أفاده أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية كقوله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(٢) وليس يلزم من كونه أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية،

(١) [٤ / النساء / ١٧٥] ونصها : فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ . . .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٣] .

أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها. لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً ، وأكملت له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال . ولهذا قال : أنا خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذى يرغب إليه الخلق ، حتى الخليل عليه السلام . وروى ابن مردويه عن ابن أبزى عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا وملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . وروى الإمام أحمد[1] عن ابن عباس قال قيل لرسول الله ﷺ : أىّ الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الحنيفية السمحة . وروى الإمام أحمد[2] عن عائشة قالت : وضع رسول الله ﷺ ذقنى على منكبيه لأنظر إلى زَفْنِ الحبشة . حتى كنت التى مللت ، فانصرفت عنهم . وقالت عائشة : قال لى رسول الله ﷺ يومئذ : ليعلم يهود أن فى ديننا فسحة . إنى أرسلت بحنيفية سمحة .
وأعيد الأمر فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِى » لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع ، وما سبق بأصولها . أى : إن صلاتى إلى الكعبة « وَنُسُكِى » أى : طوافى وذبحى للهدايا فى الحج والعمرة ، أو عبادتى كلها « وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى » أى : وما آتيه فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح . أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى الممات ، كالوصية والتدبير . أو الحياة والممات أنفسهما « لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢١٠٧ (طبعة المعارف)

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

« لَا شَرِيكَ لَهُ » أى : خالصة لله لا أشرك فيها غيره « وَبِذَٰلِكَ » أى : القول أوالإخلاص« أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » أى:من هذه الأمة . لأن إسلام كل نبىّ متقدم على إسلام أمته .

قال ابن كثير : يأمر تعالى نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غيرالله تعالى ويذبحون لغير اسمه ؛ أنه مخالف لهم فى ذلك . فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا » فأشركه فى عبادته . وهوجواب عن دعائهم له عليه الصلاة والسلام إلى عبادة آلهتهم ، وفى إيثار نفى البغية والطلب ، على نفى العبادة ، أبلغيّة لا تخفى « وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ » حال فى موضع العلةللإنكار والدليل له . أى وكل ماسواهمربوب مثلى لا يصلح للربوبية ، فلا أكون عبداً لعبده .

قال ابن كثير : أى فلا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه . لأنه رب كل شىءومليكه وله الخلق والأمر . ففى هذه الآية الأمر بإخلاص العبادة والتوكل . كما تضمنت الآية التى قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً . كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . وقوله(١) : فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ.

---

(١) [١١ / هود / ١٢٣] .

وقوله (قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)(١) وقوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)(٢) وأشباه ذلك من الآيات.

« وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » .

قال ابن كثير: إخبار عن الواقع يوم القيامة من جزاء الله تعالى وحكمه وعدله؛ أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد . وهذا من عدله تعالى .

وقال أبو السعود : كانوا يقولون للمسلمين : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . إما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم ، وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا ـ فهذا رد له بالمعنى الأول . أي لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها . ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر ، حتى يتأتى ما ذكرتم . وقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) رد له بالمعنى الثاني . أي : لا تحمل يومئذ نفس حاملة، حمل نفس أخرى، حتى يصح قولكم .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : هذه الآية أصل في أنه لا يؤاخذ أحد بفعل أحد . وقد ردت عائشة به على من قال : إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه. أخرجه البخاري(٣)، وأخرج

(١) [٦٧ / الملك / ٢٩] . . . . فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [٧٣ / المزمل / ٩] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٣ ـ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه . وسنسوقه بما فيه من الحوار الذي دار بين عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وبين سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها .

عن ابن جريج قال : أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال : توفيت ابنة =

ابن أبي حاتم عنها ؛ أنها سئلت عن ولد الزنى؟ فقالت ليس عليه من خطيئة أبويه شيء. وتلت هذه الآية .

قال: الكيا الهراسي : ويحتج بقوله : (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) في عدم

= لعثمان رضي الله عنه ، بمكة . وجئنا لنشهدها . وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. وإني لجالس بينهما (أو قال: جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي) فقال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما ، لعمرو بن عثمان : ألا تنهى عن البكاء ؟ فإن رسول الله ﷺ قال « إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه » .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : قد كان عمر رضي الله عنه يقول بعض ذلك .

ثم حدّث قال : صدرتُ مع عمر رضي الله عنه من مكة ، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سَمُرة . فقال : اذهب فانظر مَنْ هؤلاء الركب . قال فنظرت فإذا هو صهيب . فأخبرته فقال : ادعه لي . فرجعت إلى صهيب : فقلت : ارتحل فالحق أمير المؤمنين.

فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول : وا أخاهْ واصاحباهْ .

فقال عمر رضي الله عنه : ياصهيب ، أتبكي عليّ وقد قال رسول الله ﷺ « إن الميت يعذَّب ببعض بكاء أهله عليه » ؟

قال ابن عباس رضي الله عنه : فلما مات عمر رضي الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها . فقالت : رحم الله عمر . والله ! ماحدّث رسول الله ﷺ : إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه . ولكن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه » وقالت : حسبكم القرآن : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك : والله هو أضحك وأبكى .

قال ابن أبي مليكة : والله ! ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئاً .

ورقم حديث ابن عمر ٦٨٤ وعمر ٦٨٥ وعائشة ٦٨٦ .

نفوذ تصرف زيد على عمرو إلّا ما قام عليه الدليل . قال ابن الفرس : واحتج به من أنكر ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام .

وقال بعض الزيدية : قوله تعالى : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) يعنى فى أمر الآخرة. فيبطل قول إن أطفال المشركين يعذبون بكفر آبائهم . ويلزم أن لا يعذب الميت ببكاء أهله عليه . حيث لا سبب له . وأما فى أمر الدنيا، فقد خص هذا بحديث العاقلة . وكذلك أسر أولاد الكفار ونحو ذلك . انتهى .

« ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » أى : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل . وهذه الآية كقوله تعالى : (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ*قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ » جمع خليفة . أى يخلف بعضكم بعضا فيها ، فتعمرونها خلفا بعد سلف ، للتصرف بوجوه مختلفة « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » أى فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة فى ذلك . كقوله تعالى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)(٢) وقوله

---

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٥و٢٦] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٢] ونصها: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا=

سبحانه (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)(١)
وقوله تعالى « لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » أى : ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم ، أى امتحنكم ، ليختبر الغنىّ فى غناه ويسأله عن شكره ، والفقير فى فقره ويسأله عن صبره .
وفى صحيح مسلم(٢) عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء . أفاده ابن كثير .

ثم رهّب تعالى من معصيته ورغّب فى طاعته بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ » أى : لمن عصاه وخالف رسله « وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى: لمن والاه واتبع رسله .

لطائف

الأولى : قال السيوطىّ فى (الإكليل) . استدل بقوله تعالى (جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) مَنْ أجاز أن يقال للإمام: خليفة الله . انتهى .

أى: بناء على وجهٍ فى الآية. وهو أن المعنى: جعلكم خلائف الله فى الأرض تتصرفون فيها. ذكره المفسرون . وآثرتُ ، قبلُ ، غيرَ هذا الوجه لأنه أدق وأظهر ، والله أعلم .

الثانية: قال القاضى : وصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة ، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة ـ تنبيها على أنه سبحانه وتعالى غفور بالذات ، معاقب بالعرض ، كثير الرحمة مبالغ فيها ، قليل العقوبة مسامح فيها. انتهى .

= بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢١] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٩٩ (طبعتنا) .

الثالثة : قال ابن كثير : إن الحق تعالى ، كثيرا ما يقرن في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)(١) وقوله : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (٢). إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب. فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه. وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها . وتارة بهما. لينجع في كلّ بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك مانهى عنه وزجر ، أنه قريب مجيب.

قد تم بحمده تعالى الكلام على (محاسن تأويل) سورة الأنعام. وذلك ضحوة الأربعاء في ٢٨ ربيع الأول. في شباك السدّة اليمنى العليا من جامع السنانية عام ١٣٢١ . وكان تخلل مدة شهر ونصف، وقفت عن كتابة شيء من هذه السورة فيها ، وذلك من آخر البحث في قوله تعالى : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ...) الآية ، لعارض رحلتي إلى بيت المقدس في ٢٨ محرم من العام المذكور . وبعد العود إلى الوطن في ٨ ربيع الأول بدأت من قوله تعالى (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ..) الآية، في ٢٠ ربيع الأول ، وتمت السورة في التاريخ المتقدم ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . بقلم جامعه جمال الدين القاسمي

ـ ويليه الجزء السابع ـ ويحتوي على تفسير سُوَر : ٧ ـ الأعراف، ٨ ـ الأنفال، ٩ ـ التوبة

---

(١) [١٣ / الرعد / ٦] ونصها : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، ....

(٢) [١٥ / الحجر / ٤٩و٥٠] .